صفحة من تاريخ

العلاقات بين الشرق والغرب

الشرق الإسلامى والدولة البيزنطية
زمن الأيوبيين

تأليف

ا.د زبيدة محمد عطا

رئيس قسم التاريخ

كلية الآداب - جامعة المنيا

١٩٩٤



الشرق الإسلامي والدولة البيزنطية
زمن الأيوبيين

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾

صدق الله العظيم



DAR AL AMEEN

طبع • نشر • توزيع

القاهرة : ١٠ ش بستان الدكة من ش الألفى (مطابع سجل العرب)
تليفون : ٩٣٢٧٠٦
ص.ب : ١٣١٥
العتبة ١١٥١١

الجيزة : ١ ش سوهاج من ش الزقازيق خلف قاعة سيد درويش بالهرم

٨ ش أبو المعالى (خلف مسرح البالون) العجوزة
تليفون : ٣٤٧٣٦٩١
ص.ب : ١٧٠٢
العتبة ١١٥١١

١٤١٦هـ - ١٩٩٦م

رقم الإيداع ٤٣٠٣/١٩٩٤

I.S.B.N.

977—5424—62—3

مقدمة

العلاقات بين بيزنطة والشرق الإسلامى علاقات بعيدة المدى ، فهى ترجع بأصولها إلى يهود الإسلام واستيلاء المسلمين على أغنى الأقاليم الشرقية للدولة البيزنطية، فأصبحت الدولة الإسلامية ندًّا ومنافِسًا للدولة البيزنطية .

واتخذت العلاقات الإسلامية البيزنطية مراحل تاريخية :

تبدأ المرحلة الأولى بظهور الإسلام إلى بداية الحروب الصليبية أواخر القرن الحادى عشر الميلادى وتميزت هذه الفترة بالصراع الدائم بين كلا الجانبين ، بل سعت الجيوش الإسلامية إلى الاستيلاء على القسطنطينية ، واستمرت الدولتان تتبوءان مكانة عظيمة فى تاريخ العصور الوسطى إلى أن ظهرت عناصر فى تاريخ تلك المنطقة غيرت من طبيعة تلك العلاقات .

من هذه العناصر : السلاجقة الذين اخترقوا حدود بيزنطة ، وانتزعوا من البيزنطيين آسيا الصغرى منها أيضا : الحركة الصليبية التى أقامت فى العالم الإسلامى فى بلاد الشام إمارات استمرت زمنا طويلا ، ولقد لعب هذان العنصران دورا هاما فى العلاقات الإسلامية البيزنطية نظرا لما لبيزنطة من سياسة مزدوجة ، مع العالم الإسلامى فى الشرق والعالم المسيحى فى الغرب . ومن العسير دراسة تلك الفترة إلا بالتعرف إلى تأثير السلاجقة والصليبيين فى منطقة الشرق الأوسط فى كل ما يجرى وقت ذاك من صراع أو اتفاق إسلامى بيزنطى سياسى أو حربى .

أما المرحلة الثانية ، فإنها تتمثل فى حرص بيزنطة على المحافظة على ما تبقَّى لها من نفوذ فى الشرق الأوسط بعد قيام الإمارات اللاتينية ، ومن هنا كان لهذا البحث أهميته فهو يلقى الضوء على فترة من تاريخ العلاقات بين الشرق الإسلامى والبيزنطيين لم يتعرض لها الباحثون كثيرا ، بل إن المراجع العربية لم تتعرض لهذه العلاقات فى بعض مراحلها ، إلا نادرا وفى إشارات عابرة ، بل اعتبر بعض المؤرخين أن العلاقات بين الشرق الإسلامى وبيزنطة تنتهى بظهور السلاجقة وقيام الحركة الصليبية ، رغم أن هذه الفترة عاصرت سقوط الخلافة الفاطمية وقيام الأيوبيين بدور المدافع عن الإسلام ، كما

شاهدت ضعف الخلافة العباسية ثم سقوطها على يد المغول وانهيار بيزنطة وانقسامها إلى ممالك ، ولكن ما حدث فعلا هو انتهاء لحقبة تاريخية امتازت بخصائص معينة ، وبداية لفترة جديدة فى العلاقات ، وإذ تعتبر فترة حكم صلاح الدين من أهم فترات العلاقات البيزنطية العربية ، عرضت فى فصلين من الرسالة ، لتلك الفترة ، وأفدت من الوثائق والرسائل التى لم تنشر من قبل ، يضاف إلى ذلك ما كان للعلاقات السلمية من أهمية عند المسلمين والبيزنطيين ، وتأثرها بوضع الإمارات اللاتينية فضلا عن التسابق بين المدن الإيطالية التجارية على توطيد مركزها الاقتصادى .

وفى الفصل الثالث ، ونظرا لأهمية فترة حكم صلاح الدين اتخذت العلاقات الإسلامية البيزنطية مرحلتين امتدت المرحلة الأولى من ١١٦٧ إلى ١١٨١ ، وفى هذه الفترة بلغ التحالف البيزنطى الصليبى ذروته فى مناهضة مصر وصلاح الدين . فقد رأى الجانبان الصليبى والبيزنطى أن يبدأ بالقضاء على القوة الحقيقية المتمثلة فى مصر ، فوجَّها إليها خلال تلك الفترة حملات صليبية بيزنطية عديدة كالتى توجهت سنة ١١٦٩ فحاصرت دمياط ، وإذ حاق بالحملات الفشل حمَّل كلا الطرفين الآخر جريرة ما حدث ، لهذا دب الشقاق بينهما الذى انتهى بمذبحة القسطنطينية للاتين واتجاه بيزنطة إلى الأيوبيين التماسا لمحالفتهم .

والفصل الرابع يُعالج ما حدث من تغيير سياسة بيزنطة من النقيض للنقيض بعد فشلها فى تحقيق هدفها من التحالف ، فسعت إلى التحالف مع صلاح الدين ضد الصليبيين فى فترة حكم آل انجيلوس ، تبادل فيها الفريقان سفارات الصداقة والود ونعما كلا الجانبين بالتسامح الدينى ، وعقد الاتفاقات ضد الحملات الصليبية التى قامت بيزنطة بعرقلة سيرها ، وإن كانت هذه السياسة لم تجن بيزنطة من ورائها إلا ازدياد الكراهية لليونان سواء من جانب اللاتين فى الشام أو دول أوربا أو البابوية .

والفصل الخامس وهو يمتد من ١١٩٣ - ١٢٥٠ وينقسم لفترتين من ١١٩٣ - ١٢٠٤ هذه الفترة استمرار للعلاقات الودية بين بيزنطة والجانب الإسلامى فضلا عن ظهور عامل هام لعب دورا كبيرا فى مصير كلا الدولتين الأيوبية والبيزنطية ، وهذا العامل يمثله ظهور البندقية وأهميتها من الناحية الاقتصادية فى حوض البحر المتوسط يضاف إلى ذلك كراهية الغرب لبيزنطة التى أدت إلى تحول الحملة الصليبية الرابعة إلى بيزنطة بدلا من مصر ، وبهذا دخلت العلاقات الإسلامية البيزنطية فى طور جديد ، أما

الفترة التالية ١٢٠٤ - ١٢٥٠ فتلى سقوط بيزنطة على يد اللاتين وانقسامها لممالك عدة شغلت بالصراع فيما بينها واقتصرت علاقاتها بـالشرق الإسلامى على السلاجقة جيرانها القـدماء فتحـالف السلاجقـة مع بعضهـا ، ودخل فى صراع مع البعض الآخر كما هـو الحال مع مملكة طرابيـزون التى دانت لها بالولاء ، إلى أن ظهرت قـوة المغول وقضت على دولة السلاجقة . وتنتهى دراستى للموضوع بسقوط الدولة الأيوبية وتوحيد بيزنطة وقيام آل باليولوحوس .

أما الفصل السادس فعالج تأثير كـل من الجانبين على الآخر فى النواحى السلمية ثم تنـاول مظـاهر هـذا التأثير المتبـادل ، وتأثير الحروب الصليبيـة الحضارى على كـلا الجانبين وعلى الحضارة الأوربية ، وبرغم كثـرة الحروب التى دارت بين الطرفين فقد كان هناك فترات طويلة سـادها السلام نشطت فيها حركة التجـارة ، كما ظهرت بعض آثار هذا النشاط فى النواحى الاجتماعية مثل وجود بعض المزارات الإسلامية .

وألحقت بـالبحث عددا من الخرائط خـريطة للعـالم الإسلامى إلى نهايـــة القـرن الثانى عشر وخريطة لمصر زمن صلاح الدين ثم خـريطتان للدولة البيزنطية فى عهد آل كومنين وأنجيلوس توضحان التغيرات التى طرأت على الحدود البيزنطية الإسلامية .

والملاحق تشمل أولا ثبتـا بأسماء حكام الشرق الإسـلامى والقوى المسيطـرة عليه آنذاك سواء فاطمية أو عباسية ثم أيوبية وكذلك حكام السلاجقة ثم حكام بيزنطة .

وملاحق أخـرى تتناول نصوص هامة كـالملحق الخاص برسالة صـلاح الدين إلى الخليفة العباسى يعدد فضائله فى قتال الفرنج وبيزنطة .

والملحق الخاص بـوصف القاضى الفـاضل لبعض رسـائل الامبراطور البيـزنطى لصلاح الدين بشأن إنفاذ خطيب ومنبر ومؤذنين للجامع المقام بالقسطنطينية .

ثم رسالة الكيكافـوس إلى صلاح الدين يذكر فيها جهود بيزنطـة لعرقلة سير حملة فردريك الصليبية .

ثم نصوص من كتـابات الرحّـالة التى توضح أوصـاف مدينة بيـزنطة أو المزارات الإسلامية الهامة والتسامح الدينى الذى نعِم به المسلمون .

* * *

الفصل الأول

مصادر البحـــث

المصادر العربية المعاصرة .

المصادر العربية اللاحقة .

المصادر الأوربيـــــة .

المصادر العربية المعاصرة :

ابن شداد : ولد بالموصل سنة ٥٦٨ هـ وتلقى تعليما يؤهله للتدريس والقضاء ، فقام بالتدريس فى المدرسة النظامية ببغداد ثم أنفذه لأمير الموصل فى سفارته لصلاح الدين فى سنة ١١٨١ - ١١٨٢ حينما تطور النزاع بينهما ثم دخل فى خدمة صلاح الدين بناء على رغبته[١] وظل مقرَّبا لأمير حلب الظاهر غازى ثم ابنه العزيز . ولكن حين بلغ العزيز سن الرشد التف حوله جماعة من المفسدين فلزم ابن شداد داره وتخلى عن مجلس العزيز وتوفى سنة ٦٣٢ هـ بحلب[٢] ، ولكتابه النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية أهمية خاصة ، إذا أفاد من اتصاله بالعلماء والفقهاء ، وملازمته لصلاح الدين على أن جزء فيه هو الذى عاصره ويمتاز كتابه بالإدراك السليم والأمانة ولقد اعتمد فى الفترة السابقة على المؤرخين السابقين له ، بينما حوى الشطر الآخر من الكتاب وصف ما شهده من الوقائع وإثبات الأحداث التى جرت فى عهد صلاح الدين ولذا أشار إلى ما كان من علاقات دبلوماسية بين صلاح الدين وأباطرة بيزنطة[٣] .

ابن الأثير : من أشهر مؤرخى تلك الفترة وهو واحد من ثلاثة إخوة مشهورين والمقصود هنا هو عز الدين بن الأثير الذى ولد فى جزيرة ابن عمر ورحل إلى الموصل ثم إلى الشام والقدس، وذهب إلى بغداد مرات عديدة رسولا من صاحب الموصل ، وبعد انهيار الدولة الأتابكية عاد إلى الموصل ولزم بيته منقطعا إلى العلم والدراسة وتوافرت له مادة تاريخية[٤] ، على أن أخاه ضياء الدين اتصل بصلاح الدين ثم بأبنائه من بعده .

وكان ابن الأثير يميل إلى الزنكيين بالموصل فألف كتابا فى الدولة الأتابكية ، وهذا يفسر تحيزه وتحامله على صلاح الدين فى تاريخه لبعض الأحداث .

---

(١) العرينى : مؤرخو الحروب الصليبية ص ١٩٩ .
(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٧٠ .
(٣) العرينى : مؤرخو الحروب الصليبية ص ١٦٨ .
(٤) ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات ج ٢ ص ٣٧ .
(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج / ص ٤٣٨ .

ولقد بدأ تاريخه من أول الزمان إلى آخر سنة ثمان وعشرين وستمائة أى إلى قبل وفاة الكامل بست سنوات .

وكان ابن الأثير دقيقا فيما ينقل فاعتمد على الموازنة بين الأقاليم وما يقع فيها من أحداث .

وقد أفادته دراسته بأنساب العرب ، وأيامهم ، وقد أفاد من العماد وابن القلانسى، وابن الأثير شديد الاهتمام والتثبت فيما يكتب ويعمد أحيانا إلى نقد المصادر التى يستقى منها الأخبار ، وأحيانا يعمد إلى تلخيص الحوادث الماضية عند تدوين حادثة جديدة . وعاصر الكاتب اكتساح جنكيز خان والتتر لبلاد الإسلام واطلع ابن الأثير على مكاتبات صلاح الدين مع ملوك البلاد المجاورة .

وهذا الكتاب من الكتب الأساسية فى كل دراسة عن الأيوبيين والبيزنطيين وعلاقاتهم الحربية والسلمية والمعاهدات ودور الصليبيين فى الصراع[1] .

وليس هذا الكتاب الوحيد الذى يوضح أوضاع الأيوبيين وبيزنطة ، بل له كتاب آخر يلقى الضوء على النواحى الاجتماعية والاقتصادية وهو كتاب « تحفة العجائب وطرفة الغرائب » . استقى مادته من عدد من مؤلفات الرحّالة والجغرافيين مثل المناهج والمباهج للرواقى ، والعجائب للقزوينى والمالك والممالك الشرقية للجيهانى ، والعجائب للسهروردى . مازال هذا الكتاب مخطوطا . وتحدث فيه عن أسواق بيزنطة ومناراتها وعن بعض الآثار الإسلامية أو المزارات وعرض صورة عن تقسيماتها الإدارية وقد قسم العالم على عادة الجغرافيين إلى أقسام سبعة[2].

أبو شامة : مقدسى الأصل ، نشأ فى دمشق وتعلم فيها وفى الإسكندرية ودرس الفقه وبرع فى العربية ، وكتب فى كثير من العلوم وتوفى فى ٦٦٥هـ . ألف كتاب الروضتين وكتاب الذيل على الروضتين ، وكتاب الروضتين يشمل تفاصيل كثيرة عن الحروب الصليبية ، ويشمل سيرة نور الدين وصلاح الدين ، وكان اهتمامه بصلاح الدين يفوق نور الدين[3] . اعتمد على كتاب أبى القاسم الدمشقى وابن الأثير

---

(١) سعداوى : نظير حسان : خمسة من معاصرى صلاح الدين ص ١٠ .

(١) العرينى : مؤرخو الحروب الصليبية ٢٠٤ / ٢٠٨ .

(٢) ابن الأثير تحفة العجائب وطرفة الغرائب - مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٤٩٩ جغرافيا.

(٣) ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات ج٢ ص ٢٥ .

والقاضي ابن شداد والعماد الكاتب ، وحذف الأسجاع وكل تعقيد فامتازت كتابته بالسلاسة ، وأورد كل الرسائل التى كتبها القاضى الفاضل لصلاح الدين مما ألقى الضوء على مراسلات صلاح الدين مع بيزنطة كرسالته إلى صاحب القسطنطينية وحديثه عن البيازنة وأهل جنوة . واستبعد الأخبار التى لا أهمية لها ، والرسائل التى لا تضيف جديدًا إلى جانب مقارنة تلك الأخبار بما سمعه من أفراد ثقاة عاصروا تلك الفترة[1] .

ابن العديم : كمال الدين ابن العديم ولد بحلب سنة ٥٧٦هـ .

وهو من أسرة كبيرة ، سمع عن أبيه ، وعن جماعة بدمشق ، وحلب ، والقدس ، والحجاز والعراق ، وكان ابن العديم مؤرخا وفقيها ، ألف عدة كتب منها : بغية الطلب فى تاريخ حلب الذى اختصره فى كتاب زبدة الحلب فى تاريخ حلب والتزم الكتاب الترتيب الزمنى حسب السنين . واعتمد ابن العديم على مصادر التاريخ والكتب المؤلفة قبله ، واختار منها نصوصا نقلها إلى تاريخه[2] . وجعلها على حروف المعجم فى تراجم الرجال كما فعل ابن عساكر .

وذكر فيها الكتب التى نقل عنها وأسماء مؤلفيها . ولما أراد أن يلخص كتابه الكبير عاد إلى بغية الطلب فنقل بعض النصوص وحذف منها أسماء الرواة والمؤلفين واكتفى برواية حادثة واحدة تحمل ما فى المصادر المختلفة من عبارات وإشارات وروايات فى أسلوب موجز ومقتضب . وأرخ ابن العديم فى كتابه زبدة الحلب فى تاريخ حلب لفترة مهمة ، وعاصر الحكم الأيوبى ، وعاصر سقوط خلافة بغداد يعتبر ابن العديم أفضل من كتبوا فى تاريخ الشام ، لا تاريخ حلب فقط ، ويبدأ كتابه العصور الأولى للشام وينتهى عند منتصف القرن السابع للهجرة قبل وفاته بعشرين سنة ، وقد سجل تاريخ الشام العام لعصره وعلاقة بلده به ، وهو أقرب المؤرخين إلى مؤرخى العالم العربى من حيث اعتماده على المسكوكات والسجلات والآثار الباقية والرسائل وقد ركز على حلب وأنطاكية .

والجزء الثانى بالذات من الكتاب الذى حققه ونشره سامى الدهان ، ويشمل الفترة من ٤٥٧هـ إلى ٥٦٩هـ التى شهدت الحروب بين الدويلات الإسلامية وانهيار

(١) أبو شامة : مقدمة كتاب الروضتين ج١ ص ٤ .

(٢) ابن العديم زبدة الحلب فى تاريخ حلب تحقيق سامى الدهان ج ١ ص ١٢ .

الفاطميين ، وسيطرة صلاح الدين على مصر وحروب الفرنج وصراع بيزنطة وتحالفها مع الصليبيين ضد المسلمين ، وتغلب الأساليب السياسية على القتال . وقد قام المحقق سامى الدهان بتبويب الكتاب على هيئة أقسام ، وجعل الأقسام على مقاطع وعناوين صغيرة وكبيرة وهو أهم مرجع لسورية الشمالية بجبالها وقراها ومدنها .

ابن واصل : جمال الدين ابن واصل ولد سنة ٦٠٤ هـ ١٢٠٨م بحماه وكان عالما بالفقه والفلسفة والرياضيات والتاريخ ، ورحل إلى القاهرة سنة ٦٤١هـ . ١٢٤٦[١] . وأرسله الظاهر بيبرس سفيرا إلى منفرد فردريك صاحب صقلية . ولما عاد عيَّنه الظاهر بيبرس قاضى القضاة فى حماه ، وتوفى سنة ٦٩٧هـ ١٢٩٨م وكتابه مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب من أهم الكتب التى تحدثت عن الدولة الأيوبية وأحداثها. إذ أرخ للدولة الأيوبية وصدر دولة المماليك .

ونظرا ؛ لأنه لم يعاصر الجزء الأول من الدولة الأيوبية اعتمد على من سبقه من المؤرخين أمثال ابن شداد والعماد الأصفهانى وعز الدين ابن الأثير وضياء الدين ابن الأثير وأبى شامة . وكان أكثر اعتماده فى هذه الفترة على ابن الأثير فى كتابه الكامل فى التاريخ وكتاب الدولة الأتابكية ، ورجع ابن واصل إلى رسائل ضياء الدين ابن الأثير[٢] . وكان يعلق على الحوادث لمجرد الموعظة وهو لا ينقل من المصادر نقلا حرفيا ، بل يتحرى الحقائق التاريخية يوجز أو يصوِّب بعض الروايات الشفهية التى سمعها من معاصريه ويتقصى عن مصدرها وينقد الآراء ، ويأتى بالرأى الذى يعتقد أنه الصواب وهو يورد وثائق رسمية عديدة ليؤكد حقائقه التاريخية ، ولأهمية ذلك اعتمد عليه كثير من المؤرخين فى الفترة التالية أمثال أبى الفدا والمقريزى وابن تغرى بردى[٣] .

والجزء الثانى من الكتاب أعظم أهمية فى الحوادث التى يرويها عن مشاهده حينا وعن مشاركه أحيانا .

ولقد ذكر رسائل صلاح الدين إلى الخليفة العباسى ومراسلات صلاح الدين مع الروم ، وموقف العادل والبنادقة وحملة حنابرين وعلاقتهم بالسلاجقة .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب تحقيق جمال الدين الشيال المقدمة ص ٧ .
(٢) هى مجموعة من الرسائل موجهه إلى صلاح الدين ومجموعة من الأعيان وكبار الشخصيات - ابن الأثير : رسائل ابن الأثير تحقيق أنيس المقدسى ص ٧ .
(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٩ .

ابن العبرى : هو غريغورس أبو الفرج بن هارون ولد ١٢٢٦ م فى مدينة قيليقية قاعدة أرمينية الصغرى . ودرس اليونانية والعربية والفلسفة ، وذهب إلى أنطاكية سنة١٢٤٣م وأصبح أسقف ملطية واتصل بهولاكو وتوفى ١٢٩٦م . ولقد ألف تاريخ مختصر الدول أولا بالسريانية ، ثم ترجمه إلى العربية فى آواخر أيامه ، ولكنه اختصر فى الفتوح ، وتوسع فيما يختص بدولة الإسلام[١] .

والكتاب يبدأ من أول الخليقة ومقسم عشر دول ، والجزء العاشر تحدث عن الدولة الأيوبية وفتوحات المغول واليونان وعلاقتهم بالسلاجقة[٢] .

أما الرحلات التى قام بها جغرافيون معاصرون لتلك الفترة فقد أفادت فى عرض صورة واضحة عن العلاقات التجارية والتسامح الدينى والآثار . ولقد أبدى جميع الرحالة إعجابهم بثراء كل من مصر والقسطنطينية ووصفوا أوجه الحياة والآثار وصفا دقيقا ومنهم :

الإدريسى : أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الإدريسى ولد بسبتة عام ٤٩٣هـ ١١٠٠م وطاف البلاد وزار مصر والقسطنطينية ، واستقر زمنا طويلا فى بلاط الملك النورماندى روجر الثانى فى بالرمو ، ولذلك لقب بالصقلى وقد أتم فى بالرمو قبل وفاة الملك وضع كتاب فى صفة الكرة الأرضية المشهور باسم الكتاب الروجارى أو نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق[٣] ونشر فيه إحدى وسبعين خريطة ، وقد أورد وصفا تفصيليا لبيزنطة وآثارها والمزارات الإسلامية .

ابن جبير : أندلسى الأصل ، اهتم بالأدب والشعر قام بثلاث رحلات بدأت سنة٥٧٨هـ زار مصر والشام والحجاز والعراق وصقلية . رحلة ابن جبير من المصادر الهامة التى تعطينا صورة واضحة عن الحالة التجارية وطرق معاملة التجار والإجراءات الجمركية فى عهد صلاح الدين . ورغم أنه لم ير القسطنطينية فإنه سمع بأمر هام أورده لم يرد عند غيره من المؤرخين ، وهو ذكر القصة التفصيلية عن الصراع فى بيزنطة وصداقة أندروبيكوس للعرب ومهاجمته القسطنطينية ، والحروب مع السلاجقة[٤] .

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية - الجزء الأول مادة ابن العديم .
(٢) ابن العبرى تاريخ مختصر الدول (المقدمة) ص ٥ .
(٣) دائرة المعارف الإسلامية ج ١ مادة الإدريسى .
(٤) ابن جبير : الستبصار فى عجائب الأمصار ص ٣٢١ .

الهروى : وهو أبو بكر الهروى ، ولد فى الموصل وطاف البلاد ، ولقد درس السيياء وكان مقربـا لدى الملك الظاهر ابن صلاح الـدين ، وأقام عنده ، وكان كثير الرعـاية له وبنى له مدرسة بظاهـر حلب ، ولقد تحدث عن مصر وأسواقها ومناراتها ، وتحدث عن القسطنطينية ، وعن التسامح الدينى الـذى نعم به المسلمون وتجارهم ، ويعتبر من أهم المراجع عن الصـلات بين بيزنطة والأيـوبيين فى تلك الفترة[1] ، وله كتـاب آخر اسمـه العجائب ويـذكره كثيرا فى كتابه « الإشـارات إلى معرفة الـزيارات » ويذكر أنـه سيورد بالتفصيل مـا أروده باختصار فى الإشارات ، ولكـن هذا الكتاب لا يوجـد فى أى مكتبة بل إن كثيرًا من الكتب والمراجع القـديمة لم تذكـــر عنـــه شيئًـا مثل كتاب الوفيـــات لابن خلكان.

ياقـوت الحموى : تـوفى فى الموصل سنة ٦٢٦هـــ وكتـابه معجم البلـدان معجم جغرافى بـأسماء البلاد جمع بين التاريـخ والجغرافية فعنـد ذكر أى أقليـم يذكر جـزء من تاريخه ، ومن اشتهر فيه ، ونسب إليه من الأدباء والشعراء وهو مرتب ترتيبا هجائيا[2].

ابن سعيد المغربى : المؤرخ المشهور ولد فى غرنـاطة سنة ٦٠٠هـ رحل إلى مصر والعراق والشام واهتم بـالأدب والتاريخ وشهرته كمؤرخ أكثر منه جغـرافى ، ففى كتابه بسط الأرض فى الطول والعرض تحدث عن مظـاهر الحياة الاقتصادية والآثـار البيزنطية وكذلك عن أواخر الدولة الأيوبية[3] .

المصادر اللاحقة لفترة البحث :

للمصادر اللاحقـة لهذه الفترة أهمية كبيرة إذ نجد فى بعضها وثائق هامـة لا توجد فى الكتب المعاصرة رغم اعتماد أكثرها على الكتب المعـاصرة لفترة الأيوبيين ، فالمقريزى مثلا فى كتابه السلوك لمعرفة دول الملوك ، أرخ لدولتى الأيوبيين والمماليك وأورد فى الجزء الأول ، رســالــة أرسلهـــا الامبراطـــور البيـــزنطـى إلى مصر لم تـــرد عنـــد أحـــد من

---

(١) الهروى : الإشارات إلى معرفة الزيارات مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ٧٤٧٤ جغرافيا .

(٢) Encyelopedia of Islam . Vol . Part 2 P. 115 .

(٣) ابن سعيد المغربى : كتاب بسط الأرض فى الطول والعرض تحقيق خوان قرنيط جنيس : ص ٧ .

المؤرخين[1] . وكان هذا العصر عصر نهضة علمية وتنافس بين المؤرخين ، فهذا العصر شاهد تفتت المدن الإسلامية وكثرة أصحاب السيادة فيها[2] ، مما أدى إلى كثرة ظهور الموسوعات والتراجم ، ومن مؤرخي تلك الفترة ابن خلدون والمقريزى وأبو الفدا وابن تغرى بردى وابن خلكان وابن شاكر الكتبى .

ابن خلكان : هو قاضى القضاه شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم ، من بيت كبير فى العراق وينتسب إلى البرامكة ولد فى إبريل ، وتولى قضاء الشام ودرس فى عدة مدارس ورحل إلى الإسكندرية ومصر ثم عاد إلى الشام وظل بدمشق لوفاته . واشتهر بموسوعته الكبرى وهى « وفيات الأعيان وأبناء أنباء الزمان » وقد فرغ من تأليفه وأورد بعض معلوماته عن طريق النقل ، والسماع والمشاهدات .

والكتاب ذخيرة علم وأدب وتاريخ واهتم بالضبط والتحقيق والتدقيق ، وقد رتب الكتاب على حروف المعجم ، ويزيد عدد التراجم عن ثمانمائة ، وإن كان يذكر الأسماء التى لم يشتهروا بها لصلاح الدين الأيوبى يذكره تحت حرف الياء[3] . ولم يذكر من الصحابة ولا التابعين إلا جماعة قليلة . وكذلك الخلفاء لم يذكر أحدا منهم اكتفاء بالمصنفات الكبيرة وترجم ما خلا ذلك من العلماء والملوك والأمراء .

ابن خلدون : هو أبوزيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون أصله من أسرة بالأندلس ، ولد فى تونس ٧٣٢هـ ١٣٣٠ وتفقه بالعلوم المعروفة وعصر وتنقل بين بلاد الأندلس والمغرب ، وعاش فى بلاط سلاطينها المسلمين ، وتقلب فى خدمة دواوينهم. وسفر لأحد أولئك السلاطين ، وهو محمد الخامس سلطان غرناطة. ولقد شاهد بنفسه أحوال كثير من الدول عن كثب، ولمس بيدهوامل التدهور الناشبة أظفارها

(١) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ١٢٩ .

(٢) كانت مصر والشام فى حوذة السلاطين المماليك وهم أتراك شراكسة ، وكانت آسيا الصغرى فى حوزة السلاجقة ثم أخذها العثمانيون وكانت العراق وفارس فى سلطة الدولة الألخانية وهى مغولية وانحصرت سيادة العرب فى اليمن والمغرب ، وانتقلت مراكز العلم إلى مدائن مصر والشام . جورجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ص ١١٠ .

(٣) : تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣ ص ١٥٩٤ .

بين المسلمين مما جعل لكتابه « العبر وديوان المبتدأ والخبر» قيمة تاريخية[1] فريدة قدم لمصر ١٣٨٢م وتولى منصب قاضى القضاة المالكية ، واتصل بكثير من المؤرخين فى مصر والشام وظل بمصر حتى وفاته ٨٠٨هـ - ١٤٠٦م ويعتبر كتابه من أهم وأشمل الكتب التاريخية وخاصة لمنهجه الفذ .

المقريزى : أبو العباس تقى الدين بن علاء الدين ولد بالقاهرة ٧٦٦هـ ، ١٣٦٤م وأصل أسرته من بعلبك[2] ، وكان جده من كبار المحدثين فى بعلبك ، درس المقريزى الفقه والتحق بديوان الإنشاء بالقلعة ثم أصبح قاضيا وإماما لجامع الحاكم ومدرسا ، ولقد أراد السلطان فرج بن برقوق أن يوليه نائبا للحكم بدمشق ولكنه رفض واشتغل بالتدريس فى المدرسة الأشرفية ولكن ما لبث أن عاد للقاهرة وانقطع للعلم إلى وفاته ٨٤٥هـ - ١٤٤١م[3] .

وألف العديد من الكتب منها المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ويعرف بخطط المقريزى ذكر فيه مجمل أقاليم مصر ، وكتابه ، المقفى الكبير ، درر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المعنية ، واتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الخلفاء وتاريخ الدولة الفاطمية ، الدرر المضيئة فى تاريخ الدولة الإسلامية ، ومن مقتل عثمان إلى المستعصم ، وغيرها ثم كتابه الهام السلوك فى معرفة دول الملوك وهو تاريخ مصر من ٥٧٧هـ - والكتاب مؤلف على السنين يذكر حوادث السنة ثم يترجم من مات فيها من الأعيان ترجمة مختصرة ، ويطيل فى الأحداث . ولقد استعنت بالمقريزى فى الفترة التى تلت حكم صلاح الدين .

أبو المحاسن : أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغرى بردى يحتل مركز الصدارة بين المؤرخين بعد وفاة المقريزى والعينى أواسط القرن الخامس عشر وتوفى فى القاهرة ٨٧٤هـ -١٤٦٩ أبوه مملوك يونانى للسلطان الظاهر برقوق توفى والده وهو طفل تولى رعاية زوج أُخته كان أبو المحاسن مقربا من السلطان برسباى ثم عند السلطان خشقدم وعاش لأوائل سلطنة قايتباى[4]. ألف اثنى عشر كتابًا لم يبق منها إلا سبعة، أشهرها كتابه فى تاريخ مصر من الفتح الإسلامى والى ٨٥٧هـ -١٤٦٧م اسمه (النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة) فى سبع مجلدات ، وألفه من أجل السلطان

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية .

(٢) Encyclopaedia of Islam Vol 3 Part 1 p. 175 .

(٣) زيادة : المؤرخون فى مصر ص ٨ .

(٤) زيادة : المؤرخون فى مصر ص ٢٨ .

المرجو محمد بن جقمق الذى توفى ١٤٤٣م قبل أن يتحقق رجاؤه ، والكتاب مرتب حسب السنين . وفى آخر كل سنة تراجم من مات فيها وزيادة النيل ونقصانه[١] .

وتمتاز كتابته بالتدقيق والتحرى وكان أمينا فيما يذكره وهو من الكتب الهامة التى استعنت بها ، ومن كتابه الآخر المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ، وهو حافل بالتراجم، حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور ، والبحر الزاخر فى علم الأوائل .

أبو الفداء : السلطان الملك المؤيد صاحب حماه إسماعيل بن على بن محمود بن المنصور كان أميرا لدمشق وخدم الملك الناصر وهو فى الكرك وبالغ فى ذلك فوعده لحماه ، وبالفعل جعله سلطانا لها ، وكان أبو الفداء متمكنا من الفقه والطب والفلسفة وتاريخه (المختصر فى أخبار البشر)[٢] قسمان الأول فى الجاهلية والثانى فى الإسلام إلى ٧٢٩هـ . وتحدث عن تواريخ الأنبياء والفرس والعرب فى الجاهلية والخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين والدولة الأموية فى الأندلس والفاطمين والأيوبوبين .

ولقد اعتمد على كتب عديدة أهمها ابن الأثير . ورتب كتابه على نهجه وفق السنين ، وتضمن أخبارًا أدبية وعلمية واجتماعية ، وله كتاب فى الجغرافيا وهو تقويم البلدان . وقد قام ابن الوردى بكتابة تاريخ هو تذييل لكتاب المختصر لأبى الفداء انتهى به إلى سنة ٧٤٩هـ واسمه تتمة المختصر فى أخبار البشر[٣] .

المصادر الأوروبية :

وليم الصورى : ١١٣٠م - ١١٨٤م :

يحتل كتاب وليم الصورى مكانة فريدة بين الكتب التى أرخت لهذه الفترة حتى اتخذه الكتَّاب الآخرون أساسا لما أورده من الأحداث المتأخرة.

فالمعروف أن وليم الصورى شغل منصب رئيس أساقفة صور من سنة ١١٧٥ إلى سنة ١١٨٤ . وظل مستشارا لمملكة بيت المقدس حتى وفاته ١١٨٤هـ ، كان وليم من سكان مملكة بيت المقدس[٤] ، حيث ولد حوالى ١١٣٠م والراجح أن أبويه نزحا من

(١) دائرة المعراف الإسلامية ج١ مادة أبو المحاسن .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية مادة أبو الفدا .

(٣) دائرة المعارف الإسلامية مادة ابن الوردى .

(٤) Grousset : Histoire des Croissades II P. 1 .

الغرب . وكان يجيد العربية والفرنسية واليونانية والعبرية والفارسية إلى جانب إجادته اللغة اللاتينية ، وتتلمذ على يد بطرس البرشلونى كبير القسس بكنيسة القيامة ورسم قسًا ولما اشتهر به آمورى من الميل إلى الدراسة التاريخيه ، أدرك أن فتح مصر والاستيلاء عليها من يد المسلمين إنما يلى فى الأهمية ما حدث من قبل من فتح بيت المقدس فقرر آمورى أن يلتمس مؤرخا ليسجل ما يحرزه من الانتصارات فعين وليم رئيسا للشمامسة بكنيسة صور تمهيدا لاتخاذه مؤرخا[1] .

وبلغ من ثقة الملك به أن أرسله ملك بيت المقدس ليحصل على توقيع الامبراطور البيزنطى على المعاهدة ، ولكنه عاد بعد ذهاب الحملة ، واستمر وليم على صداقته بالملك حتى إن الملك طلب منه الإشراف على تربية أكبر أبنائه وهو بلدوين ، ولقد اقترح عليه وليم كتابة تاريخ المملكة ، ولقد بدأ فى كتابته ابتدأ من سنة ١٠٩٤ وهو التاريخ الذى شاع أن بطرس الناسك أدى فيه الحج ، ولكن ما شهده الملك آمورى فى مصر من حضارة حثه على أن يطلب منه كتابة تاريخ لأمراء الشرق أمده الملك آمورى بطائفة من التواريخ العربية حصل عليها من مكتبة أسامة بن منقذ التى صادرها وليم بعد أن تحطمت سفينته قرب عكا ، واستعان بكتاب سعيد بن بطريق واتخذ الكتاب اسم « زيل تاريخ الطبرى » .

ولكن لم يلبث أن توفى آمورى ، وتولى العرش تلميذه المريض فعزف وليم عن كتابة التاريخ فترة ، وعين وليم مستشارا للملكة ، ثم عين رئيسا لأساقفة صور سنة ١١٧٥ وزار القسطنطينية ثانية ١١٧٨[2] ، وفشل ١١٨٠م فى الحصول على منصب بطريرك بيت المقدس ، فتفرغ لإعادة قراءة تاريخه، ولكن ما لبث أن توفى ١١٨٥م، ولذلك كان لمؤلفاته أهمية عظيمة بحكم كونه معاصرا ومشتركا فى الأحداث التى كان مؤرخا لها ، ولقد ضاع كتابه تاريخ أمراء والشرق ، ولا توجد منه إلا فقرات فى كتابات وليم الطرابلسى[3] ، والكتاب الوحيد الذى لا زال معروفا هو المشهور باسم «AHistory of Deeds Done beyond the Sea » وقام على ترجمته Babcock , Krey ونشرته جامعة كولمبيا سنة ١٩٤٣م فى جزءين ، والكتاب يبدأ من ضياع بيت المقدس من يد المسيحيين وأراد أن ينتهى به فى ١١٨٢ ولم يبلغ به الانهاية سنة ١١٧٩ أو أوائل ١١٨٠

---

(١) العرينى : مؤرخو الحروب الصليبية ص ١٠٧ .

(٢) العرينى : مؤرخو الحروب الصليبية ص ١٢٥ .

(٢) Runicman : History of the Crusaders II P 425 .

وقسم الكتاب إلى فصول[1] ، واعتمد فى الجزء الأول من كتابه وخاصة فيما يتعلق بالحرب الصليبية الأولى على كتاب أعمال الفرنجة ، ومؤلفات ريموند اجيل ووالتر ، وفولشر قسيس شارتر ، وألبرت[2] .

وكان ما يصل إليه من نتائج ، إنما يستخلصها بعد مقارنة مصادر عديدة ، فإذا حدث بينها تعارض فإما أن يأخذ بحكمه ورأيه ، وإما أن يورد الروايات المختلفة . ويحدث أحيانا أن يرفض من الروايات ما تنطوى على مبالغة ظاهرة ، واعتمد وليم أحيانا على الروايات الشفوية ، وبين ما ورد من روايات عند مؤرخى الحرب الصليبية الأولى ،غير أنه لم يشر إلى اسم واحد منهم ، إنما اعتبرهم جميعا مصدرًا لرواية لابد من تقديرها وفحصها ؛ لأنه يفوقهم فى الإلمام بجغرافية وآثار المنطقة ، وكان يهتم بتتبع موضوع معين منذ بداية إلى نهاية دون أن يحفل بالزمن الطويل الذى يستغرقه الحادث ، وامتدت مصادر بحثه إلى كل الجهات فحرص على أن يختار مصادر بحثه من كل الجهات ، وحرص على أن يختار لكل حقيقة مستقلة ما يتعلق بها من مصادر أصلية ، مثال ذلك أنه لجأ إلى هيجو أمير قيسارية ليمده بالتفاصيل الخاصة بسفارته للخلفاء الفاطميين بمصر ومفاوضاته مع شيركوه عم صلاح الدين . والراجح أنه أمده ببعض المعاهدات التى جرى عقدها مع صلاح الدين . ولما فشلت حملة أملريك على مصر ، طلب من كل البارونات ومن الملك أملريك نفسه أن يشرحوا له أسباب الفشل[3] ، وهذه الأمثلة تدل على ما تهيأ لوليم الصورى من المصادر التى استقى منها معلوماته سواء كانت من ملاحظاته وتجاربه الشخصية ، أو الروايات المستمدة من شهود العيان. فإذا حصل على روايتين ، أوردهما دون تحيز ، وجرى على هذا فى كل كتابه[4] .

ولقد أفاد وليم من المصادر العربية ، ولكنه لم يذكر إلا كتابًا واحدًا هو سعيد بن بطريق ، ولقد استمد بعض معلوماته عن التاريخ الإسلامى من الروايات الشفوية ومن نقوش مدونة على العمائر ، وحين يؤرخ للفترة التى عاصرها فهو يسهب فى التفصيل .

---

(١) أضاف إليه فيما بعد أحداث السنوات إلى ١٨٤٠ م .
العرينى : مؤرخو الحروب الصليبية ص ١٢٨ .

(٢) William of Tyre : History of Deeds done beyond the Sea . XII, P 21 .

(٣) William of Tyre , op . cit . Vol XX P 20 .

(٤) العرينى : مؤرخو الحروب الصليبية ص : ١٣٠ .

ففى أخباره عن آمورى ، أسهب فى وصف أحوال مصر إذ أورد تفاصيل كثيرة عن موضع بابليون وتاريخها ، وعن أصل الخلفاء الفاطميين ، وعن التجارة التى تجتاز برزخ السويس ، وهو يتلمس الدعاوى لما يرويه من حقائق ، وتطلع إلى الربط المنطقى والتماسك التاريخى . وأفضل أجزاء الكتاب هى التى كتبها بعد ١١٨٠ فتمتاز بالنضج والحكم السديد الناجم عن رسوخه فى العلم ، واشتهر وليم الصورى بالنزاهة والإنصاف حتى إن فى تحليله لأسباب تمرد اليونانيين فى القسطنطينية سنة ١١٨٢ ، وانتصار صلاح الدين لم يتطلب من العلماء المحدثين إلا إضافات وتصويبات ضئيلة ، ولم يشتهر وليم الصورى بالتعصب ضد العنصر أو الدين أو نظام الطبقات . فلم يكن اللاتين وحدهم ، هم الذين يستطيعون أن يؤدوا أعمالا مجيدة ، بل يشاركهم فى ذلك اليونانيون والأرمن والسوريون والعرب والترك ، بل إنه أقر للمسلمين أيضا بالمستويات الرفيعة من الأخلاق والمبادىء ولذلك اهتم بالحياة الاجتماعية [١] . ولقد أفاد وليم من معايير ومقاييس الدراسة التاريخية الحديثة ولكن وليم افتقر أحيانا إلى اتساع الإدراك فإنه اكتفى من بعض الأمور بما يتعلق بالوطن الذى يعيش فيه إلى جانب عدم استطاعته التخلص من صفة الكنيسة كذلك عمد فى بعض الأحيان إلى تغيير تاريخ بعض الحوادث[٢] وما تعرض له وليم من المشكلات نشأ حينما أورد فى تاريخه أحداثا متفرقة لا رابطة بينها ، وقد اعتبر وليم الصورى المصدر الوحيد عن السنوات الواقعة بين سنتى ١١٤٤ ، ١١٨٤ واعتبر المصدر الأصلى لكل ما وقع فى زمنه من أحداث. كما أن روبرت كلارى الذى ظهر فى سنة ١٩٣٨ كتابه الشامل عن الحروب الصليبية ، لم يقبل صراحةً فحسب ما وضعه وليم الصورى من خطة لكتابه ، بل قبل أيضا معظم عباراته ، كل ذلك يعتبر دليلا على أن وليم أقام مقياسا لكتابه تاريخ الحروب الصليبية وبذلك كان لكتابه أهمية كبيرة لبحثى إذ عاصر جزءا كبيرا من عهد صلاح الدين وكان مندوبا لملك بيت المقدس فى بيزنطة لعقد الاتفاقات الحربية ضد مصر .

---

(١) العرينى : مؤرخو الحروب الصليبية ص ١٣٧ .

(٢) روبرت كلارى : فتح القسطنطينية ترجمة حسن حبشى ص ٢٣ .

(٣) Willam of Tyer: op . cit . Vol XII P 20 , 21 .

وروبرت كلارى :

أحد الفرسان الذين اشتركوا فى الحملة التى سقطت فيها بيزنطة فى أيدى اللاتين يعتبر مؤلَّفه أحد ثلاث أسفار تناولت الغزو العربى للامبراطورية البيزنطية وهى مذكرات فلها ردوان ، تاريخ القسطنطينية لجونتر ، مذكرات روبرت كلارى[1] .

وروبرت كلارى كان من الطبقة الشعبية ، وذلك يبرر الندرة فى المعلومات الخاصة به ، وكان محاربا تحت لواء بطرس داميان ، وشارك فى القتال الذى جرى عند أسوار القسطنطينية ١٢٠٣م وكان أبوه فصلا إقطاعيا لبطرس الدميانى ، ولم تكن فصيلته بالتى ترقى به إلى المكانة الكبرى .

والكتاب مكتوب أصلا بفرنسية العصور الوسطى ، ولا توجد نسخة أصليه من هذه المذكرات التى أملاها روبرت كلارى وفى ١٣٠٠ عهد دير كوربى لأحد النساخ بنسخ بعض المخطوطات القديمة المحفوظة به ، فجمع الناسخ خمسة كتب فى مجلد . كان المخطوط منها فى ١٨٧٣م قام كارل هويف بنشر المذكرات ، ثم قام كونت ريان بنشرها سنة ١٨٦٨م ، وفى ١٩٢٤م قام فيليب لاور بنشرها ثم ترجمها بالإنجليزية إدجار هولمز ١٩٣٦م وترجمه إلى العربية حسن حبشى ١٩٦٤ ، وهى النسخة التى استعنت بها . ويمتاز أسلوبه بكثرة التكرار لعبارات معينة بسبب قلة محصوله فى اللغة وأهمية مذكراته أنه عاصر وكان شاهد عيان لحوادث الحملة منذ البداية حتى تخريب مدينة أدريانوبوليس ١٢٠٥م على يد جماعات الكومان ؛ وهى الواقعة التى سقط فيها الامبراطور بلدوين أسيرا[2] . وهذه الفترة تشغل أغلب صفحات الكتاب فيما عدا صفحات قلائل تكلم فيها عن المدة ١٢٠٥ ، ١٢١٦ ، وأغلب الظن أنه لم يكن فى القسطنطينية فى الفترة الأخيرة ، وأن ما دوَّنه بناء على ما سمعه ممن عادوا من الشرق . ولقد استعنت بالكتاب فى الفقرات الخاصة باستيلاء الفرنجة على القسطنطينية والتدمير الذى حل بالمدينة على يد اللاتين .

---

(١) روبر كلارى : فتح القسطنطينية ترجمة حسن حبشى ص ٢٣ .
(٢) روبرت كلارى : فتح القسطنطينية ص ٢٧ .

جوانفيل : ١٢٢٤ - ١٣١٧

من المؤرخين ذوى المكانة اللاحقين لوليم الصورى جان دى جوانفيل وكان والده سيد جـوانفيل صنجيل شمبانيـا وأسهم فى الحملات الصليبيـة الموجهة إلى الشرق. ثم وصار جان صنجيلا بعد وفاة والده . وفى تلك الأثناء تزوج لويس التاسع من مرجريت أميرة بورفـانس ، ووقع فـريسة مـرض خطير ١٢٤٤ . وفى لحظة من اللحظـات الحرجة اتخذ لويس الصليب[1] ، واحتذاه إخوته ، ورجال بـلاطه وكبار السادة ، ومن الطبيعى أن يسهم جوانفيل فى الحروب الصليبية فـاتخذ الصليب واتجه لمرسيليا ، وفى أثناء الحمله التى استمرت ١٢٤٨ حتـى ١٢٥٤ ، دخل جوانفيل فى خـدمة الملك لويـس التاسع ، ولما عـاد الملك لـويـس من الحملـة ، جعل لجوانفيل الـذى صـار مـن أتبـاعـه بعض الالتزامات .

وحين عـاد جوانفيل إلى فـرنسا وكـان قد بلغ وقت ذاك الثـلاثين من عمره وكـان فارسـا لامعا وبعد وفـاة لويس اعتزل الحيـاة ثم اتخذه فيليب الجميل معرفا لـه وفى سنة ١٢٧٠ تم تطويب الملك لويس التاسع وجعله قديسا وفى سنة ١٣١٠[2] ، وحينما فرغ جوانفيل من كتـابة تاريخه تقدم بـه إلى لويس ملك نافـار وشا مبانيا ، ومـات جوانفيل ١٣١٩م[3] . قام جوانفيل بتأليف كتاب « الأقوال المقـدسة والأفعال المجيدة المنسوبة للقـديس لويس » بنـاء على رجـاء ملكة نـافار وشرح جـوانفيل فى تأليف مصنفـهِ عن تجاربه الشخصية فيها وراء البحار ، ولعله كان يـرمى إلى أن يجعل كتابه على نحو تاريخ فيلها دورين أو روبـرت كلارى[4] . ثم حـوله لمجـرى الترجمه الذاتية وفـرغ من كتـابته ١٣٠٩ وحمله على تأليف الكتاب إعجابه وصداقته للويس التاسع .

والكتاب يتكـون من حوالى ٢٤٨ فصـلاً وقسم جوانفيـل الكتاب قسمين ، قسماً خاصًـا بالتعاليم الصـالحة للقديس لويس شخصيته وسلـوكه وعدلـه ، والقسم الثانى خاص بأعماله الحربية فى مصر والشام ولقد ردد جوانفيل فى القسم الثانى من الكتاب ،

---

(١) Joinville : History of Saint Louis . Trans . Evans P. XIV .

(٢) العرينى : مؤرخو الحروب الصليبية ص ١٥٥ .

(٣) Joinville : op . cit . Trans. Evans pxx

(٤) Joinville : op . cit . Trans Evans pxvi .

بعض الروايات التى نصادفها فى الجزء الأول . ويبدو ذلك بإكثاره من التكرار حتى يتأكد من أنه لم يفتقد شيئا فى القسم التثقيفى .

وامتاز جوانفيل بموهبته فى الوصف ، وخاصة فى الجزء المتعلق بالحروب الصليبية، الذى نستخلص منه أن الكتاب ليس إلا مجموعة من الأجزاء ، جرى تأليفها فى أوقات مختلفة ، وهو لا يهتم بالتفاصيل كثيرا[1] ، على أن جوانفيل التزم دائما فى تاريخه لحياة القديس لويس بأن يجعل حكمه خالصا نقيا ، فلا يتأثر بما يكنه لسيده من حب وتبجيل ولم يكن جوانفيل مؤرخا[2] ، ولم يحاول أن يكون مؤرخا إلا فى الفصول ١٧ , ١٨ , ١٩ , ٢٠ وهى فصول جافة سقيمة .

ولقد تأثرت كتابته بفكرته عن الإقطاع فالمثل الأعلى للجيش هو الذى يستطيع فيه كل فارس أن يدلى بما لديه من رأى ، ولقد أتم جوانفيل كتابه بعد أن بلغ من العمر ٨٥ سنة[3] ، ولم يصلنا من كتاب جوانفيل ،إلا مخطوطات متأخرة . تعرض فيها النص للتلف الشديد ، غير أنه بفضل الدراسة المحققة وبمقارنة الوثائق الأصلية الصادرة عن مخطوطات جوانفيل ، يسر إعادة الأصل إلى صحته وتقويمه ، وجرت ترجمة جوانفيل إلى الإنجليزية ثلاث مرات ، الأولى فى مستهل القرن السابق ترجمها حناهافود ثم قام بترجمة كل من جيمس هتو ، موائيل ودجرد وعمدا المترجمان إلى اختصار الكتاب أما الترجمة الرابعة فهى التى قامت عليها عنه ايفانز ونشرتها ١٩٣٨ ، ولقد أستقلت من جوانفيل فيما يتعلق السفارات التى جرت بين حكام اللاتين فى القسطنطينية ولويس التاسع لاستغلال الحملة السابعة لصالحهم .

---

(١) العرينى : مؤرخو الحروب الصليبية ص ١٦٦ .

(٢) Joinville : of cit Trans Evans pxx .

(٣) Joinville of cit . Trans Evans p xxII .

الفصل الثانى

العلاقات بين بيزنطة والشرق الإسلامى

حتى ظهور صلاح الدين

بيزنطة والشرق الإسلامى إلى ظهور السلاجقة - موقعة مـا نزكرت وأثـرها - استنجـاد الكسيـوس بالبـابـويـة - ضعف السلاجقـة وانقسام العـالم الإسلامى - موقـف بيزنطة من الحركـة الصليبية - مشكلة أنطاكية - سيـاسة اللاتين تجاه بيزنطة - الدولـة العباسية والبيزنطيون - السلاجقة والبيزنطيـون فى آسيا الصغرى - العلاقة بين البيـزنطيين والـزنكيين - مـوقف البيـــزنطيين من السـلاجقـة والحملـة الصليبيـة الثـانيـة - النـزاع حـول أنطـاكيـة - مـوقف المسلمين.

بيزنطة والشرق الإسلامى إلى ظهور السلاجقة :

أنشأ الامبراطـور قسطنطين الكبير فى النصف الأول من القــرن الـرابع الميـلادى مدينة القسطنطينية ، على مـوضع بيزنطة القديم على البوسفور ، واتخذهـا عاصمة له[1] لما لها من مـزايـا ، منهـا ، أنها تقع بين الأمـلاك الـرومـانية فى آسيـا وأوربـا ، ولمركـزهـا الاقتصادى بين البحـر الأسود والبحر المتوسط ، ومنـاعة موقعهـا ، فلما سقطت روما فى أيدى المتبربـرين سنة ٤٧٦م ، وقام على أنقاض الشطـر الغربى للامبراطوريـة ، ممالك جـرمانيـة ، وأضحى امبراطور الشطـر الشرقى امبراطورا للـدولة الـرومانيـة ، وظل من الناحية القـانونية امبراطورا للـرومان حتى سقوط القسطنطينيـة فى أيدى العثمانيين سنة ١٤٥٣م رغم أن القسم الشرقى عرف باسم الدولة البيزنطية[2] .

وما حـدث فى القرن السابع الميـلادى من ظهورى الإسلام وقيـام الدولة العـربية الإسـلامية ، أدى إلى انثيـال الجيوش الإسـلاميـة فى الأقاليم المتـاخمة لبلاد العـرب[3]. فسقطت فى أيديهم الـدولة الفارسية ، وانتزع المسلمـون من بيزنطة أقـاليمها المطلة على البحـر المتوسط من الشرق والجنـوب فخضعت لهم بلاد الشـام ، والجزيرة ، وأرمينيـة ، ومصر ، وبـرقة ، وشمال أفـريقية ، وبـلاد المغرب ، فضـلا عن استيلائهم على جـزائر قبرص ورودس ، وكوس ، وبقيام الدولة الأموية ، أكمل معاوية السيطرة الإسلامية على هذه السلسلة من الجزائر بالاستيلاء على خيوس وفى سنة ٦٧٠م استولى أحد قادته على شبه جزيرة Cyzicus التى لا تبعـد إلا قليلا عن القسطنطينية فـأصبحت بذلك قـاعدة بالغة الأهميـة فى مهاجمة القسطنطينية[4] ، وفى تلك الأثنـاء ، وقبل أن تصـوب الضربـة القاضية إلى قلب الامبراطـورية ، استولى جانب من الأسطـول الإسلامى على أزمير سنة ٦٧٢ ، بينما احتل الجانب الآخر ليكيـا وقيليقية[5] ، وتعرضت كـريت للهجوم فى نفس السنـة التى فيهـا فرض الحصـار على القسطنطينيـة ، والـذى استمـر سبــع سنـوات (٦٧٣-٦٧٩م) فتعرضـت القسطنطينيـــة كل صيـف لحصـار من قبـــل الأسـطول الإسـلامى ، ولم ينقـذهـا إلا استخــدام النـيران الإغريقيـة فتعـرضت سـفن المسلمين

(١) رنسيمان (س) : الحضارة البيزنطية (ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد) ص ٥ .

(٢) العرينى (السيد الباز) : الدولة البيزنطية ص ١٧ .

(٣) بينز (نورمان) : الامبراطورية البيزنطية (ترجمة حسين مؤنس ، محمود يوسف زايد) ص ٣٥٥ .

(٤) العرينى : الدولة البيزنطية ص ١٣٢ .

(٥) Ostrogorsky : G. : Hist of the Byzantine state(Trans by Joan Hussey) . P. 111.

للحرائق ووقع اضطراب فيها ثم تعرضت لعواصف شـديدة أثناء سيرها نحو الجنوب ، ولم يصل من هـذا الأسطـول الضخم إلى قـواعـده بـالشـام إلا سفن قليلـة ، فجـرت مفاوضـات بين الامبراطور البيـزنطى ومعاويـة انتهت بأن دفع معـاوية جـزية سنـوية للدولة البيزنطية[١] .

ولقد حـالت بيزنطة دون حصـول الأساطيل الأمويـة على ما يلزمهـا من أخشاب وحديد[٢] ، تـرتب على صمـود القسطنطينيـة إزاء الهجـوم الإسـلامى أن تـوقف زحف المسلمين إلى أوربـا من جهـة الشرق . وعلى الـرغم مـن حـرص المسلمين زمن الـدولـة الأموية على استكمال فتوحاتهم ، بما وجهوه من حملات للاستيلاء على القسطنطينية بعد ذلك ، كـان آخرها زمن سليمان بـن عبد الملك ٧١٧/ ٧١٨م ، واشتركت فيهـا القوات البرية والبحـرية ، واستمر حصار القسطنطينيـة زمنا طويلا ، غير أنـه لم يتحقق غرض الخليفة الأموى[٣] .

أفادت بيزنطة من الفتن الداخلية التى وقعت فى أواخر عهد الدولة الأموية وأدت إلى سقوطهـا سنة ٧٥٠م[٤] ، وتـرتب على هـذا الانقلاب أن انتقلـت حاضرة الـدولـة الإسـلاميـة من دمشق إلى بغـداد ، وبـذلك خفت حـدة حملات المسلمين وضغطهم ، وظلت بيزنطة لمدة نصف قرن آخر تقريبا بعـد عام ٧٥٢م أكبر قوة بحرية فعالة فى مياه البحرين المتوسط والأسود فاحتفظت بسيادتها البحرية التى كسبتها عام ٧٤٧م[٥] ، ولم يعـد هناك منـافسون لـلأسطول الامبراطـورى بالمعنى الصحيح فى القسطنطينيـة ، ولا لأساطيل النفوذ البحرية فى بحر إيجة ، وسيطـرت بيزنطة إلى حد كبير على جزائر صقلية وكـريت وسردينية وجـزر البليار ، وتحكمت فى المضـايق ذات القيمة البحـرية الهامـة ، الواقعة على طول طرق التجارة بين الشرق والغرب[٦] .

---

(١) العرينى : الدولة البيزنطية ص ١٣٣ .

(٢) أرشيبالـد (لويس) : القـوى البحريـة والتجاريـة فى حوض البحـر المتوسط (تـرجمة أحمد محمد عيسى) ص ١١١ .

(٣) Runciman (S.) : A Hist. of the Crusader. I. P . 25 .

(٤) العرينى : الدولة البيزنطية ص ١٨٥ .

(٥) Runciman : of . cit . I. p . 26 .

(٦) أرشيبالد : القوى البحرية ص ١٥٨ .

ولكن الموقف بدأ يتغير ابتداء من عام ٨٠٠م ، إذ أخذت بيزنطة تهمل شأن قوتها البحرية ، ويبدو أن هذا الإهمال يرجع إلى أوائل عهد إيرين ، وبداية عهد الرشيد ، الذى قام بعدة حملات فى آسيا الصغرى ، وكان يهدف من ورائها إلى فتح القسطنطينية على أن غارات المسلمين البحرية توقفت مثلما توقفت الغارات البرية على الحدود الشرقية بين المسلمين والبيزنطيين إبان انشغال هارون الرشيد فى أواخر أيامه بالفتن والقلاقل ، وطوال فترة الخلاف بين ولديه الأمين والمأمون(١) .

على أن العلاقات العدائية لم تتوقف نهائيا ، وفى سنة ٨٢٧م استولى أهل قرطبة الذين طردهم الخليفةالحكم الأموى على كريت ، ثم فتح المسلمون صقلية(٢) .

ومنذ قيام الأسرة المقدونية بالحكم سنة ٨٦٧م تحول ميزان القوة إلى جانب البيزنطيين ، الذين أخذوا يتوسعون على حساب الدولة الإسلامية ، وشجعهم على ذلك، إلى جانب قوة أباطرتهم ، ما انتاب الخلافة العباسية وقتذاك من الضعف(٣) .

وجرت بين مصر وبيزنطة فى فترة حكم الطولونيين اتصالات ، فقام أحمد ابن طولون بالدفاع عن الثغور الشامية ، فآثر باسيل الأول مهادنة ابن طولون ، وأرسل إليه سنة ٢٦٥هـ / ٨٨٧م عبد الله بن كاوس الذى كان قد وقع فى الأسر ومعه بضعة أسرى من المسلمين وعدة مصاحف هدية منه(٤) .

وترتب على الحروب التى نشبت بين المسلمين والبيزنطيين ، أن امتد سلطان بيزنطة إلى منبج ، وأنطاكية ، وعقدت معاهدة بين الحمدانيين والبيزنطيين فى حلب ، فى صفر سنة ٣٥٩ هـ / يناير ٩٧٠م(٥) ، وكان من شروطها دفع جزية سنوية للروم ، ومناصرتهم فى قتالهم ضد الفئات التى ليست إسلامية ، ولا يؤخذ من نصرانى جزية ،

---

(١) العدوى (إبراهيم أحمد) : الامبراطورية البيزنطية ص ٨٧ .

(٢) الطبرى : تاريخ الأمراء والملوك ج ١٠ ص ٢٧٥ ، ٢٧٦ .

(٣) ازداد نفوذ الترك فى دار الخلافة العباسية ببغداد ، واستقل أحمد بن طولون بمصر سنة ٨٦٨م ، ونشبت الحرب الداخلية فى شمال أفريقية ، فاشتد الصراع بين المسلمين والمسيحيين فى الأندلس. العرينى : الدولة البيزنطية ص ٢٣٢ .

(٤) ابن الاثير (عز الدين) الكامل فى التاريخ ج ٧ ص ١١٠

(٥) ابن العديم (كمال الدين أبى القاسم عمر) : زبدة الحلب من تاريخ حلب (نشر سامى الدهان) جـ ١ ص ١٦٣ إلى ١٦٨ ، الأنطاكى (يحيى بن سعيد) التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق جـ١ ص ١٣٦ .

إلا إذا كان له بحلب مسكن وضيعة ، وأن يكون حكم حلب لقرعويه ومن بعده لبكجور ، وبعدهما ينصب ملك الروم أميراً[1] ، وقد اتخذت هذه الحروب صفة صليبية ، قبل أن تنشب الحروب الصليبية بزمن طويل ، ومن الدليل على ذلك ما ورد فى رسالة يوحنا زمسكيس إلى ملك أرمينيا سنة ٩٧٤ م من أنه أراد أن ينتزع الأماكن المقدسة من المسلمين[2] ، وامتد نفوذ البيزنطيين زمن يوحنا زمسكيس إلى حمص وبعلبك فأذعنت له دمشق واستولى على بيروت وصيدا[3] . على أن العلاقات بين المسلمين والبيزنطيين لم تكن قاصرة على الحرب بل تجاوزتها إلى نواحٍ سياسية ودبلوماسية واقتصادية واجتماعية ، واتسمت العلاقات بين بيزنطة والمسلمين فى الشرق بالاحترام والإعجاب إذ كان للمسلمين فى الشرق مكانة خاصة عند البيزنطيين ، لما اشتهروا به من المدنية ، ولما أقاموه من حكومة حازمة . وكان المسلمون عند بيزنطة فى مرتبة تعلو مرتبة الملوك المسيحيين فى الغرب[4] ، وكانت هناك مراسم خاصة لاستقبال السفارات العربية التى كانت تفد إلى القسطنطينية ، ولقد حفظت لنا الكتب التى صنفت تحت إشراف قسطنطين بور فيروب ورتيجنتيرس فى القرن العاشر الميلادى موضوع مراسم البلاط البيزنطى Deceremonisووصف الاستقبال الودى البالغ الذى كان البيزنطيون يستقبلون به سفراء بغداد والقاهرة ، وكان السفراء العرب يجلسون على مائدة الامبراطور على مقاعد أعلى من تلك المخصصة لسفراء الفرنجة[5] ، بل إن بطريرك القسطنطينية نقولاس مستيكوس Nicholas Mysticus أشار فى رسالته إلى أمير أقريطش (كريت) العربى « إن دولتى العرب والروم ظاهرتان على العالم كله ، وهما تمتازان ومتألقتان كالشمس والقمر فى القبة الزرقاء ولهذا وحده لا مندوحة لنا عن أن نعيش معا كإخوة بالرغم من اختلافنا فى الطبائع والعادات والدين[6] يضاف إلى ذلك أن الأسرى من كلا الجانبين كانوا يلقون أفضل رعاية ، ويشير المقدسى إلى أن مسلمة بن عبد الملك لما غزا أرض الدولة البيزنطية اشترط فى المفاوضات على الامبراطور ، أن يبنى بالقرب من قصره دارًا ينزل فيها كبار أسرى المسلمين حتى يكونوا تحت رعايته وإشرافه[7] .

(١) ابن العديم : زبدة الحلب جـ١ ص ١٦٣ - ١٦٨ ، الأنطاكى : التاريخ المجموع ص ١٣٦ .
(٢) حبشى (حسن) : الحرب الصليبية الأولى ص٧
(٣) العرينى : الدولة البيزنطية ص ٤٧٢ .
(٤) بينز : الامبراطورية البيزنطية ص ٣٦٤ : ٣٦٥ .
(٥) بينز : الامبراطورية البيزنطية ص ٣٦٤ .
(٦) Vasiliv (A .A) : Hist . de L'Empire Byzantine tom I . P . 405 .
(٧) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

ومن الناحيـة الاقتصادية قـدم كثير من التجار البيزنطيين إلى المدن العـربية ، كما وفد التجار العرب على بيزنطة لإنجاز أعمالهم ، وبلغت التجارة البيزنطية العربية ذروتها إبان القرنين التاسع والعاشر(١) ، إذ أقبل العـرب على شراء ديباج بيزنطـة الموشى ، كما سيطـر العرب على تجارة المحيط الهنـدى بأجمعهـا ، وازدادت أهمية طـرابيزون فى القـرن العاشر وأصبحت من أهم مراكز الاتصال التجارى العالمى ، وقال عنها المسعودى «لها أسواق يأتى إليها كثير من الأمم للتجارة من المسلمين والروم والأرمن وغيرهـم »(٢) .

وفى العصر العباسى الأول ضمت أكبر جالية إسلامية نزلت بالبلاد البيزنطية(٣) ، وبعد استرداد أنطاكية سنة ١٠٨٥ وجه قدر معين من التجارة الشرقية عن طريق حلب إلى أنطاكية وإلى ملوكهـا على البحر ، وكان التجار من كلا الجانبين يتمتعون بـالرعاية ، وكـانت لهم أحيـاؤهم وفنـادقهم ، اشتمـل كتـاب والى المدينـة القـوانين التى تخضع لهاالتجارة السورية والتجـار السوريون فى بيزنطة فكان عليهم إيـداع بضائعهم فى أحد الخانـات ، وأن يجتمعـوا جميعـا فى قطاع واحـد بـالخان للبيع والشراء ، وألا ينصرفـوا فى أنحاء المدينـة ليبيعوا سلعهم ، وكـان عليهم أيضا ألا يقيمـوا أكثر من ثـلاث أشهر فى المدينة.(٤) أما العلاقات الثقافيـة فظهرت فى اهتمام العرب بالثقافة اليونانيـة منذ الدولة الأموية ، فظلت اللغة اليونانية مستخدمة فى الدواوين ، كما وجد موظفون مسيحيون فى بلاط معاوية إذ نعم غير المسلمين بالتسامح الـدينى ، ومما يدل على استمرار الأساليب اليونـانية بناء الجامع الأموى وفق الأسـاليب البيزنطية ، كما جـرت دفة الحكم فى دمشق ومصر فى الخمسين سنـة الأولى من العصر الإسلامى وفق الأسـاليب البيـزنطية ، ولقـد بدأت حركة الترجمة اليونااينة إلى العربية فى العصر الأموى وازدهرت فى العصر العباسى فقد اتصل العرب بمراكز الثقافة اليونانية فى حران والسكندرى وجند سابور(٥)، فترجم خالد بن يزيد بن معـاوية بعض كتب أصطفن القفطى السكندرى ، وكانت الترجمة فى الـدولـة الأمـويـة مقصـورة على العلـوم العمليـة كـالكيميـاء والطب ، والنجـوم ، ولم

---

(١) أرشيبالد : القوى البحرية ص ١٢١ .

(٢) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ج ٢ ص ٣ .

(٣) رنسمان : الحضارة البيزنطية ص ١٩٩ .

(٤) العرينى : كتاب عن الحسبة فى بيزنطة للقرن العاشر الميلادى ص ١٠١ .

(٥) ابن النديم : الفهرست ص ٣٢٠ .

يتعد ذلك إلى العلوم العقلية كالمنطق والفلسفة والهندسة ، وما إلى ذلك ، فهذه لم تكن إلا فى الدولة العباسية ، إذ كان اتصال المسلمين بالفلسفة اليونانية أول الأمر عن طريق الفرس ، فقد ترجم ابن المقفع كتبا من منطق اليونان ، ويبدو أنه نقلها عن الفارسية[1] كما تولى بعض النصارى من النساطرة واليعاقبة الترجمة من السريانية إلى العربية ، وترجمت فى العصر العباسى تآليف أرسطو وبعض مؤلفات أفلاطون وكتب جالينوس وأهم ما وصل إليه العقل اليونانى فى العلم والفلسفة[2] ، وكان للثقافة اليونانية أثر كبير فى المسلمين ، وخاصة أن اتصال المسلمين بها صاحب عصر تدوين العلوم العربية فتسربت الثقافة اليونانية إليها ، وصبغتها بصبغة خاصة ، وكان للفلسفة اليونانية أثر كبير فى تعاليم المتكلمين ، وهناك نوع آخر من الثقافة اليونانية الرومانية وهى الثقافة الاجتماعية التى نشأت عن امتزاج ، الجنس العربى بالجنس اليونانى فشاهد العرب عادات البيزنطيين ، ونظم حكمهم وفنونهم من غناء وتصوير وما إلى ذلك ، فنقل العرب عن اختلاطهم بالبيزنطيين ما لم يتيسر لهم نقله عن طريق البحث العلمى ، وكانت بلاد الشام أهم منبع لهذه الثقافة الاجتماعية[3] ، كما كان للحروب المستمرة بين المسلمين والروم ووقوع الأسرى من كلا الجانبين فى يد الآخر أثر كبير فى هذه الثقافة ، ومن هؤلاء الأسرى هارون بن يحيى الذى أسر زمن باسيل الأول وقام بوصف القسطنطينية وعظمتها وطبوغرافيتها ، وكان من المسلمين من يتكلمون اليونانية ومن الرومانيين من يتكلمون العربية مما ساعد على تبادل الآراء والأفكار فى اللغة والأدب ، ويروى أن الامبراطور الرومانى أرسل إلى الرشيد يطلب أبا العتاهية ولكنه رفض الذهاب إلا أن تأثير الأدب كان ضعيفا إذا قيس بتأثير العلم والفلسفة ، ولقد نقل ابن النديم أسماء كتب الروم ، وترجمت حكم لفيثاغورث وتسربت ألفاظ يونانية إلى العربية كأسماء الثياب وغيرها[4] ، ويبدو أثر الحروب العربية البيزنطية فى الأدب فى خلق نماذج لأبطال يتصفون بالبسالة والإقدام والكرم ، وأصبح بعض هؤلاء

(١) أحمد أمين : ضحى الإسلام ج ١ ص ٢٦٢ .
(٢) أحمد أمين : ضحى الإسلام ج ١ ص ٢٦٣ .
(٣) المغربى ابن صاعد : طبقات الأمم ص ٢٧ .
(٤) أبو الفرج الأصفهانى : الأغانى ج ٣ ص ١٧٩ .

شخصيات أسطورية لها قوة خارقة ، ومن ذلك محارب عربى اسمه عبد الله البطال ، ربما يكون استشهد فى معركة اقرينون فى آسيا الصغرى سنة ٧٤٠م ، كما نجد شعراء الحمد انيين أعمال المسلمين فى الحروب مع بيزنطة كشعر أبى فراس الحمدانى ، وكذلك كان الأمر فى الجانب البيزنطى مثل ملحمة البطولة البيزنطية المشهورة التى نشأت حول شخصية ديجنيس اكرتياس وتدور حول شخص قتل فى الحرب ضد العرب فى آسيا الصغرى سنة ٧٨٨م ويقال : إن هناك ارتباطا بين ألف ليلة وليلة ، وبين شعر البطولة اليونانى وملحمة السيد البطال التركية التى لم تدخل فى دائرة الشعر التركى إلا بعد نقلها إلى اللغةالتركية وأصلها عربى [١].

موقعة ما نزكرت وأثرها :

يعتبر ظهور السلاجقة فاتحة عصر جديد لا فى التاريخ الإسلامى فحسب ، بل فى تاريخ العلاقات بين المسلمين والمسيحيين بوجه عام ، والسلاجقة فرع من الأتراك الغز نزحوا مع زعيمهم « سلجوق » إلى بلاد ما وراء النهر حيث استقروا قرب بحرى ، وهناك اعتنق سلجوق الإسلام ، وتبعه قومه ، وسرعان مانمت قوة السلاجقة إذ بدأوا منذ سنة ١٠٢٨ م يغيرون على حدود إيران الشمالية والشرقية واستولوا على خراسان ، ثم غزوا إيران ، وتطرقوا إلى إقليم الجريره و إذ ضعفت الخلافة العباسية ، لم يسع الخليفة العباسى « القائم بأمر الله » إلا أن يعترف بزعيم السلاجقة « طغرل » الذى دخل بغداد سنة ١٠٥٥ م ، فى موكب رسمى ، ومنذ ذلك الوقت حل السلاجقة محل البويهيين فى السيطرة على الخلافة .

وعندما توفى طغرل ١٠٦٣م خلفه ابن أخيه « ألب أرسلان » الذى حكم فترة قصيرة مليئة بالأحداث ، إذ إن السلاجقة كانوا سنيين متحمسين ، فتعصبوا لنصرة الخليفة العباسى السنى ، ولذا أرسلوا حملة إلى الشام لمحاربة الفاطميين ، استطاعت استرداد حلب ومكة ، والمدينة ، كما أخضعت الثورات التى قامت فى فارس[٢] .

وترجع شهرة ألب أرسلان إلى موقفه من الدولة البيزنطية ، إذ إنه لم يلبث أن أغار على أطراف الدولة البيزنطية فى كبادوقيا واستولى على قيصرية ، فهب الامبراطور رومانوس الرابع ديوجنيس (١٠٦٧-١٠٧١م) للدفاع عن بلاده ، ولم تلبث أن دارت

(١) بينز : الامبراطورية البيزنطية ص ٣٨٣ .
(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٥ .

Runiciman : op cit vol I . P. 64 .

بين الفريقين معركة حاسمة عند مانزكرت(1) ، حيث أحرز ألب أرسلان انتصارا حاسما ووقع الامبراطور البيزنطى فى الأسر ، ولم يطلق سراحه إلا بعد دفع فدية كبيرة ، والتعهد بألا يقاتل المسلمين ، وأن يطلق سراح الأسرى المسلمين ، فضلا عن عقد هدنة لمدة خمسين سنة (2)غير أنه لما عاد الامبراطور إلى القسطنطينية تقرر خلعه عن العرش ، وخلفه فى الحكم الامبراطور ميخائيل السابع(3) ، (١٠٧١-١٠٧٩م) ، وتعتبرمانزكرت من أفجع الهزائم فى تاريخ بيزنطة ، فقد بدت بيزنطة كأنها خسرت فى ميدان القتال كل دليل على أنها حامية المسيحية(4) ، ويشير وليم الصورى إلى أن هذه الهزيمة خدمت الحركة الصليبية ، وأثبتت أن بيزنطة لا تستطيع حماية الشرق ، ومن نتائجها أيضا القضاء على التحالف البيزنطى الفاطمى ، على أنه برغم انتصار السلاجقة فى مانزكرت، لم يستغل ألب أرسلان هذه الفرصة للتوسع فقد ظلت بيزنطة تحتفظ بأقاليم الأطراف(5) .

وتلى معركة ما نزكرت زوال بقايا الإدارة البيزنطية فى أرمينيا وقبا دوقيا بعد أن هجرها أهلها ، ويضاف إلى ذلك أن السلاجقة كانوا يتدخلون لنصرة الأباطرة البيزنطيين ، والطامعين فى العرش البيزنطى وأخذوا يوطدون سلطانهم بآسيا الصغرى واستطاع سليمان بن قتلمش أن يحقق للسلاجقة السيادة بهذه الجهات .

وما حدث من التنازع على عرش بيزنطة ، والتجاء الطامعين إلى السلاجقة لمساندتهم ، وإلى مساعدة العناصر النورمانية المأجورة فضلا عن دخول الترك جنودا مرتزقة فى القوات البيزنطية ، كل ذلك هيأ للسلاجقة الطريق لتوطيد سلطانهم بآسيا الصغرى . وباستيلاء السلاجقة على حلب ودمشق وبيت المقدس منذ سنة ١٠٧٠ ، ثم انتزاع أنطاكية من أيدى البيزنطيين سنة ١٠٨٥(6) ، وما أصاب بيزنطة من الانهيار ، كل ذلك حمل البيزنطيين على الشعور والإحساس بأن السلاجقة أشد خطرا على دولتهم من العرب أثناء هجومهم على بيزنطة فى صدر الإسلام ورأوا أنه ليس بوسعهم وقف تقدمهم ، فلم يسعهم إلا التماس العون والمساعدة من غرب أوربا ، ولم يجد الامبراطور

---

(1) ما نزكرت أو ملاذكرت مدينة أرمينية تقع إلى الشمال من بحيرة خان

Vasiliev : op . cit . I. P. 469 .

(2) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٢٧٥ .

(3) عاشور (سعيد عبد الفتاح) : أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ٤٢٤ .

(4) Runciman : of . cit . I.P. 64 .

(5) Vasiliev : of . cit Tom . I. p. 356.

(6) Runciman : of . cit Vo. I. P. 65 .

الكسيوس كومنين وسيلة يستعين بها لدفع هذا الخطر سوى الاستنجاد بالبابوية عدة مرات ، حتى انتهى به الأمر إلى إرسال بعثة إلى البابا أربان الثانى سنة ١٠٩٥ لشرح خطر السلاجقة على المسيحيين بوجه عام[١] .

وبينما ارتفع شأن السلاجقة ، وامتد سلطانهم من بحر إيجة شرقا إلى حدود الصين غربا ، ومن بلاد القوقاز شمالا إلى المحيط الهندى جنوبا ، وأخذ سلطان الفاطميين يتقلص ، فاستقل عنهم الساحل الشرقى للبحر المتوسط بسبب الأزمات الاقتصادية التى حلت بالدولة ، وضعف الخلفاء فضلا عن المنازعات بين العناصر المختلفة بالجيش الفاطمى ، ومع ذلك استطاع الفاطميون أن يستردوا بيت المقدس سنة ١٠٨٩[٢] . وما تعرضت له كل من الدولة البيزنطية والخلافة الفاطمية من خطر من قِبَل السلاجقة ، أدى إلى قيام تحالف بينهما لمواجهة تهديد السلاجقة[٣] .

على أن أحوال العالم الإسلامى فى الشرق الأوسط ، ازدادت تدهورا فبعد وفاة ملك شاه سنة ١٠٩٢ ، قامت إمارات سلجوقية مستقلة بآسيا الصغرى والعراق وخراسان وكرمان . أما بلاد الشام فانقسمت إلى إمارات متفرقة يدين بعضها بالولاء للسلاجقة بينما كان البعض الآخر ، وخاصة المدن الساحلية وبيت المقدس يخضع للفاطميين ، واستقل أمراء آخرون الذين تولوها سواء من قبل السلاجقة أو الفاطميين ، بينما نشب النزاع بين ولدى تيتش ، رضوان ودقاق ، على مملكته التى أقامها بالشام ، وإذ حل الضعف بالقوى الإسلامية التى تسيطر على منطقة الشرق الأوسط ، حيث تقع الأماكن المقدسة التى تطلع المسيحيون بغرب أوروبا إلى الاستيلاء عليها نهضت بيزنطة من كبوتها فى عهد الامبراطور الكسيوس كومينين (١٠٨١-١١١٨)[٤] ، فما اتصف به الكسيوس من الدهاء ونفاذ البصيرة ، حمله على أن يستخدم من الأساليب ما يكفل له القضاء على الفتن الداخلية ، وتوطيد مركزه ، وإصلاح الأحوال الاقتصادية ، وإعادة بناء الأسطول ، وتشكيل جيش جديد من المرتزقة[٥] ، والإيقاع بين الأمراء والقادة السلاجقة الذين هددوا ما تبقى له من أملاك فى آسيا الصغرى[٦] .

---

(١) عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ٤٤٦ .

(٢) Gibb _ (H. A. R.) : The claphite and the Arab State P. 95 .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ١٠١ .

ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ج ١ ص ١٦ .

(٤) Runciman : of . cit Vol I.P.75 .

(٥) Runciman : of . cit . Vol . I. P. 76 .

(٦) ابن الأثير / الباهر فى الدولة الأتابكية (نشر عبد القادر طليمات) ص ٧ .

موقف بيزنطة من الحركة الصليبية :

كان الامبراطور الكسيوس يأمل من وراء طلب مساعدة الغرب له أن يتوافر له من الجنود المرتزقة ، ما يعينه على طرد الترك من آسيا الصغرى ، وما طلبه من الغرب من امداد لم يقصد به الا اعتبارهم جنودا مأجورين يخضعون لسلطانه ، وينفذون أوامره ، فيردون إليه ما يستولون عليه من البلاد من أيدى المسلمين ويعترفون له بالسيادة والسلطان[1] . وبفضل ما اشتهر به الكسيوس من المهارة السياسية ، وبما أغدقه من الهدايا والتشاريف على قادة الصليبيين فضلا عن الإفادة من التنافس والتشاحن الذى وقع بين الجيوش الصليبية المختلفة . استطاع أن يحمل القادة الصليبيين على بذل يمين الولاء له[2] . وكأنما تعين على الصليبيين أن يعيدوا إلى بيزنطة ما كان لها من ممتلكات بالشام وقبادوقيا والرها[3] ، وبهذا استخدم الكسيوس الغرب المسيحى لتحقيق مطامع بيزنطة السياسية ، وبذلت بيزنطة للصليبيين كل ما لديها من مساعدات مادية وخبرة بطبيعة بلاد آسيا الصغرى ، ومهارة سياسية فى العلاقات مع الترك ، والإفادة من السكان اليونانيين ، ووقع النزاع بين القوى الإسلامية المختلفة بآسيا الصغرى[4] ، كل ذلك حقق للصليبيين أمر الاستيلاء على المدن الواقعة على الطريق الرئيسى المؤدى إلى أطراف الشام ، حتى بلغوا أنطاكية ، وتهيأ للامبراطور أن يسترد بفضل الصليبيين الجانب الغربى من آسيا الصغرى[5] .

مشكلة أنطاكية :

توجه الجيش الصليبى الرئيسى لحصار أنطاكية التى تعتبر من أهم مدن الشام ، وكانت الثغر الجنوبى للأملاك البيزنطية وانتزعها سليمان بن قتلمش سنة ١٠٨٥ ، ولم تلبث أن أضحت من أملاك السلاجقة بالشام ، وكان يتولى حكمتها من قِبَل السلطان ملك شاه ، ياغى سيان وظل يحكمها حتى سقطت فى أيدى الصليبيين سنة ١٠٩٨ وأستطاع بوهمند النرمندى أن يظفر باحتلالها ، بعد أن اشتد النزاع عليها بين الأمراء الصليبيين[6] .

---

(١) Runciman : of . cit . Vol . I.P. 150.

(٢) حبشى : الحروب الصليبية الأولى ص ٢٧ .

(٣) Grousset : Hist . des Croisades Tom . I.P.27.

(٤) Runciman : of . cit . Vol . I.p. 194 .

(٥) Ostrogorsky : of . cit . p. 322.

(٦) Runciman : of . cit . Vol . I.P. 224.

والواقع أن امتلاك الصليبيين لأنطاكية ، أدى إلى التخاصم والتنازع بينهم وبين الدولة البيزنطية منذ بداية الحروب الصليبية ، وتحكم إلى حد كبير فى سياسة بيزنطة الصليبية[1] . فعلى الرغم من أن الأمراء الصليبيين بذلوا يمين الولاء للامبراطور الكسيوس ، فأصبحوا بذلك أتباعا له ، فيما يستولون عليه من أملاك ومدن وقلاع ، تعتبر من أملاك الامبراطور يمنحها لمن يشاء من الأمراء الإقطاعيين [2] . على أن الأمراء رأوا غير ذلك ، فاعتبروا أن ما يفتحونه من بلاد داخل حدود الشام ليس للامبراطور سلطان عليه ، ويعتبر من حقوق الأمراء ولذا حرص بوهمند بعد الاستيلاء على أنطاكية على أن يتخلص من كل أثر ونفوذ بيزنطى ، فأوهم الأمراء الصليبيين أن الامبراطور الكسيوس يكيد لهم ويتحالف مع السلاجقة ، ولم يسع ممثل الكسيوس وهو نيكتاس إلا أن يفر إلى قبرص ، وزعم الصليبيون أن الامبراطور أخل بشروط يمين الولاء، إذ تخلى عنهم أمام أنطاكية فى أحرج الأوقات ، ولم يقدم لهم ما يحتاجونه من المؤن والعتاد . وصار لبوهمند من النفوذ والسلطان ما جعله آخر الأمر ينفرد بإمارة أنطاكية[3].

والواقع أن الصليبيين أفادوا من مساعدة البيزنطيين فيما احتلوه من الأراضى الإسلامية ، كما أفادوا من تفكك القوى الإسلامية فيما اتخذوه من سياسة مع الأمراء المسلمين ، فإن ما حدث من انقسام الشام بين السلاجقة والفاطميين والأتابكة والأمراء المستقلين ، أضعف شأن المسلمين فى الشرق الأوسط ومن الدليل على ذلك ما حدث من محاولة الفاطميين الاتفاق مع الصليبيين ، بناء على نصيحة الامبراطور الكسيوس ، إذ إنه بذل النصيحة للصليبيين بالتماس صداقة الفاطميين[4] ، فأرسل الوزير الأفضل بن بدر الجمالى إلى أنطاكية سفارة فى يناير سنة ٤٩٢هـ/ ١٠٩٨م . ومكث بها شهرين وكانت هذه السفارة تحمل مشروع اتفاق بين الفاطميين والصليبيين ، تحصل فيه مصر على بيت المقدس ، وينفرد الصليبيون بأنطاكية ، على أن يسمح للصليبيين بزيارة الأماكن المقدسة بفلسطين ويسمح لهم بممارسة شعائرهم على ألا تزيد إقامتهم أكثر من شهر واحد وألا يدخلوها بسيوفهم ، ولقد رحب بهذه السفارة الصليبيون وأرسلوا معها وفدا إلى القاهرة ويبدو أن الصليبيين لم يهتموا فى ذلك الوقت بفكرة التحالف ،

---

(١) Grousset : of . cit . Tom . I. 143 .

(٢) Chalandon (F.) Hist . de la Premiere Groisade . P. 227 .

(٣) Runciman : of . cit . I.P. 204 .

(٤) Setton : A Hist . of the Crusades . Vol . II . P. 316 .

(٥) Runciman : of . cit . Vol . I. P. 205 .

وأنهم أبعد ما يكونون عن معاونة الفاطميين على استعادة ممتلكاتهم فى الشام ، إذ جعلوا كل اهتمامهم موجها إلى المسير إلى بيت المقدس بعد استيلائهم على أنطاكية[1] .

ولذلك لم تحقق السفارة هدفها ، وظن الفاطميون فى مصر أن انتصار الصليبيين فى أنطاكية يحول دون زحف السلاجقة جنوبا ، ويمنع الخطر عن مصر ، كما اعتقدوا أن الصليبيين سوف يتوقفون فى زحفهم عند بيت المقدس[2] ، وبذا يؤلفون إمارة حاجزة بين السلاجقة والفاطميين .

وإذ أدرك الصليبيون ما وقع من الشقاق بين القوى الإسلامية ، اتصلوا بدقاق أمير دمشق[3] ، حينما علموا باستعداد كربوقا أتابك الموصل لمساندة ياغى سيان أمير أنطاكية، وأشاروا إلى أنهم لن يتعرضوا لممتلكاته بأذى ، وأنهم لا يقصدون سوى البلاد التى كانت بأيدى الروم ، والبيزنطيين[4] على أن دقاقا لم يلتفت إليهم ، واستنجد بالسلطان السلجوقى فى بغدادوكربوقا ورضوان صاحب حلب ، وأميرى حماه وسنجار ، فلم يسع الصليبيون إلا الالتجاء إلى البيزنطيين ، ومع ذلك فإن بوهمند استطاع آخر الأمر أن يظفر بأنطاكية بفضل بسالة رجاله وخيانة أحد القادة الأرمن ، كان يخدم ياغى سيان[5] ، وذلك دون أن ينتظر قدوم القوات البيزنطية ، بينما أعلن الامبراطور أن مصلحة الامبراطورية تستوجب العودة وتجنب التعرض لهجمات السلاجقة وكل ما كان يهتم به هو مصلحة الامبراطورية ورفاهيتها ، ولما وصلت الأنباء إلى المعسكر الصليبى بأن الامبراطور عاد إلى عاصمة ملكه ، ورفض النهوض لمساعدتهم اعتبروا ذلك تخاذلا من الامبراطور فاطمأن بوهمند بذلك إلى أن تحققت أحلامه بالانفراد بأنطاكية[6] .

سياسة اللاتين تجاه بيزنطة :

على الرغم من أن الامبراطور لم يواصل السير لنجدة الصليبيين فى أنطاكية فإنه أظهر استعداده لمساندتهم عند زحفهم على بيت المقدس فطلب منهم انتظارهُ لشهر يوليو ، ولعلَّ السر فى التأجيل يرجع إلى أن الامبراطور حرص على ألا يغفل أمر الاتفاقية

---

(١) Grousset : of . cit . Tome . I. P . 83 .

(٢) Grousset : of . cit . tome . I . P . 83 .

(٣) Setton : of . cit . Vol . I.P. 316 .

(٤) حبشى : الحروب الصليبية الأولى ص ٥٤ .

(٥) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٣ . ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ١٠٢ .

(٦) Runciman : of . cit . I. P . 240 .



مدينة انطاكية

السرية التى عقدها مع الفاطميين ، إذ ارتاب البيزنطيون فى توسع الصليبيين ومتاخمتهم لحدودهم وأدركوا أنه لابد من إبعادهم عنها[1] .

والمعروف أن اليونانيين كانوا يؤلفون جالية كبيرة فى أنطاكية وكان البابا أوربان قد أوصى الأسقف أدهمير بتوطيد العلاقة مع بيزنطة وعدم التعرض لليونان الأرثوذكس أملا فى التقارب بين الكنيستين الشرقية والغربية ، فأعاد أدهمير بطريرك أنطاكية إلى كرسيه ، غير أن بوهمند قرر عزله بعد أن استقر فى أنطاكية وكشف ما بين البيزنطيين والفاطميين من علاقات .

لم يسع الصليبيون إلا أن يقرروا المسير إلى بيت المقدس بعد أن أرسلوا رسالة إلى البابا يدعونه لقيادةالحملة ، ولكن البابا اعتذر ، وفى أثناء مسير الصليبيين إلى بيت المقدس وصلت رسالة من الامبراطور البيزنطى فى سنة ١٠٩٩م ، تذكرهم باتفاقهم السابق ، وبما بذله جميع البارونات من يمين الولاء ، التى تلزمهم بأن يردوا إليه ماوقع بأيديهم من المدن والقلاع وفقا لاتفاقية سنة ١٠٩٧م ولقد كتب الفاطميون إلى الكسيوس حين تقدم الصليبيون فى أراضيهم لإيضاح مدى صلته بتلك الحركة[2] ، واشتراكه فيها ، فأنكر صلته بها وكان سبب اتخاذه ذلك الموقف ، تصرفات بوهمند وعدم وجود مصالح له فى بيت المقدس . أما واجبه نحو الأرثوذكس المسيحيين بصفته حاميا لهم ، فقد حمله على الاعتقاد أن بقاءهم تحت الحكم الفاطمى أفضل من حكم الفرنج المخالفين لهم فى المذهب ، والذى بدت دلائله تجاه السكان الوطنيين مما تعرضوا له من اضطهاد وتعذيب . وفى نفس الوقت لم يقطع علاقته بالصليبيين ، ولكن تلك الرسائل وقعت فى أيدى الصليبيين الذين اعتقدوا فى خيانته لهم . ورغم ذلك تمكن الصليبيون من الاستيلاء على بيت المقدس[3] .

أقام الصليبيون لهم فى الشرق الأدنى فيما بين سنتى ١٠٩٧ ، ١٠٩٩ ثلاث إمارات : الرها ، وأنطاكية ، وبيت المقدس ، فتغيرت الأوضاع السياسية بهذه المنطقة ، إذ حرص الصليبيون على تثبيت أقدامهم ، ولم يلبث أن ظهرت أطماعهم السياسية والشخصية والاقتصادية . إذ حرص كل أمير على تملك ما وقع فى يده من المدن والقلاع الإسلامية ، وحازت الجمهوريات الإيطالية من الامتيازات ما جعل مساعدتها بالغة

---

(١) Setton : of . cit . I.P. 329 . Grousset : of . cit Tom I.p.. 37 .

(٢) حبشى : الحرب الصليبية الأولى ص ٢١ .

(٢) ابن الأثير الكامل ج ١٠ ص ١٠٥ .

(٣) عاشور / الحركة الصليبية ١ ص ٢٤ .

الأهمية للصليبيين ، كما تغير موقف بيزنطة من الصليبيين ، ويدل على ذلك ما انتهجته من سياسة تجاه حملة سنة ١١٠١م[١] التى بدأ فى تأليفها لمساندة الصليبيين فى الاستيلاء على أنطاكية سنة ١٠٩٨م ، ولم تتحرك إلا بعد سقوط بيت المقدس إذ تعرضت هذه الحملة لهزيمة ساحقة على أيدى السلاجقة[٢] ، وترتبت على هذه الهزيمة نتائج خطيرة ، إذ استعاد السلطان السلجوقى نفوذه فى آسيا الصغرى ، واتخذ قونية عاصمة له ، وهدد الطريق الرئيسى بين القسطنطينية والشام ، كما مد غازى الدانشمندى نفوذه إلى الفرات، فأصبح يهدد الرها ، وأصبح طريق آسيا الصغرى موصدا مرة أخرى أمام الصليبيين والبيزنطيين ، وألقى الصليبيون مسئولية هذه الهزيمة على عاتق بيزنطة ، فى حين اتهمتهم بيزنطة من جانبها بأنهم لم يتبعوا خطط الامبراطور البيزنطى ، ونتج عن ذلك أن أصبح من المحتم على الصليبيين والبيزنطيين[٣] عند توجيه أى حملة ، أن يسلكوا طريق البحر ، فاستفادت المدن الإيطالية بيزا وجنوة فى الحصول على مزايا تجارية ضخمة[٤] .

الدولة العباسية والبيزنطيون :

بدأت حركة الإفاقة فى الدولة الإسلامية ، وبدأت تظهر بوادر توحيد الجبهة الإسلامية وفكرة الوقوف فى وجه الصليبين فى شمال العراق أولا ثم بلاد الشام[٥] ، ولكنها لم تتضح تماما . فلم يكن للمحاربين عزيمة صادقة فى الجهاد ، وقد بدأت حركة الإفاقة فى شمال العراق ، وذلك لقربها من الرها والخوف من الصليبيين ، ولقد بدأها جرمكش حاكم الموصل ، ثم مودود أتابك الموصل ، ولقد تسربت فكرة الجهاد إلى نفوس العامة فى البلدان التابعة للخلافة العباسية حيث أنذروا الخليفة العباسى بوجوب مقاومة الغزو الصليبى ، بعد أن تعرضت حلب لحصار الصليبيين ، فخشى المسلمون استيلاء الفرنج على بقية بلاد الشام[٦] ، فسار جماعة من أهل حلب إلى بغداد، مستنصرين على الفرنج، واغتنم الكسيوس كومنين الفرصة ، وأرسل لسلطان

---

(١) العرينى : الشرق الأوسط والحروب الصليبية ج ١ ص ٣٠٠ .

(٢) Runciman : of . cit . Vol . II. p . 21 .

(٣) Ostrogorsky : of . cit . P. 323 .

(٤) Runciman : of . cit . Vol II. p. 29.

(٥) Grousset : of . cit . Tome . I. p. 416 .

(٦) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ١٨٢ ، ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٥٢.

السلاجقة ببغداد يحثه على قتال الفرنج ، ووصلت سفارته وقت وصول أهل حلب ، فاشتد أهل حلب فى حث السلطان على الجهاد ، بأن قالوا للسلطان «أما تتقى الله تعالى أن يكون ملك الروم أكثر حمية منك للإسلام حتى لقد أرسل إليك فى جهادهم »[1] وتضمنت رسالة الامبراطور البيزنطى للسلطان السلجوقى والخليفة العباسى عرض التحالف بين البيزنطيين والمسلمين ، كما تضمنت الإشارة من طرف خفى إلى نوايا الصليبيين وأنه منعهم من العبور إلى بلاد المسلمين ، وكانت هذه السفارة تهدف إلى القيام بجهد مشترك بين بغداد وبيزنطة ، ضد الصليبيين ، إذ كان الامبراطور يعلم ألا أمل فى أن ينفِّذ قادة الفرنج اتفاقاتهم معه وتسليمه أنطاكية[2] ، وليصفو له الجو ويضعف كلا الجانبين (الصليبى والإسلامى) ، نهضت جيوش عربية تولى قيادتها مودود زنكى ، حاصرت تل باشر سنة ١١١٠م ٥٠٤هـ وأشرفت على أخذها[3] .

السلاجقة والبيزنطيون فى آسيا الصغرى :

منعت غارات السلاجقة الامبراطور البيزنطى من التدخل فى شئون سوريا ، وبعد موت الغازى كمشتكين الدانشمندى سنة ١١٠٦م كان لبيزنطة فى الأناضول قوات كبيرة ، إذ أن الكسيوس كان يهدف إلى بسط سلطانه على المناطق الغربية على الشاطىء الجنوبى[4] وحكم قبادوقيا القائد السلجوقى حسن الذى حاول سنة ١١١٠م الاستيلاء على أراضى الدولة البيزنطية ، وتقدم فى اتجاه فيلادلفيا ، وكان يهدف الاستيلاء على أزمير ، ولكن القائد البيزنطى إيستاسيوس فليكوس Eustathius Philoces قائد الجزء الجنوبى الغربى من الأناضول حرص على إحباط محاولة حسن واستنقاذ الشاطىء الإيجينى من هجمات السلاجقة[5] ، وفى نفس الوقت كان أكبر أولاد قلج أرسلان قد تخلص من أسر الفرس واتخذ قونيا عاصمة له بعد محاربة القائد حسن فى

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٣ ، ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ١٥٧ - ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ١٠٣ .

(٢) Runciman : of . cit . Vol I.P. 121 .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٥٨ .

(٤) Runciman : of . cit . Vol . II . P . 138 .

(٥) Runciman of . cit . Vol II . P. 138 .

محاولـة لاسترداد أراضى أسلافـه ، فاتجه إلى فيـلادلفيا سنـة ١١١٢م ، حيث التحم مع الجنرال البيزنطـى جابراس Gabras واشتبك معـه مرة ثـانيـة سنة ١١١٣م فأرسل حملـة سريعة إلى بيثينيا وأسـوار قونية فحاصر قائدهم محمـد مدينة Poemarenum حيث قبض على القـائد البيزنطى ، واتجه إلى أبيـدوس ، كما حـاصر ملكشاه بـرجامـه Pergamum واستولى عليهـا . وخرج الامبراطور بنفسه لمواجهـة السلاجقة ، وانتظرهم أثنـاء عودتهم محملين بـالغنـائم وفـاجأهم واشتبك معهم قـرب غلطـه Catyaeum فاستعـاد الأسرى والغنائم ، وفى سنـة ١١١٥م ترددت أنبـاء على أن ملكشاه يستعـد للحرب مـرة ثانيـة وقضى الكسيوس السنـة فى احتلال بيثينيا ، وفى السنة الثـالثة كان مـريضا ، ومع ذلك عزم على أن يبدأ بـالهجوم ، واتجه جنوبا إلى قـونية وانتصر البيزنطيون فى فليـومليوم Phi-lomelum[١] ، واضطر ملكشـاه لطلب الصلح واعترف بحدود بيزنطـة التى امتدت من طرابيزون إلى قليقليا والمناطق الواقعة غـرب أنقرة ، ثم قتل ملكشاه على يد أخيه مسعود بعد تحالفه مع الدانشمند ولكن استمر الترك فى غاراتهم فى جوف الأناضول ، ومنع هذا بيزنطة من اتخاذ إجـراءات فعلية فى سوريا ، وكل هذا أفـاد أمير أرمينيا ثورس Thoros ، والنورمان فى أنطـاكية ولقد توازنت قـوة البيزنطيين والسلاجقة فى آسيـا الصغرى لذلك منعت تلك الأحداث الكسيوس من الذهاب إلى روما[٢] .

وفى سنـة ١١١٨م تـوفى كل من الخليفـة المستعين فى بغداد والكسيـوس كـومنين وبلدوين الأول[٣] .

ساريـوحنا كـومنين (١١١٨م - ١١٤٣م) على سياسـة أبيه الكسيـوس ، الذى خلف لـه أسطولا قويـا وثروة ، فضـلا عن جيش تجهـز بالعتاد ، وتلقـى تدريبـا جيدا فحرص على تأمين الحدود ، واستعادة ما فقدته الامبراطـورية من أملاك ، وتأكيد سلطة بيزنطـة على شمال الشام[٤] ، بينما كـان السلاجقـة منقسمين على أنفسهم : فالسلطـان مسعود فى قـونية يسيطـر على الجزء الجنوبى من شبه جـزيرة الأنـاضول من سنجار إلى طـوروس ، ثم الأمير غـازى الـدانشمنـد يحكم من هـاليس إلى الفـرات وبين

---

(١) Ostrogorsky : of . cit . P. 324 .

(٢) أسد رستم : الروم ص ١٣٣ .

(٣) Chama, dp, : Alexis comene P 263 .
Runciman : of . cit Vol II. P.134 .

(٤) Grousset : of . cit . I . p . 462 .

أملاكها مدن يحكمها أفراد مستقلون[1] ، وكان طغرل أرسـلان أمير ملطية لا ينفك فى الإغارة على سواحل أدنة وسـائر قليقية ، فقاد يوحنا جيشه واستعـاد أدنة والأناضول[2] وكـان من حسن حظ بيـزنطـة أن وقعت الفتنـة بين السـلاجقـة ، فنشب خـلاف بين السلطـان مسعـود وأخيـه عـرب على إمـارة طغرل وملطيـة فـاضطـر مسعـود للهـرب للقسطنطينية حيث استقبله الامبراطور استقبالا حسنا ، ولكن مسعودا استطاع استعادة عـرشه ولجأ عـرب بدوره إلى قليقيـة ثم القسطنطينيـة ، وأمضى الامبراطور الأعـوام من ١١٣٠ - ١١٣٥ فى مهاجمة دانشمند ، ولكن عكر عليـه صفو ذلك هروب أخيه إسحق ١١٣١م حيث قضى تسعة أعوام يدبر المكائد مع الأمراء المسلمين والأرمن ، ومنذ وفاة الأمير غازى دانشمند لم تستطع قوة سلجوقية أن تعترض طـريق الامبراطور يوحنا الذى استعاد كل ممتلكاته التى فقدها[3] .

العلاقة بين البيزنطيين والزنكيين :

ظلت مشكلة أنطاكية موطـن الشقاق ، وسبب التوتر بين الصليبيين والبيزنطيين ، فبعد أن تخلص الامبراطـور من مشاكلـه مع السلاجقـة ، حاول استعـادة أنطاكيـة بعد مصرع بوهمند الثانى سنة ١١٣٠ ، والمعروف أن ملك بيت المقدس لذلك تدخل فى أمر أنطاكية للمحافظة عليها من أطماع البيزنطيين وزنكى[4] ، غير أن « اليس » الوصية على العرش لجأت إلى كل من زنكى والامبراطور البيزنطى ثم اختارت لابنتهـا ريموند بواتيه ليكون زوجا لها فأثـار هذا غضب الامبراطور ضد أنطاكيـة ولجأ لاستخدام القوة ، وإن كانت المراجع الإسلامية[5] تشير إلى أن السبب فى قدوم الامبراطور البيـزنطى يرجع إلى استنجاد الفرنج بـه ، ولما مضت القسس والرهبان إلى بلاد الـروم واستنفروهم المسلمين بسبب عماد الدين ومنـازلة بعـرين وفاجأت أخبار الحملـة كل من الأرمن والصليبيين ، وقبض الامبراطور على ابن لاون وسيره إلى القسطنطينية . ثم اتجه إلى أنطاكية وحاصرها، ولم يكن ريمـونـد فى أنطاكيـة بل كـان يسـاعد ملك بيت المقـدس فى قتـال زنكى فى

---

(١) Runciman : of . cit . II. P. 201 .
(٢) Ostrogorsky : of . cit . P. 336 .
(٣) Ostrogorsky : of . cit . P. 33b.
(٤) تزعم عماد الدين زنكى حركة الجهاد فى النصف الأول من القرن الثانى عشر .
(٥) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ١١ ص ٣٢ .

بعرين ، ولكن استطاع دخول المدينة مع حرسه [1] . وآثر الامبراطور يوحنا ألا يقدم على تحطيم قوة أنطاكية ولا سيما بعد أن ظهرت قوة زنكى [2] ، ولم تنقل إلى ريموند مساعدة خارجية فأرسل يعرض على الامبراطور المفاوضة ثم توصلا لاتفاق اعترف فيه بسيادة الامبراطورية البيزنطية على أنطاكية ، وعلى أن يحكمها الصليبيون نيابة عن الامبراطور ، واتفقا على القيام بحملة سنة ١١٣٧ ، تحددت أهدافها ، فى تحطيم قوة زنكى فى حلب ، وإمارة بنى منقذ فى شيزر ، وانتزاع حمص [3] من أتابكية دمشق ثم إقامة إمارة تشمل الأجزاء الداخلية من بلاد الشام بما فيها حلب وشيزر وحماه وحمص ، على أن يعين ريموند بواتيه أميرا على تلك الإمارة الجديدة وفى هذه الحالة يتحتم على ريموند أن يعيد أنطاكية إلى الامبراطور البيزنطى ، على الرغم من أن الامبراطور البيزنطى أرسل إلى زنكى سنة ١١٣٧ مبعوثا من قبله يخطره بأنه لن يقصده ويقاتله [4] وفى يناير سنة ١١٣٨م بدأ الاستعداد الفعلى للحملة فقبض على التجار والرعايا المسلمين من أهل حلب حتى لا تتسرب أنباء الحملة إلى زنكى ، وهبط الجيش البيزنطى إلى الشام تسانده جيوش أنطاكية والرها [5] واتجهوا إلى الشمال الشرقى من حلب واستولوا على بزاعة سنة ١١٣٨ [6] ، وكان زنكى يحاصر حمص ، وأرسل بعض قواته بقيادة سيف الدين سوار لتقوية حلب ، ولم يستطع الصليبيون بسبب مناعة وقوة استحكامات حلب الاستيلاء عليها ، فهبطوا للجنوب واستولوا على الأثارب ومعرة النعمان وكفر طاب ، وواصلوا الزحف إلى أن وصلوا شيزر ، ولكن الحصار على شيزر لم يحقق نجاحا لمناعتها ، ولأن أمير أنطاكية والرها انصرفا إلى أمورهما الداخلية ، ونهض زنكى لمساعدة شيزر ، وأرسل إلى بغداد للدعوة للجهاد الدينى ، فأرسل القاضى كمال الدين الشهرزورى للسلطان مسعود السلجوقى الذى اضطر أمام ثورة أهل بغداد إلى إعداد حملة ، كما نهض عساكر دمشق لمساعدة زنكى ، الذى أرسل إلى الأمير الدانشمند يطلب منه الإغارة على آسيا الصغرى ، ووقف زنكى على النزاع بين الصليبيين

---

(١) Ostrogorsdy : of . cit P. 336.

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٢ .

(٣) عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٥٨٣ .

(٤) وصل الرسول إلى زنكى ، وهو متوجه إلى القبلة فرده ومعه هدية إلى ملك الروم وفهود وبذاه وصقور على يد الحاجب حسن ، ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٢٦٣ .

(٥) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٢٦٥ .

(٦) العرينى : الشرق الأوسط ج ١ ص ٥١٣ .

والبيزنطيين فسعى إلى إثارة الفرقة بينهم ، فكان يـرسل إلى ملك الروم ، « إن فرنج الشام خـائفون ، فلـو فارق مكـانه لتخلـوا عنه » ، ويـرسل إلى فرنج الشـام يخوفهم من ملك لاروم، ويقول لهم « إن ملك بـالشام حصنا واحـدا ملك بلادكم جميعا ، فـاستشعر كل من صـاحبه »[١] فأحجم كل من أميرى الـرهـا وأنطاكيـة عن مشـاركة الامبراطـور فى الهجوم على شيزر إذكَرِه جـوسلين أن يرى ريموند قريبا منـه ، فى حين خشى ريموند أن يضطر للتنازل عن أنطاكية ، وأدى عدم توافر حسن النية بين الصليبيين والبيزنطيين إلى فشل الحملة[٢] ، ومـا كـاد جـانب من المدينــة يسقط حتى التمس السكـان الهدنـة ، فأجـابهم الامبراطـور ، وتضمن الاتفـاق دفع مبلغ كبير من المال جـزيـة سنويـة رمـزا للتبعيـة لـلامبراطور ، فضـلا عن الهدايـا والخيـول . وانسحبت الجيوش البيـزنطيـة إلى أنطاكية وطلب الامبراطور من ريموند تسليم أنطـاكية ولكن جوسلين كونت الرها آثار النفـوس على الامبراطور والأرثـوذكس وخوفهم من نـوايا الامبراطـور ، واندلعت ثـورة عارمـة فى أنطاكيـة واعتدوا على الجيش البيـزنطى[٣] ، وأغـار سـلاجقة الـروم فى آسيـا الصغـرى على قليقية وأدنـة والمصيصة بإيعـاز من زنكى ، فاضطـر الامبراطور للعـودة للقسطنطينية .

استعاد زنكى فى مايـو سنة ١١٣٨م حصن بزاعة والأثـارب ، وضاعت مكاسب بيزنطة[٤].

عاد الامبراطور يـوحنا سنة ١١٤٢ لاستعادة أنطاكية ، ولكن ريمـوند اعتذر بأنها ملك لزوجته كـونستاس ، وليس بوسعه التنازل عنها ، وقـرر الامبراطور استعادة المدينة بالقوة[٥] . ولكن قدوم الشتـاء منعه من الهجوم ، واتجه إلى قليقية واستعـاد بعض القلاع من الدانشند ، ولقد أراد الحج والقدوم إلى بيت المقدس على رأس جيشه ، ولكن فولك رفض لتخوُّفه منه ومن دخول جيش بيزنطى ، فقال: إنه يرحِّب بحاشية صغيرة ، وأنكر

---

(١) أبو شامة : الروضتين ج ١ ص ٣٢ .
(٢) العرينى : الشرق الأوسط ج ١ ص ١٦ .
(٣) Grousset : of . cit . Tome . I.P. 121, 123.
Stevenson : The crusaders in the East P . 124 .
(٤) عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٥٩٠ .
(٥) Ostrogorsky : of . cit . P. 336.

أى حق شرعى للامبراطور البيزنطى فى بيت المقدس ، مما أثار الامبراطور وقرر القتال ، ولكن عاجلته المنية[1] .

تولى عرش بيزنطة مانويل (١١٤٢ - ١١٨٠) الذى اشتهر بميله إلى الغرب والتقاليد الغربية ، ولكنه لم يتخلَّ عن مصالح بيزنطة فى الشرق ، فقامت الدبلوماسية البيزنطية فى عهده على أساس المحافظة على توازن القوى فى الشرق بالإيقاع بين القوى الإسلامية المختلفة والإيقاع بينها وبين الفرنج ، لتعود الفائدة فى النهاية على بيزنطة وتتجلى سياسته فى علاقته بأُمراء الحملة الصليبية الثانية والسلاجقة ونور الدين الذى تولى قيادة الجبهة الإسلامية بعد أبيه عماد الدين زنكى .

موقف البيزنطيين من السلاجقة والحملة الصليبية الثانية :

كان لسقوط الرها سنة ١١٤٤م على يد عماد الدين زنكى أثره الكبير بالنسبة لصليبى الشام فأرسلوا يستنجدون بالغرب الأوربى[2] ، بل إن الأساقفة الأرمن أخبروا البابا بما حدث فى الشرق وطلبوا مساعدته ضد بيزنطة . ودعا البابا إلى حرب صليبية جديدة ، ويكون هدفها استعادة الرها ، ولقى هذا النداء استجابة من أكبر ملكين فى الغرب وهما كنراد الثانى امبراطور ألمانيا ، ولويس السابع ملك فرنسا ، وبدأ الاستعداد للحملة التى كان لابد لها أن تجتاز أراضى الدولة البيزنطية[3] .

اختلف موقف بيزنطة من هذه الحملة عن موقفها عن الحملات الأولى ، فالمعروف أن الكسيوس هو الذى استنجد بالفرنج لقتال الترك لاستعادة آسيا الصغرى، أما فى عهد مانويل فإن الامبراطورية البيزنطية استعادت آسيا الصغرى وأصبحت الإمارات اللاتينية حاجزة بينها وبين المسلمين ، واعترف ريموند[4] أمير أنطاكية بالتبعية، فلم يكن لهذه الحملة أهمية بالنسبة لبيزنطة ، بل إنها سوف تجلب لها متاعب نجمت عن تصرفات الصليبيين ، ولاسيما أن ريموند أمير أنطاكية كان من الداعين للحملة[5]،

---

(١) Ostrogrosky : of . cit . P. 337 .

(٢) Runciman : of . cit . Vol II. P. 247 .

(٣) Runciman : of . cit . II. P. 247 , Grousset of . cit . II. P. 230 - 232 .

(٤) Berry : The Zecond . Crusades P. 470 .

(٥) كان ريموند قد توجه إلى القسطنطينية وأقسم للامبراطور يمين الولاء سنة ١١٤٤ واتفق معه على مهاجمة حلب سنة ١١٤٥ .

إذ يمت بصلة القرابة لملك فرنسا أحد قادة الحملة ، وزاد الأمر سوءا علاقة الامبراطور بالسلاجقة ، واتفاقه معهم ، مما أثار النفوس بين بيزنطة والصليبيين .

حدث بعد وفاة السلطان غازى الدانشمند أن وقع النزاع بين أبنائه الثلاثة ، واستغل سلطان قونية مسعود الفرصة لبسط نفوذه على الأناضول والتوسع فى أرض الدانشمند ، فلم يسعهم إلا التحالف مع بيزنطة سنة ١١٤٣م ، وعندئذ تقدم مسعود سنة ١١٤٥م فاستولى على أملاك الدانشمنديين فى أيزوريا ، وتوسع فى وادى نهر ايزويا، بينما حاصر الامبراطور البيزنطى قونية ، وفى أثناء الحصار بلغته أنباء الحملة الصليبية الثانية ، وتعرض أملاكه لهجوم روجر ملك صقلية فتحتم عليه رفع الحصار ، وإذ ارتاب مانويل فى نوايا الصليبيين عقد اتفاقية مع السلاجقة ، حين أرسل إليه السلطان مسعود سفارة[١] .

ولقد ارتاع[٢] الامبراطور البيزنطى مانويل لما ذاع من أنباء اشتراك الامبراطور كنراد فى الحرب الصليبية ، وأراد أن يخرج من نطاق المحالفة التى انعقدت بينهما ضد روجر ملك صقلية ، نظرا لأنه ليس بوسعه فرض سلطانه على ما يستولى عليه كنراد من الأراضى التى بحوزة المسلمين ، وأثناء اجتياز كنراد أراضى الامبراطورية أرسل مانويل مندوبين فى سفارة إليه ، يسعيان للوقوف على نوايا الامبراطور الألمانى ، وأشارا بأنه لن يسمح للألمان باجتياز الأراضى البيزنطية مالم يتعهدوا بعدم إلحاق الأذى والضرر بمصالح الامبراطور البيزنطى ، فتعهد كنراد بذلك ، ووعد الامبراطور البيزنطى بتوفير المؤن[٣] ، ولكن نوايا البيزنطيين لم تكن خالصة ، فلم يقدموا ما فيه الكفاية من المساعدة والمرشدين ولم يشتركوا فى مهاجمة السلاجقة ، وبذلك حالوا دون القضاء على تلك العقبة التى ظلت تعترض الطريق البرى للجيوش الصليبية الوافدة من الغرب[٤].

عبر كنراد الثالث البسفور إلى آسيا الصغرى ، ولم يتخذ الطريق الذى نصح البيزنطيون به وهو طريق الساحل الغربى إلى أيطاليا ، والذى يخضع لسلطان بيزنطة ،

---

(١) Runciman : of . cit . vol II. P. 264 .

(٢) العرينى : الشرق الأوسط ج ١ ص ٥٣٣ .

(٣) العرينى : الشرق الأوسط ج ١ ص ٥٢٢ .

(٤) Grousset : of . cit . II. P. 222.

Berry, of . cit P. 488 .

واختار كنراد أن يشق طريقه فى جوف البلاد مخترقا أراضى السلاجقة ، ودب النزاع بين الألمان ودليلهم البيزنطى ، فتركهم الدليل وتخلى عنهم مما عرَّض الصليبيين لأسوأ النتائج ، ودارت بالقرب من دوريليوم معركة بين الترك والصليبيين سنة ١١٤٧م وهلك فيها معظم الجيش الصليبى(١) ، ووصلت تلك الأنباء إلى الملك لويس السابع الذى كان قد قدم ووصل أمام أسوار القسطنطينية فى سنة ١١٤٧ وصدم بأنباء الصلح المنفرد الذى عقده الامبراطور مع سلاجقة قونية وطلب منه مانويل كالعادة ألا يستولى لويس على بلد أو حصن بمملكة مانويل ، وأن يرد له ما ينتزعه من البلاد من أيدى المسلمين ، وأمر بوقف إمدادهم بالمؤن إلا إذا أقسموا له يمين التبعية(٢) .

وسلك الامبراطور الطريق الجنوبى المحاذى لساحل بحر إيجه بعيدا عن السلاجقة، واتجه لويس ومعه كنراد إلى أزمير ثم إلى أفسوس ، أرسل مانويل يطلب إليه تجنب قتال الترك الذى احتشدوا للوقوف على الفرنسيين ، التزم الامبراطور بمعاهدته مع المسلمين ، ولم يستجب لويس لنصيحته فتعرَّض مع جيوشه لهزيمة ساحقة من قبل الترك السلاجقة سنة ١١٤٨م واتجه إلى أنطاكية ، وقرر لويس السابع اتخاذ طريق البحر إلى السويدية وأنطاكية(٣) ، ولقد ظهرت صعوبة أخرى ، إذ أظهر البيزنطيون عداءهم مرة أخرى ، فامتنعوا عن تقديم السفن اللازمة للصليبيين ، بل إنهم سعوا لإثارة المتاعب والعقبات فى وجه الصليبيين ، مما أثار الغرب الأوربى ضد الأباطرة البيزنطيين، بل إن الامبراطور عمد إلى معاقبة أهل أضاليا بعد أن أمدوا الصليبيين بالمؤن(٤) ولما كانت السفن التى اجتمعت لنقل الصليبيين غير كافية ، ركب لويس السابع وحاشيته فى سنة ١١٤٨ ما أعده من السفن ، أما بقية الحملة فقد ظل رجالها فى أنطاكية يقاسون الأمرَّين من سؤ معاملة البيزنطيين وهجمات السلاجقة ، حتى تم نقلهم على دفعات إلى الشام(٥) .

---

(١) عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٦٢٥ .
(٢) العرينى : الشرق الأوسط ج ١ ص ٥٥٦ .
(٣) عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٦٢٧ .
(٤) Camb . Med. Hist. IV. P. 307.
(٥) العرينى : الشرق الأوسط ج ١ ص ٥٦٠ .

ولم تحقق الحملة الثانية ما هو مرجو منها ، فبدلا من تحطيم قوة نور الدين بعد استيلائه على الرها ، وتأمين الطريق من أنطاكية إلى طرابلس وإلى بيت المقدس إذ تتوجه الحملة بناء على رغبة ملك بيت المقدس إلى دمشق وإلى معين الدين أنر ، وذلك لحماية مملكة بيت المقدس من الغارات التى يشنها المسلمون ، وتحقيقا لأطماعهم التوسعية[1] ، ولم يشترك فى الحملة أُمراء أنطاكية وطرابلس على أن الحملة برغم ضخامتها لم تنجح فى الاستيلاء على دمشق لما وقع من النزاع بين قادتها ، ولمهارة وزير دمشق معين الدين أنر فى الإيقاع بين رجالها ، فضلا عن تحالفه مع نور الدين[2] .

عاد لويس إلى الغرب حاقدا أشد الحقد على بيزنطة حتى إنه تحالف مع النورمان فى يوليه سنة ١١٤٩م أثناء عودته ، بعد أن هاجم البيزنطيون سفنه واستولوا على بعضها ومضت أشهر قبل أن يوافق الامبراطور على إعادة الرجال والبضائع لفرنسا .

ما أحل بالحملة الصليبية الثانية من كوارث[3] أثناء اجتياز آسيا الصغرى ، أساء إلى العلاقات بين البيزنطيين والصليبيين وأخذ كل فريق يكيل التهم للآخر ، فاتهم البيزنطيون بأنهم لم يقدموا إلا مقادير قليلة من المؤن مقابل مبالغ ضخمة ، ولم يوفروا السفن اللازمة لنقل الجنود ، ولم يقدموا الأدلاء اللازمين فضلا عن تحالفهم مع الترك ضد الصليبيين ، بل إن لويس السابع والقديس بونارد قررا الدعوة لحملة صليبية لمناوأة بيزنطة ، وما جرى من توجيه التهم للصليبيين انصب على ما لجأ إليه الجند من نهب البلاد وتخريبها واعتداء الجرمان على الأملاك البيزنطية بأوربا والبلقان[4] .

أفاد الجانب الإسلامى من فشل الحملة الصليبية الثانية إذ تحطمت أُسطورة الصليبيين ، ولم يعد من العسير على القوى الإسلامية أن تنهض لقتال الفرنج ، ولا سيما بعد أن وضع عماد الدين زنكى سياسة ترمى إلى توحيد الجبهة الإسلامية ، وأثارة حركة الجهاد الدينى ، يضاف إلى ذلك اشتداد خطر المسلمين على سائر الإمارات الصليبية

---

(١) Grousset : of . cit . II . P. 243.

(٢) العرينى : الشرق الأوسط ج ١ ص ٥٦٧ .

(٣) العرينى : الشرق الأوسط ج ١ ص ٥٧٢ .

(٤) Runciman : of . cit . II. P. 286 . 287 .

فى الشـام بعـد اتحاد الموصل وحلب ، ومـا جـرى من المنـازعـات فى داخل الإمـارات الصليبية وخارجها ، كل ذلك جعل الصليبيين يتطلعون إلى بيزنطة لحمايتهم[1] .

انتهج نـور الـدين الـوسـائل السلميـة لبسط سيـادتـه على الأمـراء المسلمين المجاورين، فى آسيا الصغـرى والشام ، من ذلك ما حدث من المصاهـرة بين نور الدين وأمراء السلاجقة فى آسيـا الصغرى ، وترتب على ذلك اقتسام نور الديـن والسلاجقة ما تبقّى من أملاك الـرها ، وما كان من المعـاهدة بينه وبين أنر وزيـر دمشق ، والإفادة من المنازعات الناشبة بين الصليبيين .

النزاع حول أنطاكية :

اثار خـلاف بين البيزنطين والصليبيين حول أنطـاكية ذلك أن كونستـانس أرملة ريموند طلبت من الامبراطور البيزنطى أن يلتمس لها زوجا ، غير أنها لم تأنس لأحد ممن رشحهم الامبراطور[2] وتـزوجت آخر الأمـر من ريجنـالد ذى شـايتـون ، الذى اشتهـر بالمغامرة ، وإنكار حقوق البيـزنطيين ، والحرص على تحقيق مطامعه الشخصية ، وحاول بلدوين الثالث ملك بيت المقدس التقرب من البيـزنطيين للحفاظ على أملاكه ، وتزوج تيودورا ابنـة أخ الامبراطور[3] ، وقـاد الامبراطور جيشـه تجاه قليقيـة ، ليسترد حقوقـه فى أنطاكية ولتأديب ثـورس لتحالفه مع أرناط (ريجنـالد) لمواجهة سلاجقة الـروم والدولة البيزنطية ، فى الـوقت اتخذ الامبراطور من سلاجقة الـروم حاجزا يحـول دون تـزايد نفوذ الأمـير الأردنى .

ولما علم أرنـاط (ريجنـالـد) بـالأمـر ، طلب مسـاعـدة بلـدوين للتـوسط عندالامبراطـور ولكن بلدوين رفض هـذه الوساطـة ، ولم يجد أرناط بدًّا من التـوجه إلى الامبراطور . وتذكر المراجع أن أرناط دخل على الامبراطـور عارى الرأس حافى القدمين فعفى عنه الامبراطـور وعقد معه اتفاقـا بشرط اعترافه بسيادة الامبراطـور البيزنطى على

---

(١) Grousset : op . cit . II . P. 288 .

(٢) Vasiliev : op . cit . P. 81.

(٣) عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٦٧٣ .

أنطاكية وعـودة البطريك الكاثوليكـى وإمــداد جيشـه بفرقـة . ثم توجـه بلدويـن إلى الامبراطـور وقضى فى ضيافتـه عشـرة أيـام استطـاع أن يقنـع الامبراطـور بالعفـو عن ثورس[1] ، وعقب هــذا الاتفـاق زار الامبراطـور أنطــاكيـة فى احتفــال مهيب واتفق بلدويـن وريجنـالد والامبراطــور على توجيـــه حملة لحلب ، بعـــد أن ازداد نفــوذ نور الـدين عقب استيـلائه على دمشق وشــــيزر وتوحيـد الجبهـة الإسـلاميـة (١١٥٤ - ١١٥٧) .

موقف المسلمين :

نهض نور الـدين لمواجهة العــدو المشـترك من الصليبيين والبيـزنطيين ، ويشـير أبـو شامـة إلى مـا جـرى من المصالحــة بـــين ملك الفرنـــج وملك الـــروم فيقـول : « وتقــــررت بينهما المهادنـة والله يرد بأس كل منهما إلى نحــره ويذيقـه عاقبــة غـدره ، ومكره »[2].

ولم يلبث أن اعتزم مانـويل الزحف على أنطاكية وقصد المعاقل الإسـلامية ، فبادر نور الدين بالتـوجه إلى البلاد الشامية لإثارة الطمأنينة فى نفـوس أهلها . فسارت قوات بيزنطة فى اتجاه حمص وحماه وشيزر ولكن بدلا من أن تسير الحملة فى طريقها الطبيعى إذ بالامبراطور مـانويل يرسل السفارات إلى نور الدين بـدلا من القوات ، وهذا التغيير فى موقف بيـزنطة يرجع لعـوامل عديـدة ، منها ، أن الامبراطور البيـزنطى فى حاجة مـاسة لمساعدة نور الديـن ضد سلاجقة آسيا[3] ، وكان من سيـاسة مانويل الاحتفـاظ بميزان القـوى فى الشرق حتى يضمن خضـوع الصليبيين له ، طـالما شعـروا بتهديـد المسلمين بزعامة نور الدين ، فإذا تحطمت قوة نور الدين لم يعد الصليبيون يتطلعون إلى مساعدته، ويضاف إلى ذلك ما وقع من مؤامرات فى القسطنطينية وعلى أطراف الامبراطورية بأوربا أما نور الـدين فإنه لم يقبل المفاوضة مع البيـزنطيين إلا لإحساسه بوقـوعه بين عدوين : الصليبيين والبيزنطيين .

---

(١) Runciman : of . cit . vol . I.I. P. 352.

(٢) أبو شامة : الروضتين : ج ١ ص ١٢٣ ، ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٥٦ .

(٣) Stevenson : of . cit . P. 181.

وترددت الرسل بين الجانبين واتفقا على عقد معاهدة لتبادل الأسرى سنة ١١٥٩ ، ووصلت سفارة بيزنطية تحمل هدية إلى دمشق ، وشهد الرسل البيزنطيون فى دمشق فى ٥ مارس ما جرى من تدابير الصلح ، إذ أمر نور الدين إطلاق سراح عدد كبير من الأسرى وكان العدد يتراوح بين ستة آلاف وعشرة آلاف من أشهرهم برترام حفيد كونت تولوز ومقدم الداوية برتراند بلانكفورت(١) وأُجيب ملك الروم إلى ما التمسه من إطلاق مقدَّمى الإفرنج المقيمين فى حبس نور الدين فأنقذهم بأسرهم وقابل ملك الروم هذا الفضل بما يضاهيه(٢) .

عاد الامبراطور مانويل كومنين إلى القسطنطينية مباشرة ليقوم سنة ١١٦٠-١١٦١م بحملة لقتال سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى ، وهى الحملة التى نزلت فيها الهزيمة بقلج أرسلان الثانى سلطان السلاجقة(٣) ، مما يوحى بأن الاتفاقية السابقة بين نور الدين وبين الامبراطور البيزنطى تضمنت نصا سريا ، يقضى بتحالف الطرفين ضد السلاجقة فى آسيا الصغرى ، هذا ، وإن كانت المراجع العربية والصليبية لم تشر إطلاقا إلى مثل هذا النص . ولم يلبث قلج أرسلان أن زار بنفسه القسطنطينية سنة ١١٦٢ ، حيث قدم ولاءه للامبراطور البيزنطى وأعلن تبعيته له ، وذلك قبل أن ينقضى قرنٌ على موقعة مانزكرت فاعتقد رجال البلاط البيزنطى أن قونية أصبحت فى عهده محمية تابعة لبيزنطة(٤) .

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٥٧ - ٣٥٨ - أبو شامة الروضتين ج ١ ص ١٢٣ .

(٢) العرينى : االشرق الأوسط ج ١ ص ٦١٨ .

(٣) أبو شامة : الروضتين ج ١ ص ١٢٣ ، ابن القلانسى : الذيل ص ٣٥٧ .

(٤) عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٦٧٦-٦٧٧ .

(٥) Chalandom : Les comnenes . P. 480.

الفصل الثالث

صلاح الدين والبيزنطيون

١١٧٤ - ١١٨٠م

الدولة البيزنطية والصراع الإسلامى الصليبى حول مصر - تجدد التحالف الصليبى البيزنطى - نور الدين والسلاجقة والبيزنطيون- سقوط الخلافة الفاطمية - الأوضاع فى العالم العربى بعد وفاة نور الدين وبلدوين - بيزنطة والسلاجقة - بيزنطة وصلاح الدين.

الدولة البيزنطية والصراع الإسلامى الصليبى حول مصر :

دخلت العلاقات بين كل من الجانب الإسلامى والبيزنطى فى طور جديد ، إذ أن مركز الثقل انتقل من أنطاكية إلى مصر ، وأصبحت مصر مركزا هاما تتجه إليه أنظار كل من الصليبيين ، والبيزنطيين ، إذ أن ما وقع من أحداث فى السنوات الأولى من عصر أملريك الذى خلف بلدوين الثالث فى حكم بيت المقدس دل على ضعف مصر بعد أن أمست الخلافة الفاطمية تحت سيطرة الوزراء الذين تجاذبتهم الأطماع وسادت بينهم الخلافات ، وجعلتهم يستنجدون بالقوى الخارجية[1] ، فضلا عن أنها كشفت أيضا عن أسباب ضعف القوى الصليبية بشمال الشام ، إدراك مدى الفائدة التى تعود عليهم من محالفة الامبراطور البيزنطى مانويل الذى انطوت خططه على إعادة الوفاق مع روما ومد سلطان بيزنطة صوب الغرب والشرق والجنوب ، ويعتبر مانويل أكثر الأباطرة البيزنطيين رغبة فى التعاون مع اللاتين ، وفى نفس الوقت سعى أملريك إلى تحسين علاقته مع بيزنطة بعد أن تحسنت علاقة بوهند أمير أنطاكية بالامبراطور .

وترتب على هذا التقارب بين بوهمند الثالث والامبراطور البيزنطى ، أن تقرر تعيين بطريرك يونانى فى أنطاكية ظل يمارس واجباته حتى لقى مصرعه ١١٧٠ . وأفاد بوهمند من بيزنطة ، فى القضاء على كل مقاومة يتعرض لها من رعاياه[1] ، ولتوطيد أواصر الصداقة أرسل وليم الصورى إلى القسطنطينية لاختيار عروس بيزنطية لأملريك سنة ١١٦٥ عقب انفصاله عن زوجته أجنس ، وفعلا وصلت إلى صور الأميرة ابنة أخ الامبراطور مانويل ، بعد انتهاء الحملة الصليبية على مصر وكان برفقتها ألكسندر كونت ، وميخائيل أوترانتو ، مبعوثين من قبل الامبراطور مانويل كومنين من القسطنطينية[2] فجرى استقبالها بحفاوة زائدة واشترك فيها كل من كان حاضرا عند الملك . وشرح المبعوثان أسباب قدومهما ، وقدّما للملك رسالة من الامبراطور بهذا الشأن[3].

(١) Willian of Tyre : of . cit . Vol . I.I. P. 503-504.

(٢) Grousset : of . cit. II . P. 508.

(٣) Willian of Tyre : of . cit . Vol . I.I. P. 348

ومما جاء بهذه الـرسالة « إنه نظرًا لما أدركه الامبراطـور من أهمية مملكة مصر ، التى ظلت حتى وقتذاك منيعة الجانب ، بالغة الثراء ، غير أنها لم تلبث أن وقعت فى أيدى فئة ضعيفة مستكينة ، أحس الأقوام المجاورون ما كـان من ضعف وعجز حكامها وأمرائها ولما كان من المستحيل أن تظل هـذه البـلاد (مصر) على هذه الحالـة الراهنـة ، فلابد أن يقع فى أيـدى الأمم المجـاورة حكومتهـا وممتلكـاتها ، فإن الامبراطـــور يعتقـد أن بوسعـه أن يخضع فى سهولـة ويسر هذه البلاد لسلطـانه بفضل مـا يبذلـه الملك له من مساعدة »[1] .

ويقـول البعض : ولهذا القول وزنـه ، إذ أن ملك بيت المقـدس هو أول من بـادر بعرض هذا الأمر على الامبراطور ، بأن أوفد إليـه الرسل والرسائل التى يحثه فيها على أن يبذل له المساعدة بالجند والأسطـول والأموال اللازمة ، على أن يحصل الامبراطور مقابل ذلك على شطر من تلك المملكة (مصر) ومـا قد يقع من غنائم[2] ، وكان يهـدف إلى أن تستولى القـوات المتحالفـة على الدلتـا وأن تتظاهـر القـــوات البيزنطيـة البحـرية أمـام أنطـاكية والإسكنـدرية حتى يلتزم نـور الدين خطـة الحياد ولا يتـدخل فى شئون مصر[3] .

هـذه كانت طبيعـة المسألة التى جـاء من أجلهـا الرسـولان إلى الملك ، ولما لم يتم الاتفـاق نهائيا على شروط المعـاهدة بين الجانبين ، أرسـل الملك وليم الصورى مع وفـد القسطنطينية العائد إليهـا ، ويشير وليم الصورى إلى أن الرسل ، وهو معهـم ، قد التقوا بـالامبراطور : « واستقبلنـا الامبراطور بكل حفـاوة ، فعاملنـا بما اشتهر بـه من اللطف والكرم ، وعـرضنا عليه البـاعث على رحلتنا وسفارتنا ، وشرحنـا له بالتفصيل محتـويات المعاهـدة ، واستمع بارتيـاح إلى شرحنا وتقـديرنا وأقـر كل شىء »[4]. وبعـد أن أقسم الطرفان على ما جـاء بالمعاهدة ، صدَّق الامبراطور بما لـه من سلطة على التفاصيل وفقا للترتيب الذى وضعـه المندوبـون ، وأقر المعـاهدة « التى بمقتضـاها يقتسم الامبراطور

---

(١) Runciman : of . cit .Vol. II. I.P. 508.

(٢) Grousset: of . cit . Vol . I.I. P. 509.

(٣) Willian of Tyre : of . cit . Vol . I.I. P. 348.

(٤) Willian of Tyre : of . cit . Vol . I.I. P. 349.

والملك فتوحاتها فى مصر »[1]- وحصل بذلك الامبراطور على رسائل تزيد فى قوة نص المعاهـدة فى شكلها الأخير ، ثـم انصرفنا بعد أن أنعـم علينا بالهدايـا طبقا لما تقـرر من العادات والتقـاليد « وبـذا انتهت مهمتهم ، وشرعوا فى العـودة إلى بيت المقدس فى أول أكتوبر ١١٦٧[2] .

بمقتضى هـذا الاتفـاق كان على الجيشين البيـزنطى والصليبى أن يخرجـا بقيـادة أملريك لفتح مصر فى السنة التالية ، واتفقا على أن تكون القيادة لملك بيت المقدس وأن يطيعه القائد البيزنطى فى كـل ما يأمره به[3] ، ولكن حدث قبل أن يـرجع وليم الصورى حاملا شروط الاتفاق أن ارتحل أملريك إلى مصر لفتحها ، بحجة أن فرسانه أجبروه على المضى لفتحها ، ويشير ابن الأثير لذلك الخلاف بقوله: « ولقد شاور ملك الفرنج ذوى الرأى منهم فكـان منهم من أشار بقصـدها وملكها وقـال لهم : إنا لا نقصـدها ، فإنها طعمـة لنا وأمـوالها تساق إلينـا ، فنستقـوى بها على نور الـدين ، وإن نحن قصـدناهـا لنملكها ، فإن صاحبها وعساكره وعامة بـلاده وفلاحيها لا يسلمونها إلينا ، ويقاتلوننا ، ويحملهم الخوف منا على تسليمها إلى نور الدين ، فلم يصغوا إلى قوله ، وقالوا : إن مصر لا مانع لها ولا حـافظ ، وإلى أن يصل الخبر إلى نور الدين ، ويجهز العسـاكر ، يسير بهم إلينا نكون نحن قد ملكناها ، وفرغنا من أمـرها وحينئذ يتمنى نور الدين مِنَّا السلام فلا يقدر عليها »[4] ، وكانت الداويـة تمثل جانب المعارضة فى تلـك الحملة ، إذ رفضوا أن يشتركوا فى حرب مع مصر ، التى ارتبطـوا معها بالصداقـة ، وبرروا ذلك بأنها قد أوفت بشروط المعـاهـدة التى كـانت تنص على دفـع مـائة ألف دينـار وإبقـاء بعض قـواتِهم بالقاهرة[5] ، وكان الدافع الحقيقى لمعارضتهم ، ارتباطهم بعلاقات تجارية مع المسلمين والتجـار الإيطاليين ، بينما أصر الاسبتـارية ومقـدمهم جليبرت ومعظم البارونـات على

---

(١) Willian of Tyre : of . cit . Vol . I.I. P. 349.

(٢) Runciman : of . cit . Vol . I.I. P. 379 .

(٣) Grousset : of . cit . Tom. I.I. P. 511.

(٤) ابن الأثير : الباهر ص ١٣٧ ، الكامل ج ١١ ص ٢٢١ .

Gibbon (E.): Decline and fall of the roman Empire Vol. VI. P. 386 .

نشير إلى حملة ١١٦٧ التى استنجد فيهـا الخليفة العاضد بنور الدين واستنجـد شاور بالصليبيين ونتصر شيركـوه فى معركـة البابين وحـوصر صـلاح الدين فى الإسكنـدريـة وفى يونيـه ١١٦٧ تم الاتفاق على الجلاء وترك مصر لشاور على أن يبقى للفرنج شحنة بمصر ويدفع مائة ألف دينار.

(٥) أبو شامة: الروضتين ج ١ ص ١٤٣ .

الحرب ، للاستيلاء على مصر ، والاستفادة من خيراتها ، فتجهز أملريك للسفر وتذرع بامتناع شاور عن دفع الجزية ، فاستولى الصليبيون على بلبيس ونهبوها ، ووصل أسطول بحرى وهاجم تنيس واستمرت المذابح خمسة أيام ثم اتجهوا إلى القاهرة ، وظهروا أمام الفسطاط ، وأدرك شاور أنه لا يستطيع الدفاع عن القاهرة والفسطاط ، فأمر أهلها بالجلاء عنها ، وأشعل بها الحرائق التى استمرت ما يقرب من أربعة وخمسين يوما ، وهدد بأنه سوف يضرم النار فى القاهرة نفسها ، وسعى إلى التفاوض مع الفرنج إذ أنه لم يرغب فى تدخل نور الدين ، فعرض على الصليبيين مليون دينار مصرية فقبلوا ذلك العرض[1]، وكان الباعث لهم على القبول خوفهم من نور الدين .

لم يسع الكامل ابن شاور إلا الاستنجاد بنور الدين والاستعانة به ، فعرض عليه ثلث خراج البلاد وأن تكون إقطاعات العسكر خارجة عن الخراج[2] ، فلم يكن ابن شاور راضيا عن تصرف أبيه ، كما أرسل الخليفة العاضد عقب الحريق إلى نور الدين يستغيث به ويعرفه ضعف المسلمين عن الفرنج ، فقرر نور الدين إرسال أسد الدين شيركوه إلى مصر وحثه نور الدين على ذلك لتخوفه أن يمكلها الفرنج ويصبحوا مصدر تهديد له فى بلاد الشام ، فقال صلاح الدين : لو أعطيت ملك مصر ما سرت إليها ، فقد قاسيت بالإسكندرية من المشاق ما لا أنساه »[3] وحذر شاور أملريك من جيوش نور الدين ، فغادر أملريك القاهرة إلى بلبيس حيث طارده جيش شيركوه ووصل إلى القاهرة ولم يجد أملريك بدا من الانسحاب[4] واستقبل شيركوه استقبالا حافلا ، ولكن شاور الذى توجس خيفةً أخذ يماطل فيما وعد به العاضد من أموال وإقطاعات وسعى إلى التآمر عليه ، ولكن صلاح الدين تخلص من شاور وأيده الخليفة العاضد فى ذلك ، وتولى أسد الدين شيركوه الوزارة فى يناير سنة ١١٦٩ ، وأصبح صلاح الدين يباشر أمور الدولة ، وعندما توفى شيركوه فى مارس سنة ١١٦٩ تولى الوزارة بعده

---

(١) أبو شامة : الروضتين ج ١ ص ١٥٤ .

(٢) William of Tyre : of . cit . Vol . I.I.P . 357, 358 .

(٣) أبو شامة : الروضتين ج ١ ص ١٥٧ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٥٩ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص ١٢٧ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٢٢٣-٢٢٤ .

صلاح الدين بناء على رغبة الخليفة العاضد الذى أخذ بنصيحة مستشاريه الذين رأوا أنه ليس فى الجماعة أضعف ولا أصغر سنا من يوسف[1].

تجدد التحالف الصليبى البيزنطى :

شعر الصليبيون بالخطر الذى يتهددهم من سيطرة نور الدين على مصر وأدرك ذلك أملريك بعد انسحابه من مصر، واستقرار صلاح الدين بها، وترتب على ذلك حرمان الفرنج من موارد الثروة الضخمة التى كانوا يحصلون عليها من التجارة مع مصر، إلى جانب أنه قد أصبح بوسع نور الدين بفصل أُسطوله الضّخم الذى يرابط فى مصر، وأن يضيق الخناق على مملكة بيت المقدس، ويفرض الحصار على المدن الساحلية برا وبحرا، بجيوشه فى الشمال والجنوب، فضلا عن اعتراض طريق الحجاج القادمين إلى الأراضى المقدسة، أو منعهم من المرور نهائيا. وأثار هذا الأمر اهتمام وليم الصورى فقد كان على الفرنج أن يواجهوا أحوالا شديدة الاضطراب، وبالغة القلق، فما توافر بمصر من الموارد، والثروة الضخمة كان كفيلا بسدّ حاجاتهم، وكانت حدودهم من تلك الناحية من المملكة مأمونةالجانب، فلم يكن بالجنوب من الأعداء من يخيفهم، وهيأ البحر من الأمن والسلام والهدوء، ما يمنع من يحاول القدوم إليهم، وكان بوسع أقوامنا أن ينفذوا إلى الأراضى المصرية دون خوف أو وجل، فهيأت لهم الأحوال لممارسة التجارة والصناعة بها. وجلب المصريون إلى المملكة من المتاجر الأجنبية، والسلع الغربية ما لم يكن معروفا لهم حتى وقتذاك، وكلما قدموا إليها وكان ذلك ربحا عظيما، يضاف إلى ذلك أن ما أنفقه المصريون من الأموال الوافرة بينهم كل سنة، زاد فى حال البلاد وخزانتها فضلا عن ازدياد ثروة الأفراد[2].

غير أن كل شىء لم يلبث أن تغير إلى أسوأ، فكيف جرى هذا التغيير، يشير وليم الصورى إلى ذلك فيقول : « فأينما وجهت نظرى، لم أجد إلا دواعى الخوف والقلق، فلم يعد البحر من الهدوء والاطمئنان، ما يكفل السلامة والأمن، لمن يقصدنا، وكل ما يحيط بنا من البلاد، صار خاضعا لعدونا، وأخذت الممالك المجاورة تتجهز لتدميرنا والقضاء علينا، ولم يجلب هذه الكوارث لنا إلا رجل نهم شره، فما اشتهر به من النّهم،

---

(١) أبو شامة: الروضتين ج ١ ص ١٧٢ .

(٢) William of Tyre : op cit vol II . p . 357, 358 .

الذى يعتبر أصل الشرور ، أفسد ما نعمنا به من الهدوء والصفاء[1] ، وأخذ كل فريق من الفرنـج يُلْقِى المسئولية على الآخر »[2] ،وسعى الصليبيـون إلى العمل على إثـارة حملـة صليبية جديدة وكان أملريك قد أرسل سفارة برئاسة رئيس أساقفة قيسارية فى مستهل سنة ١١٦٩ برسالـة للامبراطور فردريك بربروسه ، ولويس السـابع ملك فرنسا وهنرى الثـانى ملك أنجلترا ، ووليم الثانى ملك صقليـة[3] ، وغيرهـم ، ولكنهـا عـادت بعـد يومين من سفرها بسبب العواصف ، فأرسل سفارة ثـانية يرأسها فردريك رئيس أساقفة صـور وصلت روما سنـة ١١٦٩م فأرسل معهم البـابا رسـالة لإقنـاعه ، ولم تحقق هـذه السفارة الغرض المنشود[4] .

قرر الصليبيون الاتجاه إلى القسطنطينيـة وكانت مساعيهم هناك أكثـر نجاحا ، إذ سعى الامبراطور مـانويل إلى تنفيذ المعـاهدة التى سبق أن عقدهـا مع وليم الصورى ، فقـدم أسطولـه ليعاون أملـريك فى فتح مصر[5] ، وكان الأسطـول بقيادة أنـدرونيكس وتألف من ٢٢٠ سفينة[6] ووصف المؤرخون الأوربيون هذه القـوة بأنها كانت « أرمادا » وكفلت للصليبيين التفوق البحـرى ، ولكن البيزنطيين اكتفوا بإعـداد مؤنة ثلاثـة أشهر اعتقادا منهم أن الحملة لن يطول أمدها ، وسار جزء من هذا الأسطول إلى قبرص حيث وقعت فى أسره سفينتـان مصريتان ، بينما سـار الجانب الأكبر إلى عكـا ، ونزل جـزء من الجيش ليصحب الجيش الصليبى فى المسير إلى مصر وتـأخـرت الحملـة مـا يقـرب من شهرين ، لتخوف أملـريك من نوايا البيزنطيين ، ولحرصه على عدم المغـامرة بحملة على مصر ، إلا بعد أن يـؤمن فلسطين من غارات نور الـدين فأبقى قوة من الفرسـان لحماية المملكة أثناء غيـابه لا سيما بعد أن تبينَّ له ما يقـوم به نور الدين من الاستعـداد للإغارة

(١) William of Tyre : op cit . Vol II . P. 357, 358 .

(٢) العرينى : الشرق الأوسط ج ١ ص ٧٠٧ .

(٣) أبو شـامة : الروضتين ج ١ ص ١٨١ ، ابن واصل : مفـرج الكروب ج١ ص ١٨١ وتشير المراجع الإسـلامية إلى « أن فـرنج الساحل لما ملك أسـد الـدين مصر قد خـافوا وأيقنـوا بالهلاك فكتبـوا للفرنج الذين بـالأندلس وصقلية يستنجدونهم ويعرفونهم مـا تجدد من ملك مصر وأنهم خائفون على بيت المقـدس وأرسلوا جماعة مـن القسوس والرهبـان يحرضون النـاس على الحركة فأمـدوهم بالمال والرجال .

(٤) أبو شامة : الروضتين ج ١ ص ١٨١ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٨١ .

(٥) Runciman : of cit . II . P . 384 .

(٦) Setton of . cit . II . P . 556 - 557 .

على الأطراف المتاخمة لدمشق[1] ، وفى منتصف سنة ١١٦٩ تحرك الجيش الصليبى البيزنطى من عسقلان ، بينما وصلت القوات البيزنطية والصليبية إلى الفرما ١١٦٩ وكان الأسطول البيزنطى قد وصل إلى الفرما قبل قدوم قوات الصليبيين ، واجتاز الجيش الفرع البلوزى على سفن بيزنطية ، حتى وصلوا إلى تنيس ، ومنها ساروا إلى دمياط[2] ، وكان صلاح الدين يعتقد أنهم سيهاجمون بلبيس فشحنها بالعساكر وعزّز حاميات القاهرة والإسكندرية . على حين أن الصليبيين والبيزنطيين حرصوا على أن يمنعوا الاتحاد بين مصر والشام ، فقدموا بقوات ضخمة ، وأعدوا الاحتلال البلاد خطة مدروسة ، بأن عزموا على أن يجعلوا من دمياط قاعدة بحرية[3] .

أرسل صلاح الدين إلى دمياط خاله شهاب الدين محمود وابن أخيه تقى الدين عمر فدخلاها قبل حصار الصليبيين[4] ، وأرسل إلى نور الدين يشكو إليه ما هو فيه من مخاوف وأنه إن تخلف عن دمياط ملكها الفرنج فضلا عن تخوفه من المصريين وخروجهم عن طاعته ، ولاسيما بعد أن دار من مفاوضات سرية بين أملريك ورجال الجيش الفاطمى[5] . فجهز إليه نور الدين عساكر ، وكلما تجهزت طائفة أرسلها إليه ، طائفة تلو طائفة ، وأغار هو على البلاد الصليبية ولم يتلقّ الأسطول البيزنطى أى معونة من الصليبيين[6] .

حاصر الصليبيون دمياط فى المنطقة الواقعة بين المدينة والبحر وانتظروا وصول الأسطول البيزنطى الذى تأخر بسبب الريح ثم ظهر بعد ثلاثة أيام ولكن منع رسوه سلسلة من الحديد أغلقت الميناء ، فارتاب الصليبيون فى نوايا البيزنطيين ، واعتقدوا أنهم يحرصون على الانفراد . بمصر ، وتراءى فشل الحملة ، بعد أن نفذت المؤن ، واشتد هطول المطر ، وهبوب العواصف ، وصبر المسلمون على مقاومة الحصار نحو خمسين يوما ، يضاف إلى ذلك ما وقع من الخلاف بين أملريك وقائد القوات البيزنطية ، وأدى

---

(١) Runciman : of . cit . II . .P. 385 .

(٢) William of Tyre : op . cit . Vol II. P. 562-563 .

(٣) Wiet (G.) L'Egypte Arabe . P. 301 .

(٤) أبو شامة : الروضتين ج ١ ص١٨٠ ، ابن واصل مفرج الكروب ج ١ ص ١٨١ .

(٥) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص ١٤٣ .

(٦) Lane - Poole (S.) : Salaclin . P. 103 .

إلى عدم تنسيق الأعمال فى البر والنهر .ولقد قاسى البيزنطيون من قسوة الجوع ولم يستطع الصليبيون على الشاطىء أن يمدوا لهم يَدا[1] ، مما أدى إلى يأس الصليبيين والبيزنطيين ، ولا سيما بعد أن فشلوا فى إجراء مفاوضات مع صلاح الدين ، وبعد أن تعرضت الممتلكات الصليبية بالشام لهجمات نور الدين ، فلم يسع القوتان المتحالفتان إلا الانسحاب فى ديسمبر سنة ١١٦٩[2] . بعد أن أحرقوا أدواتهم الحربية الثقيلة حتى لا تقع فى يد صلاح الدين ، ثم غادروا دمياط إلى عسقلان بينما أبحرت السفن البيزنطية صوب الشمال ، غير أن هبت عاصفة شديدة اعترضت طريقهم فتحطمت سفن كثيرة، ولقى عدد كبير من العساكر والبحارة البيزنطيين مصرعهم[3] .

وهكذا فشل التحالف البيزنطى الصليبى وأخذ كل من الفريقين يُوجه اللوم إلى الآخر ، ويتهمه بالتأخر فى المسير ، والقصور فى توفير المؤن للحملة ، ويقال: إن جماعة من المصريين حملوا إلى الامبراطور البيزنطى الهدايا وشروط الصلح ، حتى ينفرط عقد التحالف البيزنطى الصليبى[4] .

نور الدين والسلاجقة والبيزنطيون :

على أن الأوضاع السياسية فى العالم الإسلامى وفى الإمارات الصليبية والقوى المسيحية فى آسيا الصغرى وبيزنطة والغرب ، كان لها بالغ الأهمية فى توجيه الدبلوماسية الإسلامية ، والمسيحية ، بعد ارتداد الصليبيين والبيزنطيين عن دمياط سنة ١١٦٩ ، واستيلاء نور الدين على الموصل سنة ١١٧١ .

كان نور الدين حريصا على إذكاء روح الجهاد عند الأمراء المسلمين فى آسيا الصغرى ، ومن الدليل على ذلك ما حدث من نهوضه سنة ١١٧٣ لقتال قلج أرسلان سلطان قونية ، كما يلزمه بإمداده بما يحتاج إليه من القوات عند قتال الفرنج ، نظرا لأن

(١) Lane-Poole : op . cit . P. 105 .

(٢) Runciman : op . cit Vol . II . P. 387 .

(٣) William of Tyre op . cit . Vol II P. 320 .

Runciman : op . cit . vol II . P. 340 .

(٤) أبو شامة : الروضتين ج ١ ص ١٦٨ .

حبشى : نور الدين والصليبيون ص ١٤٠ .

السلطـان السلجـوقى يملك طـرفـا كبيرا من بـلاد الإسـلام ، وتـرك الـروم وجهـادهم وهادنهم[1] ، فكتب إليـه « إما أن تنْجدنـى بعسكـر لأقاتـل بهـم الفرنـج ، وإمـا أن تجاهـد من يجـاورك من الفرنـج »[2] . وتمت المصاهـرة بين الـزنكيين وأسـرة قلـج أرسلان ، يضاف إلى ذلك أنـه من دواعـى تحالـف الصليبيين مع بيزنطـة ، مـا وقـع من أحـداث فى قليقيـة وأرمينيا الصغرى ، التى تـولى أمرهـا سنـة ١١٦٨ روبين الثانى ، ونازعـه السلطان عمـه مليح الـذى لقى التشجيـع من نـور الـدين ، بأن اعتـبره من أتبـاعه وبـذل له إقطـاعا ، وأمـده بـالعساكـر ، فطـرد من حصـون قليقيـة وأذنـة وطرسوس ، والمصيصة العساكر البيزنطيـة والفرسـان الداوية[3] ، ويشـير ابن الأثير إلى أن مليـح كان يتقوى بنـور الـدين على من يجـاوره من الأرمـن والروم[4] ، وسـاق مليـح لنور الدين من مقدَّمـى الـروم ثلاثـين أسـيرا فسيرهم نـور الدين إلى الخليفـة المستضىء[5] .

حملت هـذه العوامل أملـريك على أن يتـوجه سنـة ١١٧١ إلى القسطنطينية بعـد عقده مؤتمرا للصليبيين فى الشام ، وكـان الهدف من الزيارة حث الامبراطور على ضرورة إخضاع مصر فتجـدد بذلك التحـالف بين الصليبيين والبيزنطيين[6] وتضمن الاتفـاق بينهما فيما يبـدو اعتراف أملـريك فى صورة غـامضـة بسيـادة الامبراطور مـانـويل على المسيحيين الـوطنيين فى مملكـة بيت المقـدس ولقـد أكد مـؤرخـا الإغـريق كينـا مـوس ونيكتاس التبعية[7] ، فى حين أن وليم الصـورى الذى أبـدى اهتمامـا بـزيارة أملـريك والشرف الذى أضفى عليـه لم يذكـر أى نوع من الـولاء ، وما كتبـه لا يدل على أن ملك

---

(١)

(٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٦٠-١٦١ .

ذهب قلج أرسلان بنفسه إلى القسطنطينيـة وقع معاهدة بمقتضاها وافق على أن يقدم مسـاعدته لبيزنطة وأن يقوم بإعادة بعض المدن البيزنطية التى استولى عليها .

(٣) Lane-Poole : of . cit . P. 120 .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ١٥٧ ، الباهر ص ١٦٠ .

(٥) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٥٩ .

(٦) Setton : of . cit. P. 550 -

(٧) Lamonte : Byrantine Empire and crusading states .

بيت المقدس كان تابعا ، بل يذكر أنه حليف قوى وأن الامبراطور يسعى للتحالف معه[1].

وعد مانويل ببذل مساعدة برية بحرية كما تم الاتفاق على اتخاذ إجراء مشترك لقتال مليح ورغم ذلك لم يحقق هذا التحالف نتائج مثمرة[2] ، إذ ثبت أن مانويل لم يقل كفاءة عن أبيه وجده ، ولم يختلف عنهما فى الحرص على مصالح بيزنطه الخاصة ، وفى التماس الوسائل التى تحقق غرضه ولو لم تلائم مصالح الصليبيين[3] . وكان من أثر ذلك أن حاول أملريك تأديب مليح ، بأن أرسل العساكر إلى قليقية ، غير أن نور الدين أجبره على العدول عن قتال مليح ، بأن هاجم الكرك[4] .

أما مشروع الحملة المشتركة على مصر ، فلم يتحقق ، فما وقع من الأحداث وراء حدود بيزنطة وبيت المقدس ، أدى إلى إرجاء سير الحملة بعد أن سعى أملريك إلى التماس مساعدةالغرب فى سنة ١١٧٣[5] ، وإن كان قد أدى التحالف إلى منع أنطاكية من الوقوع فى أيدى المسلمين لعجز السلاجقة بآسيا الصغرى عن الانحياز لنور الدين، ولم يلبث التحالف أن انفض بوفاة أملريك سنة ١١٧٤[6] .

سقوط الخلافة الفاطمية :

كان من دوافع اتجاه نور الدين إلى مصر القضاء على الخلافة الفاطمية وإدخال مصر فى المذهب السنى ، وحثه الخليفةعلى ذلك ، فأرسل نور الدين إلى صلاح الدين يأمره بقطع الخطبة للخليفة الفاطمى ، وإقامة الخطبة للخليفة العباسى ، فاعتذر صلاح الدين خوفا من ثورة أهل مصر وامتناعهم عن ذلك لميلهم للعلويين[7] ، فأرسل إليه يلزمه بذلك إلزاما. وكان العاضد قد انتابه المرض ولم يعلم بأمر قطع الخطبة ، ثم ما لبث أن توفى سنة ١١٧١ ، وبعد وفاته انتهت الدولة الفاطمية . وأصبح صلاح الدين يتولى تدبير الأمور فى مصر نائبا عن نور الدين ، على أن العلاقة بين صلاح الدين

---

(١) Lamente : Byzantion 1932 tom vii p. 262 .

(٢) Lamente : of cit Tome VIE p 262.

(٣) Runciman : of . cit II. p. 391 .

(٤) Setton : of . cit . I. p. 560 .

(٥) William of Tyre : II. p . 386.

(٦) Setton : of . cit . I. p. 560.
Runciman : of cit . II . p . 393.

(٧) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٣٣٣ ، ابن شداد ، النوادر السلطانية ص ٢٦٣ .

ونـور الـدين أخـذت تـزداد تأزما ، وبـات كل يشـك فى نـوايـا الآخـر . إذ اختلفت وجهـات نظـر كل منهما تجـاه مـصر . فنور الدين يـرى أن الميـدان للجهـاد فى الشـام، أما مصر فيقصر دورها على الإمـداد بالمال والرجال ، على حين أن صلاح الدين رأى أن مصر هى الميـدان الحقيقـى ، وكان رأيـه بنـاء عن محاولات الصليبيين للاستيـلاء على مصر ومن حملـة دميـاط وبها وقف عليـه ، فيما يبـدو من المفاوضـات بين أملـريك والامبراطور البيزنطى[1] فأراد أن يستخلص مصر لنفسـه ولأسرتـه حتى يستطيـع أن يضطلع بأعبـاء الجهـاد . وظـن نور الـدين أمـره على قصـد مـصر ، وعـزل صـلاح الدين، ولكنه تـوفى سنة ١١٧٤م قبـل أن تخـرج فكرته إلى حيز التنفيـذ ، فاستتب الأمر لصلاح الدين فى مصر[2].

بدأت فى تلك الفترة تتغير سياسـة بيزنطة تجاه الصليبيين ومصر ، وتجلى تغير هذه السياسة فى المؤامرة التى تعرض لها صلاح الدين فى بداية حكمه فقد راسل الشيعة سنة ١١٧٤م ، الحشيشية والصليبيين وانضم إليهم ملك صقلية ، واتفقـوا على غزو مصر برا وبحرا ، فيتولى الصليبيـون الهجوم من البر ويقوم ملك صقلية بـالإغارة على الشواطىء المصرية ، فى حين يقوم أنصار الفاطميين بإعلان الثورة فى القاهرة ، ولكن صلاح الدين علم بتفـاصيل المؤامرة قبل تنفيـذها وقضـى على جميع أفرادهـا فى مصر فى أبريل سنـة ١١٧٤م[3] وبعـد حوالى شهـرين تـوفى أملريك ولم يحرك الصليبيـون سـاكنا لما حـدث للمتآمرين فى مصر ، وطرحوا هذا الموضوع جـانبا . أما حاكم صقلية فقد وافق على هذه المؤامرة ، وفعلا وصل الأسطول إلى الإسكندرية[4] ، وكان صلاح الدين على علم بأمره ، إذ أرسل الامبراطـور البيزنطى قبل وصـول الأسطول تحذيرا لصـلاح الدين عـن هجوم سيقوم بـه الأسطول الصقلى[5] ، نظـرا لما وقع من الخلاف بين مـا نـويل وملك صقليـة الـذى رفض كل مساعـدة من قبل الامبراطـور البيزنطى وأراد أن يثبت أنـه يستطيع أن

---

(١) Stevenson : of . cit . PP. 106 - 107.
Setton: of cit . I . P . 565 .

(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٢٤٢ .

(٣) Lane- Poole : of . cit . P. 120.
Stevenson : of . cit . P. 203 .
Setton : of . cit . II. p. 565.

(٤) Runciman : of . cit . II. P. 403.

(٥)

يحقق من النجاح ما لم يتأتَّ للبيزنطيين إحرازه[1] ، وردد صلاح الدين ما حدث فى رسالته إلى أمراء الشام يشرح ضخامة الأسطول الصقلى ، « فأمرُ ذلك الأسطول كان قد اشتد وروَّع عبد المؤمن فى البلاد المغربية وهدد به فى الجزائر ، فشوهد فى الثغر من وفور عدته وعظيم الهمة وفرط الاستكثار[2] ، ورغم ضخامة الأسطول فقد قاوم أهل الإسكندرية الحصار ببسالة حتى قدم صلاح الدين بجيوشه لمواجهتهم ، وتوالت الإمدادات عليهم . وكان لقدوم صلاح الدين أثر كبير فى رفع الروح المعنوية للشعب المقاتل وانتهى الأمر بهزيمة الأسطول الصقلى ، وفشل الحملة[3] .

ويتضح من حوادث هذه الحملة أن بيزنطة تخلت عن سياستها التقليدية وهى العداء السافر لمصر الذى استمر طوال فترة حكم مانويل كومنين . والواقع أنه برغم أمل بيزنطة فى امتلاك مصر لم تود أن يكون الفضل فى الاستيلاء عليها لصقلية وحاكمها، يضاف إلى ذلك ما حدث من تفكك التحالف اللاتينى البيزنطى[4] .

كان صلاح الدين على علم بأساليب الدبلوماسية ومناوراتها ، ففى رسالته إلى الخليفة العباسى ينوِّه بموقف بيزنطة وقوتها وموقفها من الحملة الصقلية فاعتبرها أكبر قوة مسيحية ذات سلطة على الممالك اللاتينية فى الشرق « فأما الأعداء المحدقون بهذه البلاد والكفار الذين يقاتلوننا بالممالك العظام والعزائم أشداء ، فمنهم صاحب قسطنطينية وهو الطاغية الأكبر والجالوت الأكفر وصاحب المملكة التى أكلت على الدهور وشربت ، وقائم النصرانية الذى حكمت دولته على ممالكها وغلبت ، جرت لنا معه غزوات بحرية ومناقلات ظاهرة وسرية ، ولم نخرج من مصر إلى أن وصلتنا رسله فى جمعة واحدة نوبتين بكتابين كل واحد منهما يظهر فيه خفض الجناح وإلقاء السلاح والانتقال من معاداة إلى مهاداة ومن مفاضحة إلى مناصحة حتى إنه أنذر بصاحب صقلية أساطيله التى تردد ذكرها وعساكره التى لم يخفَ أمرها »[5] .

---

(١) رفض حاكم صقلية التحالف مع بيزنطة والزواج من ماريا ابنة الامبراطور .
Runciman : of . cit . vol. II . P. 403.
(٢) أبو شامة : الروضتين ج ١ ص ٢٣٤ ، ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص ١٠٧ .
(٣) Grousset : of . cit . tome II . P. 617
(٤) Setton : of . cit . vol. II . P. 122.
(٥) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ٢٢ ص ٢٤٣ .

الأوضاع فى العالم العربى بعد وفاة نور الدين وبلدوين :

ترتب على وفاة كل من نور الدين وأملريك أن تعرض الشرق الأوسط لوضع جديد ، فإذا نظرنا إلى الجانب الصليبى : خلف أملريك ابنه بلدوين الرابع سنة ١١٧٤ الذى كان فى الثانية عشرة ، وكان أبرص ضعيف البنية وتولى الوصاية ميلون دى بلانسى ، ولكن لم يلبث أن لقى مصرعه ، وعين ريموند كونت طرابلس وصيا على المملكة لمدة ثلاث سنوات . أصبح وليم الصورى رئيس أساقفة ثم تولى الوساطة بين الصليبيين وبيزنطة على أن المملكة تعرضت للشقاق[١] بسبب وجود حزبين تألف أحدهما من البارونات والآخر من القادمين حديثًا من الغرب[٢] .

أما الجانب الإسلامى فيتمثل فيما حدث بعد وفاة نور الدين من منازعات حول ولاية الحكم إذ أن نور الدين ترك طفلا فى الحادية عشرة هو الملك الصالح إسماعيل فتشاحن أمراء نور الدين فى السيطرة على الأمير الطفل وعلى الوصاية على المملكة[٣] وسعى إلى ذلك ابن المقدم وابن الداية ورأى شمس الدين (ابن المقدم) استشارة صلاح الدين بوصفه سيدا على أغنى إمارات المملكة وهى مصر ، فرفض الآخرون هذا الرأى وخافوا أن يدخل صلاح الدين ويخرجوا[٤] ، ومع ذلك فقد اعترف صلاح الدين بسلطنة الملك الطفل وذكر اسمه فى الخطبة وضرب السكة باسمه ، واغتنم سيف الدين غازى أتابك الموصل تلك الفرصة واقتطع أجزاء من مملكة نور الدين ، فملك الديار الجزرية ، ورأى صلاح الدين أنه أحق الأمراء بالوصاية على الملك الطفل وخاصة بعد أن عقد ابن المقدم هدنة مع الفرنج ، وأرسل صلاح الدين إليهم يعلن حقه فى الوصاية على ابن نور الدين ، وكاتبه جماعة من الأمراء للقدوم إلى الشام ، كما أرسل صلاح الدين إليهم خطابا يقول فيه : « لو أن نور الدين يعلم أن فيكم من يقوم مقامى أو يثق إليه مثل ثقته إلىّ لسلم إليه مصر التى هى أعظم ممالكه وولاياتها ، ولو لم يعجل عليه الموت لم يعهد إلى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته غيرى »[٥] وكان الصالح وقتذاك فى دمشق، فأرسل إليه ابن الداية سعد الدين كمشتكين لإحضاره إلى حلب . ولم يلبث كمشتكين

---

(١) Grounet : of . cit . tome II. P. 611, 612 .

(٢)

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ١٦٤ .

(٤) أبو شامة : الروضتين ج ١ ص ٢٣٦ .

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٢٧ .

أن قبض على ابن الداية وتولى الوصاية على الصالح . فأرسل ابن المقدم إلى صلاح الدين يطلب اليه القدوم إلى دمشق فوافق ذلك الطلب هواه ، وتوجه إلى دمشق فى ٢٧ نوفمبر ١١٧٤ حيث استقبله أهلها ورحبوا به على أن صلاح الدين أبقى الخطبة والسكة للصالح وأعلن أنه ما قدم إلا لتربية الصالح إسماعيل ، ثم استولى على حمص واتجه إلى حلب وحاصرها ، فاستنجد أمراؤها بالإسماعيلية والصليبيين وأمير الموصل واستولى صلاح الدين على حمص وحماه فى ديسمبر ١١٧٤ . ثم استولى على بعلبك [١] ، وشعر صلاح الدين بأن تلك المنازعات تهدد الجبهة الإسلامية وتعرض البلاد لخطر الفرنج ، وأن خلفاء نور الدين لن يستطيعوا المضى فى الجهاد بل إنهم سوف يعرقلون جهوده ، ويمنعونه من التفرغ لحركة الجهاد كما أن بقاءه بمصر لن يهيىء له الفرصة لمناوأة الصليبيين [٢] . فأرسل إلى الخليفة فى بغداد يطلب منه تقليدا جامعا بمصر والشام والمغرب واليمن .

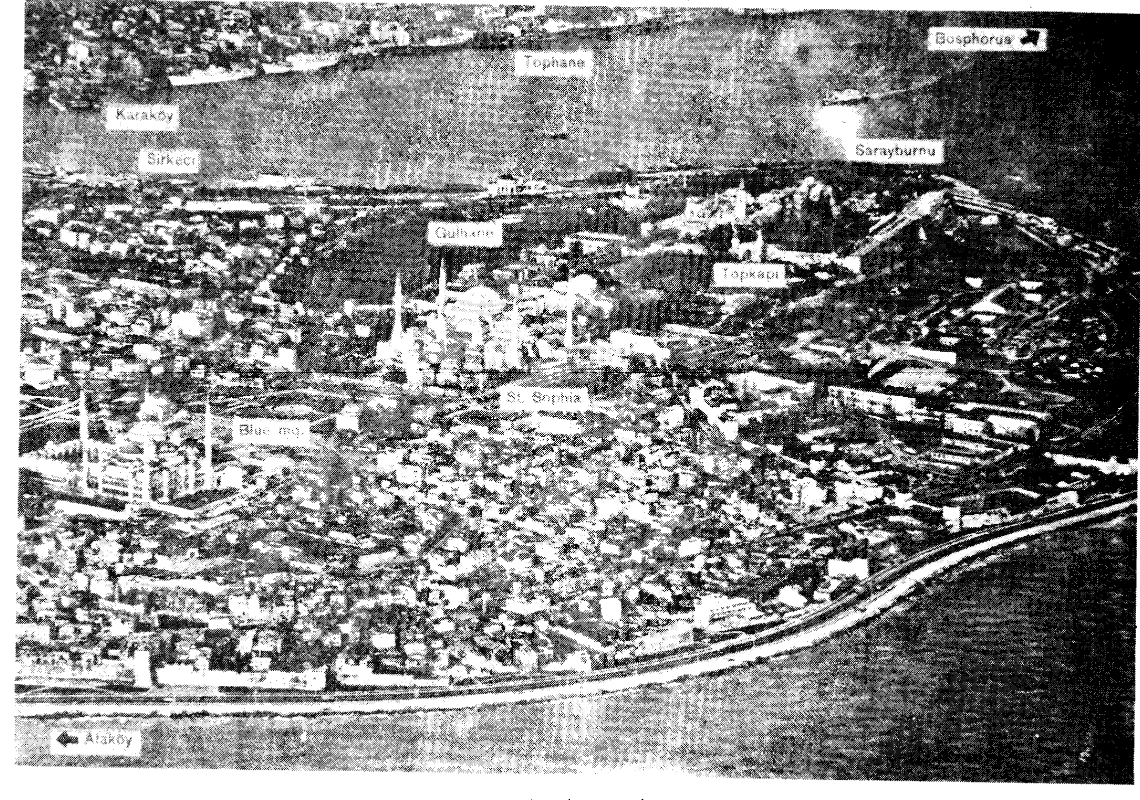
واجتمعت عساكر الموصل وحلب لقتال صلاح الدين . ثم راسلوه فى أمر الصلح على أن يرد جميع ما استولى عليه ويحتفظ بدمشق ويكون نائبا عن الصالح إسماعيل ، فوافق ، ولكنهم غالوا فى مطالبهم فرفضها ، والتقت الجيوش فى قرون حماه سنة ١١٧٥ وانتصر صلاح الدين ثم استولى على حلب وقطع الخطبة والسكة عن الصالح ، واتخذ لقب ملك مصر والشام ، وتم الصلح على أن يحتفظ صلاح الدين بما استولى عليه من البلاد ، واستزاد منهم المعرة وكفر طاب ، على أن يجتمعوا لقتال الصليبيين ، وفى سنة ١١٧٥ قدمت رسل الخليفة بتقليد الولايات التى طلبها صلاح الدين [٣] .

---

(١) Lane-Poole : of . cit . P. 137 .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ١٦٤ أبو شامة ج ١ ص ٢٤٣ .
Setton : of . cit . I. P . 122 .

(٣) أبو شامة : الروضتين ج ١ ص ٢٤٤ .



القسطنطينية

بيزنطة والسلاجقة :

تعتبر دولة سلاجقة الروم حلقة اتصال بين البيزنطيين والأيوبيين ، نظرا لما يربطها بالجانبين من الحدود والمصالح المشتركة ، وإذا كان قلج أرسلان الثانى (١١١٥-١١٩٢م) منعه الخوف من نور الدين من التدخل فى شئون الدانشمنديين ، فإن وفاة نور الدين أتاحت له الفرصة للتدخل وهو آمن فى أمور الدانشمنديين والاعتداء على ممتلكات بيزنطة ، وشجع قلج أرسلان على ذلك عدة أمور منها : انصراف الامبراطور البيزنطى مانويل إلى الاهتمام بالأمور السياسة فى أوربا ، ومنها النزاع مع الامبراطور فردريك بربروسة ، والعلاقات مع المجرود الماشيا ومحاولة الامبراطور البيزنطى التقرب من البابا إسكندر الثالث عن طريق إقامة علاقات طيبة إذ كتب إليه يقول : « إن الوقت قد حان لإرسال حملة صليبية جديدة لتأمين طريق آسيا الصغرى إلى الأراضى المقدسة » [1] . هذا بالرغم من عدم الثقة فى نوايا بيزنطة وسياستها فى الغرب وتبادل اللاتين والبزنطيين هذه الكراهية[2].

ازدادت أوضاع مانويل وموقف بيزنطة سوءا نظرا لمعارضة ملك صقلية للسياسة البيزنطية التى ترمى إلى أن تظفر بيزنطة بمكانة فى إيطاليا . والتمس مانويل كل الوسائل لتحقيق هذا الغرض ، فحاول أن يزوج ابنته مارى من وليم الثانى (ملك صقلية) ، غير أن فردريك بربروسه أحبط هذا المشروع ، وما نشب من الصراع بين مانويل والبندقية ، وما ترتب على ذلك من انقطاع العلاقات الدبلوماسية والقبض على البنادقة فى الأملاك البيزنطية ، ومصادرة متاجرهم ، حمل البندقية على أن تتحالف مع وليم الثانى ملك صقلية وأن تثير الصعاب فى وجه مانويل[3] ، واستطاع مانويل أن يفرض سلطانه على بلاد المجر التى حكمها ملك موال له ودانت لبيزنطة دالماشيا[4] ، وعمد فردريك بربروسه مرة أخرى ، إلى إثارة المتاعب فى وجهه بأن شجع سلطان قونية قلج أرسلان على الثورة على بيزنطة ، فحرض قلج أرسلان سنة ١١٧٥ على التوسع فى آسيا الصغرى بينما قام مانويل فى عام ١١٧٦ بإعداد حملتين إحداهما قادها بنفسه والأخرى عهد بقيادتها إلى أحد أقربائه وهو Andronicus Vatatses وكان الهدف من جيش أندرو نيقوس هو إعادة ذنون السلجوقى إلى ممتلكاته . ولما سمع قلج أرسلان

---

(١) Runciman : of . cit . vol . II. P. 474

(٢) انظر ما ذكره المؤرخ اليونانى . Nictetas Choniates : ostrogorsky of . cit P. 346 .

(٣) Camb. Med . Hist. vol. IV. p 370, 371 .

(٤) Camb. Med . Hist. IV. P. 346 .

بذلك ، طلب السلام والتفاوض[1] ، ولكن مانويل رفض الاستجابة له ، على أن حملة أندرونيقوس تعرضت لهزيمة ساحقة وقتل قائدها وأرسل رأسه إلى السلطان ، أما الامبراطور فقاد جيوشه عبر ممرات فريجيا الجبلية ، ونصح بعض القادة الخبراء فى الأمور العسكرية مانويل بألا يقود جميع جيشه خلال الممرات[2] ، ولكن حماس القادة الشبان ، حمله على اتباع رأيهم ،بعد أن أقنعوه بالهجوم أما السلطان قلج أرسلان الثانى فحشد جيشا لا يقل عن جيش مانويل من حيث العدد فضلا عن مهارة الجند وحماسهم، وفى ١٧ سبتمبر سنة ١١٧٦ سار الجيش البيزنطى خلال الممر فأحاط بهم الترك من جميع الجهات عند ميريوكيفالون Myriocepholun وسدوا جميع المنافذ وأبادوا مقدمة الجيش وقتلوا أمير أنطاكية بلدوين ثم حاقت الهزيمة ببقية الجيش وألقى السلاجقة برأس القائد Vatatses أمام بقية الجيش وفر الامبراطور بعد أن خانته شجاعته وحاول من تبقى من الجيش أن يتبعه، ولكن لم يحظ بذلك إلا عدد قليل نظرا لأن الترك سدوا جميع المنافذ ولم يسمحوا لهم بالفرار[3] ، وحدثت مذبحة هائلة للبيزنطيين ، ثم أنفذ قلج أرسلان رسولا يعرض الصلح على الامبراطور[4] الذى كان يجمع فلول جيشه فى السهل فى مقابل أن يعيد إليه قلعتى Sublaeum. dorybaeum ديرلبوم سوبليوم بعد نزع سلاحها فبادر الامبراطور إلى قبول العرض . ولم يدرك قلج أرسلان أهمية انتصاره ، ولعل ذلك راجع إلى أنه ركز كل اهتمامه فى الجهة الشرقية ، إذ أن كل ما كان يريده هو تأمين حدوده فقط . أما مانويل فإن ما حاق به من هزيمة تضارع فى الأهمية ما حل بالبيزنطيين من الهزيمة فى معركة ما نزكرت ، وضاعف فى مرارة هذه الهزيمة فشل سياسة مانويل فى الغرب ، إذ أرسل إليه الامبراطور فردريك بربروسه كتابا يطلب منه أن يدخل فى طاعته[5] .

وترجع أهمية هذه الحادثة إلى النتائج التى ترتب عليها سواء من الجانب الإسلامى أو البيزنطى وارتباطها بما حدث من تغير الأوضاع بعد وفاة نور الدين ، ووفاة أملريك ، ونهوض صلاح الدين فالجيش الضخم الذى حرص كل من الكسيوس الأول ويوحنا على إعداده وتدريبه تحطم ، وكان لزاما على مانويل أن يقضى سنوات عديدة فى إعداده

---

(١) Camb. Med . Hist. vol. IV. P. 377 .

(٢) Runciman : of . cit . vol II. p . 412 .

(٣) Diehl (C) : Hist . of the Byzantine Empire P. 119 .

(٤) Runciman : of . cit . vol . II. p. 413 .

(٥) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ١٦٧ ، أبو شامة : الروضتين ج ١ ص ٢٧٥ .

من جديد . ولما كـان كل ما أنشأه لا يتجاوز ما هو مطلوب للـدفاع عن الحدود فتعذر على الامبراطور المضى إلى سـوريا ، وفرض سيطرتـه على أنطاكية أو الولايـات اللاتينية الشرقية[1] ، وأدرك اللاتين آخر الأمر ، بأن لبقاء بيزنطة أهمية فى المحافظة على أملاكهم ضد أخطار المسلمين . فالخوف من الامبراطور هـو الذى منع نور الدين من أن يمضى بعيدا فى فتوحه وفى مهاجمة المسيحيين .

فهزيمة ميريوكيفالون سنة ١١٧٦ كانـت بالغة الأهمية عند اللاتين بعد أن أدركوا أهميـة بيزنطـة لهم فى الشرق وشعروا بأن وجـود بيزنطـة منهم بالنسبـة لهم لمواجهة قـوى الإسلام النامية إذ كانت بيزنطة حليفـا مسيحيا قويا يعتمد عليه ، على حين أن الزنكيين فى الشام ، الـذين تنازعوا الـوصاية على الصـالح إسماعيل لم يشعروا بمـدى أهمية تلك المعركة بـالنسبة لمستقبل اللاتين فى الشرق[2] ، وكان صـلاح الديـن منصرفا إلى تـوطيد سلطانـه فى مصر والشام . ولم يلبث أن أحس الـلاتين بالخطر المبـاشر بعد أن زار وليم الصورى القسطنطينية ، بعد ثلاثة أعوام من تجديد التحالف ضد مصر .

بيزنطة وصلاح الدين :

ازدادت الأحوال فى بلاد الشام سوءا بينما قـوى أمر صلاح الدين واقتصرت جهود صـلاح الدين فى الفترة السـابقةعلى قيـام الدولـة الأيوبيـة إلى سنة ١١٧٨ على منـاوءة الـزنكيين ، والحشيشة ، ثم رد الهجـوم الصليبى على الـدوة الأيـوبية فى مصر والشـام ، وإعـادة تنظيم قياداتـه الحربية فى الشمال . شعـر الصليبيون بمـدى الخطر الـذى يحيق بممتلكاتهم فى الشـام ، من سيطرة صـلاح الدين على مصر والشـام ، ومن الدليل على ذلك عبارة وليم الصورى « أن كل ازدياد فى قوة صلاح الدين ، يثير فينا الخوف والرعب لأنه كان رجلا حكيما إذ أشار مقـداما فى الحرب ، إذا نهض لها ، بالغ السخاء إذا عفى، ومن الخير أن نبذل المساعـدة للملك الطفل لا مراعاة لصالحه ، بل لتشجيعـه باعتباره عدوا لصلاح الدين »[3].

ونتيجة للأحداث فى الشام التى تلت وفـاة أملريك وتولى بلدوين الرابع ، وأصبح ريمـونـد الثالـث كونت طـرابلس قيما على الملك الصغير بلـدوين الـرابع ، وأن تنـازع السلطة أثنـاء فترة وصاية حزبـان تألف أحدهما من البارونات المحليين والاسبتبـارية ، يـؤيد ريمـوند ويسعـى للتفاهم مع جيرانـه ، أمـا الحزب الآخر فيتألف من القـادمين

---

(١) Runciman : of . cit . vol II . p . 414 . Cohen : of . cit . p 417 .

(٢) Ostrogorsky : of . cit . p . 374 .

(٣) Willian of Tyre : of . cit . II p . 415 .

حديثـا من الغـرب ، ومن الداوية ، وممن اشتهروا بنزعتهم العدوانيـة وتزعم هذا الحزب ريجنالد شانتون [1]. وفى سنة ١١٧٧ بلغ بلـدوين الرابع سـن الرشد واستقل بـالملك ، ولإصـابته بـالبرص كـان يعلم أنه لن يعيش طـويـلا ، فكان عليـه أن يبحث عن زوج لـلأميرة شقيقته سبيـلا ، وأرسل إلى وليم مونتفـرات يعرض عليـه الزواج من أختـه وتم الزواج فعلا ، ولكن ما لبث مونتفرات أن تـوفى سنة ١١٧٧ ، وبعد وفاته وضعت طفلا واختير ريجنالد دى شاتيون نائبا للملك [2] . ولما أرسل بلدوين الـرابع سفارة للحصول على زوج لأخته كان من أهداف السفارة أيضا الدعوة لحملة صليبية جديدة .

وكان يعتقد أن البيزنطيين ليسوا بالقادرين على تقـديم مساعدات فعلية كما كانوا يفعلون من قبل نتيجة لهزيمة ميريـوكيفالون لوقوع النزاع بينهم وبين فـردريك بربروسه والمجر والنورمان ممـا دفع مانويل إلى التماس مساعدة البابـا الذى رحب بإزالة الحواجز بين الكنيستين، ولكن اشترط مانويل أن يضع البابا التاج على رأسه ، ولكن الأكليروس الشرقى تردد فامتنع البابا [3] ، وبازدياد قوة صـلاح الدين سنة ١١٧٧ م قدمت إلى بيت المقدس سفارة من القسطنطينية تلح فى تنفيذ التحالف الذى سبق إبرامه من أجل فتح مصر فإذا كان الجيش البيزنطى قد انهار نتيجة لمعركة ميريوكيفالون فإن الأسطول مازال من القوة ما يكفى للتـدخل ، ولكن الملك بلدوين كان قد اشتد بـه المرض وقتذاك عند قدوم حملـة من الغرب ، وأشيع أن الملك لويس السـابع وهنرى الثانى قـادمان ، ولكن الذى قدم بالفعل كـان فيليب فلاندر [4] وكان الـلاتين يأملون من وراء قـدومه تحقيق أغراض كثيرة وإذ اشتدت علة الملك ، كان فى حاجـة ماسة إلى من يقوم بأعباء الحكم. ولذا رحب كبار رجـال الدولة بقدوم فيليب فلاندر وعـرض الملك عليه أن يتقلد حكم المملكة وإدارة أمـورها والقيـام بالـوصاية على المملكـة والدفـاع عنها فى حـالة الحرب والسلام [5] .

ووصلت أخبار حملـة بيزنطـة ، فوصل أسطـول بيزنطى مؤلـف من سبعين سفينة وجنود مدربين وسـلاح ، وهذه الحملة هى التى كان مقررا إرسالها وفقـا للمعاهدة التى

(١) العرينى : الشرق الأوسط ج ١ ص ٧٦٣ .

(٢) William of Tyre : of . cit . II. p . 415, 417.

Runicman : of . cit II P .414 .

(٣) Camb : Med . Hist vol IV. p. 370 .

(٤) Runciman : of . cit . II. P. 414 .

(٥) William of Tyre : vol of . cit . vol II. p. 417 .

عقدها أملريك ، فأرسل مانويل إلى بلدوين الرابع ، يعلن التزامه بما بذله من وعود ، وأشار مبعوثو الامبراطور إلى أن الأحوال مواتية لمهاجمة مصر سنة ١١٧٧م لما يصادفه صلاح الدين من العداء فى حلب من قبل الزنكيين ، ولما يلقاه من الكراهية فى مصر من قبل أنصار الفاطميين ، فإذا أسهم فيليب كونت فلاندر ، ازداد الأمل فى القضاء على صلاح الدين .

وطلب بلدوين من فيليب الاشتراك مع بيزنطة فى مهاجمة مصر ، فاعتذر ، وقال: إنه جاء ليقوم بزيارة الأماكن المقدسة ولا يلزم نفسه بالاضطلاع بأى مسئولية[١] . وإنه سوف يعود للبلاد متى اقتضت الأحوال ، ورفض ما عرض عليه الملك من أن ريجنالد دى شاتيون سيشاركه فى قيادة الحملة وأن أسطول بيزنطة سيعاونه ورأى أنه لا يوجد ما يبرر إجباره على التعاون مع البيزنطيين ، ثم كشف عن نواياه حين أبدى اعتراضه على عدم استشارته فى موضوع زواج سبيلا[٢] على الرغم من قرابته الوثيقة بها ، وأدرك البارونات ما يضمره الكونت من رغبة ترمى إلى نزع المِلك من المُلك . على أنه أعلن صراحة أنه لم يأت لبحث أمر الزواج من إحدى الأميرتين إيزابيلا أو سبيلا ، ومع ذلك حرص اللاتين على المحافظة على المعاهدة المعقودة مع بيزنطة والإفادة من المساعدة التى عرضتها[٣] .

وبفشل الحملة عاد فيليب فلاندر دون أن يؤدى عملا هاما ، ولم يغتنم الصليبيون الفرصة التى هيأتها لهم بيزنطة بقواتها وأسطولها ولا سيما أن صلاح الدين كان منصرفا وقتذاك لتدبير أحوال مصر ، وفى سنة ١١٧٨م توجه وليم الصورى لحضور مجمع اللاتيران فاستقبله البابا إسكندر الثالث استقبالا حسنا . ومن المعروف أن إسكندر الثالث كان على علاقة طيبة بالامبراطور البيزنطى مانويل نظرا لكراهيتهما للامبراطور الألمانى فردريك بربروسه ، وأرسل البابا وليم الصورى فى سفارة إلى بلاط القسطنطينية حيث دارت محادثات تمهيدية لتوحيد الكنيستين البيزنطية والرومانية الغربية[٤] ، وهذا المشروع عطل وليم الصورى عن الذهاب لبيت المقدس ، ولم يعتبر وليم الصورى نفسه غريبا فى القسطنطينية ، إذ رحب به الامبراطور ومكث ما يقرب من سبعة أشهر بها ،

(١) William of Tyre of . cit . II. P. 417 .

(٢) Runciman : of . cit . II. P. 415 .

(٣) Runciman : of . cit . Vol . II. P. 415 .

(٤) William of Tyre : of . cit . Vol . II . p. 417 .

شهد أثناءها خطبة ابن الامبراطور لابنة لويس السابع ملك فرنسا كما حضر زواج ابنة لامبراطور مانويل من كنراد شقيق وليم مونتفيرات، وعهد الامبراطور البيزنطى إلى وليم بالقيام بسفارة لأنطاكية. وتحدث الامبراطور معه بشأن تجديد التحالف مع اللاتين لمناوءة مصر. ولكن هذا المشروع لم يخرج إلى حيز التنفيذ[١].

أدرك صلاح الدين ما حدث من تداعى التحالف اللاتينى والبيزنطى، وازدادت الأحوال سوءا عند الصليبيين، فما حدث من تدهور أحوال المملكة، وسوء حالة الملك الصحية، حملا الملك على أن يسعى إلى أن تتزوج أخته سبيلا من جاى لوزجنان[٢]، أما أنطاكية فقد سادها الشقاق والنزاع بسبب تعدد زيجات بوهمند الثالث بينما توالت انتصارات صلاح الدين، وتدعم مركزه فى مصر والشام، وهاجم الصليبيين فى بانياس و انتصر عليهم فى معركة مرج عيون، كما استخدم الأسطول فى مهاجمة عكا، وأخطر بلدوين لعقد هدنة سنة ١١٨٠ لمدةعامين[٣] وفى تلك الأثناء توفى أهم نصير وحليف للفرنج هو مانويل امبراطور الدولة البيزنطية.

تغير سياسة بيزنطة تجاه الصليبيين بعد مانويل:

سار مانويل على سياسة كل من الكسيوس ويوحنا فى بذل المساعدة للفرنج بما لا يتعارض مع مصلحة الامبراطورية، فضلا عن طموحه لخدمة المسيحية الذى دفعه إلى مغامرات ليس فى وسع الامبراطورية أن تتحمل نفقاتها، فما كان يرسله من جيوش إلى هنغاريا وإيطاليا، كان فى أشد الحاجة إليها فى الأناضول، كما أن هزيمة ميريوكفالون كانت قاتلة لجيشه[٤]. وازدادت الكراهية للاتين بالقسطنطينية زمن مانويل[٥]، فاتّهم بعض المؤرخين مانويل بأنه فى سبيل بعض الميزات الدبلوماسية منح البنادقة امتيازات اقتصادية تسببت فى انهيار اقتصاد بيزنطة، كذلك عقد اتفاقية سنتى ١١٦٨، ١١٧١م مع بيزا وجنوه[٦]، وتسبب البنادقة فى زيادة حدةالكراهية والبغضاء تجاههم فى

---

(١) العرينى: مؤرخو الحروب الصليبية ص ١١٨.

(٢) Runciman : of . cit . vol . II. p. 425.

(٣) العرينى: الشرق الأوسط ج ١ ص ٧٧٣.

(٤) Runnciman : of . cit . vol II. p . 420 .

(٥) Ostrogorsky : of cit . P. 345 .

(٦) ديل (شارل): البندقية جمهورية أرسطقراطية ترجمة أحمد عزت عبد الكريم ص ٢٣.

الامبراطـور يـة لاحتكارهـم للتجارة بين بيـزنطـة والشرق ، وقيـامهم بإمداد الأساطيل الامبراطوريـة بالبحّارة ، وبذلك أصبحت الامبراطـورية تحت رحمتها[١] . يضـاف إلى ذلك ما حدث من انتـزاع بيزنطة دالماشيا من البنـدقية ، ورفض البنادقة بـذل المساعدة للأمبراطـور فى حروبه مع النـورمان فى عهد مانـويل . وإذ أصاب البنادقـة الغرور ، لما ظفـروا بـه من نجـاح فى نشـاطهم التجـارى ، حتى شكـا البيـزنطيـون من جشعهم واحتقـارهم لليونـانيين حرص الأبـاطـرة البيزنطيـون على إخضاعهم وفـرض الضرائب والخدمة العسكرية .

وفى ٣١ مـارس سنة ١١٧١ ، أمـر الامبراطـور مانـويل بإلقـاء القبض على جميع البنادقة بالقسطنيطنية وبلاد الروم وصادر سفنهم ، فاشتدت ثائرة البنادقة وتحتم عليهم خوض الحرب ، فأرسلـوا أسطولهم إلى الشرق ، ولكن الحرب لم تسفر عن نتائج مـرضية وإنما تـرتب عليها انقطـاع التجـارة مع الامبراطـورية لسنـوات عـديدة . على أن هـذه الكراهية كان يقابلها شعور عـدائى أيضا من الغرب تجاه بيزنطة ، إذ اتهمها المسيحيون بأنها مسئولة عن فشل حملاتهم فى الشام ومصر[٢] .

ولم تكن العلاقـات طيبة بين بيزنطـة وامبراطور ألمانيـا فردريك بربـروسه ، بل إن تحالف بيزنطة مع البابا إسكندر الثـالث لمناهضة فردريك لم يؤد إلى نتيجة ، ولم يلبث أن ساءت العـلاقات ، ولم يتحقق التعاون فى المجـال الدينى بما قد يـؤدى إلى التفاهم ، إذ عارض الشعب التقـارب بين البابـا ومانـويل وقاوم التحـالف بين الجماعة المنحـرفة فى الوطن والعقيدة ، وحدث التقارب بين البابا والامبراطور فردريك وعقدت معاهدة سنة ١١٧٧ ، وتم طرد جميع الرعايا البيزنطيين من إيطاليا[٣] .

أما فى الشرق الإسلامى ، فإن معـركة الامبراطور مع السلاجقـة وهزيمته حطمت الجيش البيـزنطى ومنعته من التـدخل الفعلى فى الإمارات الـلاتينية فى الشرق وحـرمت الصليبيين من حليف قوى[٤] ، واستشعر الـلاتين بعدئذ بما افتقـدوه من التحالف مع بيزنطة ، وهذا يبرر أن قطرة واحدة من الدم البيزنطى لم تُرَقْ فى موقعة حطين ، ولم يشترك جنود بيزنطة فى المعركة التى حددت مصير مملكة بيت المقدس .

(١) Ostrogoroky : of . cit . P. 345 .

(٢) Runciman : of . cit. vol II. P. 420 .

(٣) Ostrogorsky : of . cit . P . 340

(٤) Gibbon : of . cit . II. P. 409.

أما المرحلة الجديدة ، التى تبدأ بوفاة مانويل سنة ١٨٨١ ، فأهم ما اتسمت به،هو مـا جرى من تغيير فى السيـاسـة البيـزنطية ، نحـو الـلاتين ، والنزوع إلى التقـارب، مع الأيوبيين[١] .

وتفصيل ذلك أن الطفل الكسيـوس الذى ولىَ العـرش بعـد وفاة أبيـه مانـويل لم يتجـاوز الحادية عشرة من عمـره ، فسيطرت أمـه الـلاتينية مـاريا الأنطـاكية على أمـور الدولة، وكـانت أول لاتينية تحكم الامبرطورية وتـوثقت علاقتها وصداقتهـا بالكسيوس كـومنين وهو من أقـارب الامبراطور الجديـد ، فتعرضت بـذلك للكراهيـة من الشعب والارستقراطية على حد سواء فالارستقراطية رأت أن هذا الرجل وصل لمركز مرموق برغم افتقاره إلى الكفاية والمقدرة ، ولم ينس البيزنطيّـون خلافاتهم ومنازعتهم مع أنطاكية[٢] . فضـلا عن أعمال الصليبيين العـدوانيـة أثناء مـرورهم بـالأراضى البيـزنطيـة ، فما زال البيزنطيـون يذكـرون مذابـح البندقيـة وبيزه وجنـوه ، وسيطرتها على تجارة الامبراطـورية وجنى الأربـاح الطائلـة ومهاجمة المواطنين المسـالمين[٣] ، وازدادت الكـراهيـة لحاشيـة الملكـة المؤلفـة من التجـار الإيطـاليين والجنـود المأجـورين ، ولما ظفـر بـه الـلاتين من امتيازات ، بينما شعر اليونانيون بـالحقد الشديد عليهم ، فصب البيزنطيون غضبهم على تلك السياسة ولا سيما بعـد انهيار مركز بيزنطة سواء فى الـداخل والخارج ، وجرت عدة محاولات لاغتيال الامبراطورة وصديقها منها محاولة ابنـة مانويل وزوجها ، ولكنها باءت بالفشل .

ولقد بدأ التغير واضحا فى مخطط السياسـة البيزنطية فأرسل الامبراطور الكسيوس كـومنين الثـانى إلى القـاهـرة مبعـوثـا سنـة ١١٨٠-١١٨١ لعقـد الصلح مع صـلاح الدين[٤]، ورغم انهيـار حكم الملكـة والامبراطـور الكسيـوس الثـانى بعـد ذلك ، فإن المخطط الجديـد لم يتغير ، فقد ثـار عليها أنـدرونيكس كومنين وهـو ابن عم مانـويل ، وسياسته تختلف عن سياسة مانويل اختلافًا تـامًا. إذ أنه عدوا للارستقراطية الإقطاعية وخصم عنيد لـلاتين فى الشرق ، ولكن فى نفس الوقت كـان متقلب الأهواء[٥] إذ رأى نذر الخطـر تحيط به ، واستطاع أنـدرونيكس آخر الأمر أن يهزم الكسيـوس فأمر بسمل

(١) Ostrogorsky : of . cit . P. 340

(٢) Runciman : of . cit . II. P. 427.

(٣) Ostrogorsky : of . cit . P . 340.

(٤) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧٢ .

(٥) Ostrogorsky : of . cit . P . 351.

عينيه وأدخله الدير ، ودخل القسطنطينيـة وأعدم الامبراطورة وأجبر الامبراطـور الطفل على أن يوقع الحكم بشنـق والدته ، وسيطـر على الامبراطور الطفل الكسيـوس الثانى ، وتعـرض الـلاتين لما أجراه انـدرونيكس من مـذابح ، ذهب ضحيتهـا أعـداد كبيرة من الـلاتين ، وقام البيـزنطيون بـالتنفيس عن حقـدهم للاتين بـالمشاركـة فى تلك المذابح الضخمة والاستيلاء على متـاجرهم وممتلكاتهم ، وكانـت المقاومة اليائسة التـى أبداها اللاتين حافزا لهم على القسوة ، فلم يراعـوا سنا أو جنسية أو روابط أو صداقة وامتلأت الطرقـات بأشلائهم ، وحرق رجـال الدين فى كنـائسهم والمرضى فى المستشفيات وبيع آلاف منهم كرقيق للترك . وأسهم رجال الدين فى الـدعوة لهذه الحركة ، بل تقربوا إلى الله شاكرين حين فصلت رأس الكاردينال الرومانى مندوب البابا ، ولم يستطع الإفلات إلا عدد محدود ، واستقلـوا سفنهم إلى الغرب ، وتجنبوا كل الموانىء البيزنطيـة حيث اطلعوا الغرب على أخبار تلك المذابح ، وأثار هذا نفوس المسيحيين فى الغرب[1] ، ولم يلبث أن لقىَ الامبراطور الكسيـوس الثانى مصرعه سنة ١١٨٣ ، وصار أنـدرونيكس امبراطورا ، وما ارتكبه من الجرائم[2] وما أقدم عليه من منـاهضة اللاتين فى الشرق والغرب سواء ، كل ذلك حمله على أن يلتمس حليفا جديدا بين المسلمين فى الشرق وكان هذا الحليف ، صلاح الدين[3] .

---

(١) Gibbon of . cit . vol . VI. P. 404.

Diehl : of . cit. p. 134 .

Ostrogorsky . of . cit . p. 351 .

(٢) Runciman : of . cit . vol II. P. 428 .

(٣) Gibbons : of . cit . vol Vol VI P . 404 - 405 .

الفصل الرابع

التحالف الأيوبى البيزنطى فى عهد صلاح الدين

١١٨١ - ١١٩٣م

تعرض صلاح الدين والبيزنطيون لتهديد عدو مشترك - سفارة أندرونيكس إلى صلاح الدين (١١٨٥م) - ترحيب إسحاق أنجيلوس بمحالفة صلاح الدين - سفارة صلاح الدين إلى إسحاق - المفاوضات بين الأيوبيين والبيزنطيين بشأن الحملة الصليبية الثالثة - اهتمام صلاح الدين بإقامة الشعائر الدينية بمسجد القسطنطينية - العلاقات بين البيزنطيين وحملة فردريك بربروسه - مراسلات إسحاق إلى صلاح الدين بشأن حملة فردريك - رفض صلاح الدين لطلبات البيزنطيين .

تعرض صلاح الدين والبيزنطيون لتهديد عدو مشترك :

حدث قبيل الحرب الصليبية الثالثة أن انحاز صلاح الدين ، سلطان مصر والشام ، إلى أكبر دولة مسيحية فى الشرق ، الدولة البيزنطية ، للمحافظة على مصالحهما المشتركة التى تنطوى على مقاومة اللاتين فى الأرض المقدسة[١] واعتبر الغرب هذا الاتصال انتهاكا لرابطة الدين وتحطيما للتقاليد ، وذلك ، لأن الحروب كادت تكون مستمرة بين البيزنطيين والمسلمين . منذ ظهور الإسلام ، وفى القرن الحادى عشر الميلادى انتزع المسلمون السلاجقة معظم بلاد الأناضول من الامبراطورية الشرقية وما حدث بعد الحملة الصليبية الأولى من تعاون بيزنطة مع المسيحيين فى الغرب ، كانت تأمل من ورائه أن تجعل لنفسها الحماية على الإمارات الصليبية فى الشام ، وفى أن تظفر بالمساعدة ، لمقاومة الزحف الإسلامى على أطرافها الشرقية[٢] . ومع ذلك فإن أندرونيكوس ، آخر أباطرة أسرة كومنين ، وخليفته أسحاق إنجيلوس ، غيرا هذه السياسة رأسا على عقب ، وتحالفا مع أكبر عدو للصليبيين ، صلاح الدين بل إنهما حاولا جاهدين ، أن يستأصلا الدول اللاتينية من الشرق هذا التقارب بين العدوين القديمين (البيزنطيين والمسلمين ، سهله ويسره ما جرى أخيرا من علاقات شخصية ، وما أملته الضرورة السياسية فحينما تقرر نفى أندرونيكوس ، فر إلى دمشق وبغداد ، حيث توطدت الصداقة بينه وبين نور الدين[٣]وحدث بعدئذ أن حل فى بلاط صلاح الدين ، الكسيوس أنجيلوس وأخوه الأصغر إسحاق ، اللذان هربا من طغيان أندرونيكوس[٤] ، وكان الكسيوس لا يزال فى بلاط صلاح الدين ، حينما نصَّب الرعاع بالقسطنطينية ،إسحاق امبراطورًا[٥] ومن هنا عرف هؤلاء الحكام قادة المسلمين والقوى الإسلامية .

وفى سنة ١١٨٥ تعرض كل من البيزنطيين وصلاح الدين لتهديد نفس الأعداء من المسلمين والمسيحيين . إذ أن صلاح الدين واجه الإمارات الصليبية التى قامت وفصلت بين شطرى ممتلكاته المعروف أن قبرص التى تمردت وأعلنت العصيان تحت زعامة إسحاق كومنينوس من أقوى المتحمسين لدعوة اللاتين وللمصالح اللاتينية، وكانت من قبل ترجح كفة اللاتين ضد صلاح الدين، ومن الطبيعى أن البيزنطيين

(١) Runciman: of. cit. vol II. P. 412.

(٢) Setton : of. cit vol. II. p. 154.

(٣) Ostrogorsky. of. cit. P 351.

(٤) Gibbon : of. cit. Vol. VI. P. 405.

(٥) William of Tyre of. cit. Vol. II. P. 354.

كانوا يأملون أن يستردوا هـذه الجزيرة[1] . وما حـدث سنة ١١٧٦ من إحراز السـلاجقة انتصارا حاسما فى معركة ميروكيفالون وطد سلطانهم فى جون الأناضول ، حيث أضحوا مصدر خطـر شديـد ، وتهديد كبير على الممتلكات البيـزنطية فى بحـر إيجه وعلى أملاك صلاح الدين فى شمال الشـام ، فتوافر للبيزنطيين مثلما توافـر لصلاح الدين من دواعى الخوف من جهة الغـرب ، وأثار حـديث الحروب الصليبية عنـدهم ذكريـات أليمة عن تجاربهم مع الحروب الصليبيـة المتقدمـة ، فما بذلـه مانـويل كومنين من جهـود لاسترداد الأقـاليم التى فقدتها بيـزنطة فى إيطـاليـا ، أسهمت فى تباعـد الامبراطوريـة الغربيـة ، ومملكة صقلية ، والبندقية بما تمتلكه من أسطـور قوى ، وما حدث سنة ١١٨٢ من إجراء مـذبحـة مروعـة بين الإيطـاليين المقيمين فى القسطنطينيـة أحزنت جنـوا وبيـزا ، إذ أن رعاياهما كانوا أكثر من عانوا من هذه المذبحة ، ومن الطبيعى أن تسعيا إلى الانتقام[2] .

ازداد أندرونيكس طغيانـا فقتل الكثير من أنصار مريم الأنطـاكية من البيزنطيين وسمل أعين آخـرين ، وأساء إلى البطـريرك ونتيجـة لذلك فـر من وجهة عـدد كبير من رجال العـاصمة والتجـأوا إلى الأمراء الصليبيين فى أنطـاكية وغيرهـا ولاسيما القدس[3] وأقام بعضهم فى صقليـة و إيطالية والبعض الآخر فى قـونيه وكان أنـدرونيكس قد نفى أحد أفراد أسرة كومنين واسمه الكسيـوس كومنين إلى روسيه فهرب منها والتجأ إلى ملك صقلية وليم الثانى وطلب مساعدة ضد أنـدرونيكس فأجاب وليم الثانى التماسه وجرَّد حملة فى سنة ١١٨٥م مما حرك الأمل فى إقامة ثورة لصـالحه[4] .

واستولى على دراخيوم ١١٨٥م واتجه إلى سالونيكا وهـاجم الأسطول جزائر كورفو وكيفالونيـا . واستولى الجيش النورمانى على سـالونيك ثانى مدن الامبراطـورية ونهبها ، وزحف على العـاصمة ذاتها . ولم يسع أنـدرونيكوس ، بعد أن جـرى تطويقـه من جميع الجهات ، وبعد أن تعـرض لتهديد وضغط مباشر من غارة النورمـان وما تهدده من ثورة

---

(١) Lamonte : of . cit . P. 12 .

(٢) أسد رستم : الروم ج ٢ ص ١٦٠ .

(٣) ابن جبير الاستبصار فى عجائب الأمصار الرحلة ص ٣٢٣ .

شاهـد ابن جبير الجيوش الصقليـة ، وهى تحشد استعـدادا للحملة ضـد بيزنطـة كذلك شـاهد المطالب العرش أثناء وجوده بصقلية .

(٤) Ostrogorsky : of . cit . P. 355 .

إلا أن يلجأ إلى صلاح الدين ، أملا فى أن يحصل على مساعدة فعالة[١] .

سفارة أندرونيكس إلى صلاح الدين (١١٨٥م) :

ووفقا لذلك أرسل أندرونيكوس ، سنة ١١٨٥ ، سفارة إلى صلاح الدين يستعيد ما كان بينهما من صداقة قديمة ، ويعرض قيام تحالف بينهما . ونظرا لأن أندرونيكوس كان امبراطورا فكان لزاما على صلاح الدين أن يبذل له الولاء ، وأن يقدم له المساعدة ، فيجرى فتح فلسطين واقتسامها بينهما ، على أن ينال البيزنطيون بيت المقدس والمدن الساحلية ما عدا عسقلان . وإذا جرى الاستيلاء على آسيا الصغرى ، فلابد من إضافتها حتى أنطاكية وأرمينيا ، إلى الامبراطورية الشرقية . ولاشك أن أندرونيكوس ، مقابل هذه المساعدة والأملاك ، وعد بأن يبذل المساعدة للمسلمين فى نضالهم ضد اللاتين فى سوريا وليس معروفا مدى استجابة صلاح الدين لهذه المقترحات ، غير أنها فيما يبدو حازت القبول[٢] ، والراجح أن كل الحقوق والامتيازات الإقليمية توقفت على ما يقوم به البيزنطيون من تنفيذ نصيبهم فى المعاهدة ، ولكن أندرونيكوس طرد من العرش (١٢ سبتمبر سنة ١١٨٥) ، على يد سكان المدينة الذين حنقوا لما أصابه من هزائم وفشل فى الحرب النورمانية[٣] . قبل أن يصل إلى القسطنطينية رد صلاح الدين .

أما طلب أندرونيكوس ، بأنه ينبغى على صلاح الدين أن يبذل له الولاء لأنه امبراطور ، فإن صلاح الدين ، سلطان مصر والشام ، اعتبره طلبا داعيا للسخرية ، ولا يقبله بأى حال من الأحوال . فضعف الامبراطورية البيزنطية وقتذاك كان أمرا معروفا فى كل مكان[٤] . فلم يكن النورمان وحدهم هم الذين غزو سالونيك ، بل إن جزر الارخبيل تعرضت لغزو القرصان اللاتين وغاراتهم ، واندلعت فى قبرص ثورة لقيت نجاحا كبيرا ، وتجاوز الترك والمجريون فى غاراتهم أطراف الامبراطورية . أما سلطة صلاح الدين فإنها أخذت وقتذاك تمتد وتتسع ، وما أحرزه من انتصار باهر على الإمارات الصليبية كان معروفا ولم يكن موضع تفكير مطلقا وقتذاك أن يخضع العالم العربى للبيزنطى ، ومع ذلك فإن طلب إخضاع العرب ،إنما يمثل عند الامبراطور فكرة

(١) Gibbon : of . cit . vol . VI. p. 405 .

(٢) Ostrogorsky : of . cit . P . 354.

Grousset : of . cit . II. p. 743-751. note 1 .

(٣) عن سفارة أندرونيكوس لصلاح الدين انظر :

Cahen : of . cit . p. 424,425 .

(٤) Ostrogorsky : of . cit . p. 355.

بيزنطية تقليدية ، باعتبار أن الامبراطور ممثل الله على الأرض ، فما من أحد يساويه فى المكانة[1] .

والدليل على أن أندرونيكوس لم يكن يهتم بأكثر من مجد خيالى ما جرى من طلبه بأن تكون له بيت المقدس وساحل فلسطين . والواضح أن صلاح الدين رفض دعوى بيزنطة فى السيادة .

ترحيب إسحاق أنجيلوس بمحالفة صلاح الدين :

وما كان من قبول صلاح الدين فكرة أندرونيكوس فى التحالف معه ، رحب بها الامبراطور الجديد ، إسحاق الثانى أنجيلوس ، الذى سره أن يجد حليفا فى صلاح الدين، بعد أن تعرضت عاصمته القسطنطينية لتهديد النورمان ، فأقر المعاهدة (بعد أن راجعها وعدلها صلاح الدين فيما بعد)[2] واستدعى أخاه الكسيوس ليعود من لدى صلاح الدين كان الكسيوس أنجيلوس لا يزال ضيفا على السلطان صلاح الدين مثلما كان إسحاق من قبل .

غير أنه حدث سنة ١١٨٦ بعد أن استدعى إسحاق أخاه ، أخذ الكسيوس فى المسير إلى القسطنطينية ، أمسك به كونت طرابلس أثناء اجتيازه عكا وأمر بحبسه وذلك حينما وصل إلى الإمارات الصليبية نبأ التحالف البيزنطى الإسلامى .

وفى أثناء اعتقاله ، بذل له البيازنة المساعدة بما قدموه له من القروض ، التى فيما بعد تسديدها . ولما علم إسحاق بهذا الإجراء كتب إلى صلاح الدين يحثه على مهاجمة الإمارات اللاتينية ، كيما يتم إطلاق سراح أخيه الكسيوس .

وفى ربيع سنة ١١٨٧م ، بعث البيزنطيون بأسطول لمهاجمة قبرص وتحرير الأراضى المقدسة ، جرى تفسير تحرك الأسطول البيزنطى على أنه مساعدة بحرية كيما يقوم صلاح الدين بهجوم على الإمارات الصليبية ، غير أن القوات البيزنطية تعرضت للهزيمة فى قبرص على يد إسحاق كومنين ، وحلت الكسرة بالأسطول على يد قائد الصقلى . وفى تلك الأثناء ، هاجم صلاح الدين مملكة بيت المقدس ، بسبب ما تعرض له من إهانات من قبل اللاتين لا بسبب تشجيع إسحاق ، فاستولى صلاح الدين

---

(١) Cahen : of . cit . p. 425 .

(٢) أشار كاتب الرسالة المجهولة إلى مصدر من المصادر التى يصح أنه استقى منها معلوماته ، فى سنة ١١٨٦ علم كونت طرابلس وأمير أنطاكية بالتحالف بين إسحاق وصلاح الدين .

Branrd (C) : Saladin and Byzantiun p. 167 (Speclum 1945 Vol xx)

على بيت المقدس والمدن الساحلية[1] ، ولما سقطت عكا في يد صلاح الدين ، جرى إطلاق سراح أنجيلوس من معتقله فعاد إلى القسطنطينية على ظهر سفينة جنوية، ولم يدفع نفقة الرحلة حتى سنة ١٢٠١م[2] .

على أن صداقة صلاح الدين لإسحاق أنجيلوس ليس لها أي صلة بفتح الأرض المقدسة إلا من ناحية واحدة ، فالمعروف أن ما حدث من قبل من استسلام بيت المقدس إنما يرجع فيما ذاع وشاع إلى أن اليونانيين الأرثوذكس المقيمين ببيت المقدس والمعروفين باسم الملكانية كانوا مستعدين لتسليم المدينة بطريق الخيانة ، واتصل بهم المسلمون عن طريق يوسف بطيط وهو ملكاني ، ولد ونشأ في بيت المقدس ، وعد بتدبير فتح أبواب المدينة على يد بني جلدته وديانته .

ولما وقف زعماء اللاتين على كراهية الملكانيين وعلى تدبير مؤامراتهم ، كان هذا من أسباب مبادرتهم بتسليم المدينة[3] . لم يكن ثمة صلة معروفة أو ضرورية تربط بين إسحاق أنجيلوس ، وما كان من أفعال الملكانيين ، غير أنه من الملحوظ أن تحالف صلاح الدين مع البيزنطيين أدى إلى تحويل الكنائس اللاتينية القائمة بالأراضي المقدسة إلى الشعائر اليونانية . والراجح أن الملكانيين في بيت المقدس علموا ما بذله صلاح الدين لهم من وعود ، والواضح أنه لم يكنوا المحبة لجيرانهم من الفرنج[4] .

سفارة صلاح الدين إلى إسحاق :

وإذ فرح صلاح الدين بما أحرزه من انتصارات على الصليبيين أرسل إلى إسحاق سفارة تعلن ما أصابه من نجاح وفوز ، ووفقا لتقاليد الدبلوماسية الشرقية حمل السفراء إلى الامبراطور البيزنطي هدايا فاخرة ، منها فيل ، وخمسون من السروج التركية ، ومائة من الأقواس التركية ، بما تحتاجه من سهام ، ومائة من الأسرى البيزنطيين من بلاد اليونان ، ١٠٥ حصانا تركيا وكمية كبيرة من البهار ، وأظهر إسحاق سرورا بما جاءه من أنباء طيبة ، ومن هدايا ثمينة فاستضاف الرسل في قصر منيف في وسط القسطنطينية وجدد المحالفة مع صلاح الدين [5]. وأكثر ما أظهر له الامتنان والشكر ، ما جرى من

(١) Branrd of , cit , p 169-170 .

(٢) Lane-poole: of . cit . p. 214-218 .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٠٣ .

(٤) Gibbon : of . cit . vol VI 374 .

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٤٧ .

إطلاق سراح شقيقه من حبس الصليبيين ورد إسحاق على صلاح الدين ، بهدايا تضارع ما أرسله له فى القيمة والروعة ، فمنها أربعمائة زردية ، وأربعة آلاف رمح من الحديد ، وخمسة آلاف من السيوف ، وكلها من الأسلحة التى استحوذ عليها من هزيمة جيش وليم الثانى الذى أغار على أملاكه ، واثنتا عشرة قطعة من القماش الفاخر، وقدحان من الذهب ، وثلثمائة من فرو السمور ، وأرسل هدايا من القماش والخلع الامبراطورية إلى شقيق صلاح الدين وإلى أبنائه الثلاثة ، وأهم من كل ذلك ، حمل الرسولان إلى السلطان تاجا مرصّعا بالذهب ، ورسالة من إسحاق نصها « أبعث إليك بهذا التاج ؛ لأنك فى رأيى تعتبر ملكا وأنت جدير بالملك ، وذلك بفضل مساعدتى وعون الله » ، وبهذا الرمز وبهذه العبارات على الرغم من أنها لم تكن صادقة ، سعى الامبراطور إلى أن يبرهن على سيادته على صلاح الدين .

المفاوضات بين الأيوبيين والبيزنطيين بشأن الحملة الصليبية الثالثة :

أبحر الرسل إلى عكا ، حيث أقام لهم صلاح الدين ، فى ٦ يناير سنة ١١٨٨م ، بعد أن رفع الحصار عن صور ، أقام سرادقا فخما حافلا لاستقبالهم وجدد التحالف مع بيزنطة ، وذلك بحضور أبنائه وأمرائه وموظفيه ، وأشاد الرسل بصفة خاصة بصلاح الدين لما أجراه من إطلاق سراح الكسيوس أنجيلوس ، فبفضلك تم تخليصه وإنقاذه من أيدى اللاتين [١] وسأل صلاح الدين هؤلاء الرسل عن أحوال الامبراطورية (البيزنطية) والحرب مع الفلاح ، والحرب مع سائر الحكام (الواضح أنه يقصد ملوك الغرب) وأهم خبر حمله هؤلاء الرسلان البيزنطيون إلى صلاح الدين ما حدث فى الغرب من الدعوى إلى حملة صليبية جديدة لتخليص بيت المقدس[٢] . وبعد فترة من التمهل والإرجاء ، الراجح أن صلاح الدين تلقى أثناءها من جهات أخرى ما يؤكد احتشاد الحملة الصليبية الثالثة ، عزم على أن يزيد من توثيق علاقته بإسحاق كيما يضمن مساعدته إزاء ما يصح أن يمر بأراضيه من رجال الحملة[٣] ، ولذا أنفذ مع السفارة البيزنطية عند عودتها سفارة من قبله ، عهد إليها بالقيام بمفاوضات من هذا القبيل ،

(١) أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص ١٣٦ .

(٢) تشير رسالة القاضى الفاضل إلى سيف الإسلام باليمن المؤرّخة ٥٨٤هـ (١١٨٨-١١٨٩) إلى ما ورد من الأنباء من حاكم القسطنطينية ، الإسكندرية ، ومن شمال أفريقية ، بشأن تجمع وإعداد حملة صليبية فلا داعى لأن نفترض قدوم سفارة أخرى من إسحاق ، لتحمل هذه الأنباء إلى صلاح الدين كما يزعم Dolger انظر / أبو شامة الروضتين ج ٢ ص ١٣٦ .

(٣) Grousset : of . cit . Tome III p . 13 .
Runciman : of , cit . vol , III 63-74 .

وفاقت هـداياه كل مـا سبق أن أرسله من هـدايا إذ كـان منهاعشرون حصـانا لاتينيًا ، وصناديق كبيرة من العطـور ، و الجامات والبلسان ، وثلثمائة عقـد من الجواهر صندوق من العود ، ومائة كيس من المسك ، وعشرون ألف بيزنطا ، وفيل صغير وغزال، وزرافة ، وخمسة فهود ، وثلاثون قنطارا من الفلفـل وأنواع البهار الأخرى ، وقدر كبير مصنوع من الفضة وكميـات كبيرة من الدقيق والحبوب السـامة وهذه الأطعمة المميتـة (التى جرى اكتشافهـا عند تجربتها مع أحـد الأرقاء الـلاتين حينما لقى مصرعه) كان الغـرض منها فعلا ، توزيعها على الصليبيين القادمين من الغرب ، عند اجتيازهم الأراضى البيزنطية .
وحوت حوليات فردريك بوبروسه قصصا عن محاولات تدمير الألمان بالالتجاء إلى مثل هذه الوسائل .

اهتمام صلاح الدين بإقامة الشعائر الدينية بمسجد القسطنطينية :

ومن هدايا صـلاح الدين ، فى هذه المناسبة « منبر » والذى كـان لابد للامبراطور أن ينصبـه ، ويعمل على تمجيده وتبجيلـه ، تكريما للمسلمين، وفقـا لما بـذله من وعـد سابق، ففى أثناء المفـاوضات الثالثة ، مع إسحاق ، اهتم صلاح الـدين بالمحافظة على الشعائر الإسلاميـة . وعمارة مسجد القسطنطينية ، مثلما أبدى إسحاق رغبتـه فى مراعاة الشعائر اليـونانية فى كنائس الأرض المقـدسة[1] ومع ذلك فإن المنبر الـذى بعث بـه صـلاح الدين ، فى هـذه المنـاسبة لم يصل إلى القسطنطينيـة ، إذ استـولى الجنويُّـون على السفينة التى تحمله إلى العاصمة البيـزنطية ، وحملوه إلى صور ، ولما كان المنبر يعتبر دليلا ملموسـا على التحالف بين الامبراطور وصـلاح الدين حـرص كنراد مونتفـرات (الذى حكم وقتذاك فى صور) على أن يـذيع نبأ الاستيلاء عليه[2] . فى سائر أنحاء أوربا ، وما أرسلـه فيليب الثانـى ملك فرنسـا من سفـارة إلى القسطنطينية ، حملـت من الأنباء مـا يقصد بها تشجيع التجهيز والاستعداد والتجنيد للحملة الصليبية القادمة . وفى خريف سنة ١١٨٨ ، أصبح معروفا فى غرب أوربا خبر معارضة إسحاق للحملةالصليبية .

وفى ٢٠ سبتمبر ١١٨٨ ، وحينما بعث كنـراد مـونتفـرات بـرسـالـة إلى أسقف كانتربيرى عن الاستيلاء على المنبر ، توافر لديـه من الأنباء ما يكفى لأن يضمن رسالته أهم ماورد فى المحـالفة بين صلاح الـدين والبزنطيين من شروط ، قرر صـلاح الدين أن تسير كل الكنائس فى فلسطين التى استولى عليها وفقـا لمذهب بيزنطة (الأرثوذكس) ، والتزم إسحاق بأن تجرى الشعائر فى مسجد القسطنطينية على مذهب صلاح الدين[3].

(١) أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص ١٥٩ .
(٢) Gibbon : of . cit . vol VI . p . 407 .
(٣) أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص ١٥٩ .

وفيما يتعلق بحصار أنطاكية التزم إسحاق بأن يبعث مائـة سفينـة حربيـة ، لمساعدة صلاح الدين ، ومع ذلك فإن مقاومة الحملة الصليبيـة الثالثة المقبلة ، كان أمرا جوهريا عند صلاح الدين فلم يقم إسحاق من تلقاء نفسه ، بأن يسجن فى القسطنطينية اللاتين الذين وعدوا بالاشتراك فى الحملـة الثالثة ، بل إنه وافق أيضا على معارضـة ومقاومة كل جيش يحاول اجتياز ممتلكـاته[1] ، ومقـابل ذلك وعـد صلاح الـدين ، بأن يمنحـه كل الأراضى المقدسـة ، وهو مـا ناضلت بيزنطـة من أجل الحصول عليـه طوال القـرن الثانى عشر ، ومن أجلهـا أجرى أيضا أنـدرونيكوس المفاوضـات ، أما تقريـر السفارة الفرنسية ، الذى جرت كتابته من القسطنطينيـة بعد فترة قصيرة عقب كتابة رسالة كنراد فأضافت إلى أن السفراء المسلمين ، لقوا من الحفاوة والتكريم فى القصر الامبراطورى ما لم يلقه غيرهم من السفـراء ، وزعمت السفارة الفرنسيـة أيضا أنه حـدث فى نفس اليوم الـذى تأهبت فيـه رسلهـا لمغـادرة القسطنطينية ، أمـر إسحـاق بطـرد كل الـلاتين من الامبراطورية، فإذا كـان هذاالقرار قد صـدر فعلا ، وهو ما لم يجد تأكيـدا له فى مصادر أخـرى ، فإنـه لم يلبث أن جـرى تعـديلـه بعـد فترة وجيـزة ، فمن المحقق أنـه كـان بالامبراطورية الشرقية أثناء الحملة الثـالثة ، تجار من البنادقة وجند مأجورة من الفرنج ، وموظفون من اللاتين[2] ، ومع ذلك فإن مـا حدث من احتجـاز الصليبيين مستقبلا فى القسطنطينية دل على أن إسحـاق يكون قد ألـزم نفسه بسياسـة عدائية نحـو الغرب لما يبذله من جهود لاستعادة بيت المقدس .

العلاقات بين البيزنطيين وحملة فردريك بربروسة :

على أنه ليس من المحقق ما إذا كانت الشروط النهائية للمخالفة العسكرية انتهى منها سفـراء صلاح الـدين سنة ١١٨٨ ، أو سفـارة أخرى جـاءت إلى القسطنطينية فى السنةالتالية ، فالمعروف أن مبعوثين من قبل السلطان صلاح الدين كانوا بالقسطنطينية فى يونيـة ١١٨٩ عند استحكام الأزمـة فى العلاقات بين إسحـاق وفردريك بربـروسه ، ذلك أنـه حينما قرر الامبراطـور الألمانى فـردريك بربـروسه ١١٨٨ الاشتراك فى الحملـة الصليبية الثالثة ، أخطر الامبراطور إسحـاق بعزمه على اجتياز أراضيه فطلب السماح له بالمرور[3] ، وتعهد البيزنطيون بـاقامة أسواق ليفيد منها الصليبيون ، وتكفلـوا بتقديم ما

---

(١) Grousset : of . cit . Tome III p . 13 .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص ٣٧ .

(٣) Grousset : of . cit . Tome III p . 13. 14.
Ostrogorsky : of . cit . p . 360 .

يلزم لنقلهم عبر البوسفور إلى الشاطىء الأسيوى ، ومع ذلك فإنهم لم يلبثوا أن طلبوا رهائن كيا يكفلوا السلوك الطيب من الصليبين، هذه الشروط التى تخالف ما سبق للبيزنطيين أن دربوا عليه ، دلت على أن إسحاق لا زال يفكر فى اتخاذ إجراء عدائى ، فلم يدرك فحسب أنه شديد الالتزام بصلاح الدين ، بل إنه كان أيضا يخشى ما تتعرض له عاصمته من مهاجمة من قبل قوات بربروسه ، انتقاما لما سبق أن وجهه مانويل من إهانات عديدة إلى بربروسه ، ولما جرى من مذبحة فى اللاتين (١١٨٢م) وقبل إهانات وقبل مسير بربوسه (١١ مايو ١١٨٩) أرسل أسقف مونستر بصحبته جماعة من كبار الأعيان الألمان ليخطروا إسحاق بقرب وصوله (بربروسه) إلى القسطنطينية ، وحوالى منتصف يونيه ، وصلت هذه السفارة إلى القسطنطينية ولم تلبث أن جرى حبسها وسجنها ، والراجح أنه تم ذلك بناء على إلحاح ممثلى صلاح الدين، وكيفما كان الأمر ، فإن ما كان لسفراء بربروسه من خيول وأمتعة ، تقرر منحها للمسلمين ، على أن إسحاق ، بما لجأ إليه بطريق غير مشروع ، من اعتقال سفراء بربروسه ، ارتكب جريمة إزاء بربروسه وحملته الصليبية .

مراسلات إسحاق إلى صلاح الدين بشأن حملة فردريك :

وفى الوقت الذى قبض فيها الأمبراطور إسحاق على سفارة أسقف مونستر ، أرسل مبعوثين من قبله إلى صلاح الدين[١] ، ومن الواضح أن الغرض من ذلك التصديق على المحالفة .

وصل الرسل إلى صلاح الدين فى أغسطس ١١٨٩ ، وهو بمرج عيون بالشام ، وبالإضافة إلى ما هو معروف عند اللاتين من شروط ، جرى إضافة شرط يتعلق بالقيام بهجوم مشترك على قبرص والراجع أنه جرت مناقشة ما سوف تلجأ إليه بيزنطة مستقبلا من إخضاع سلطنة الروم ، ولعلها أيضا كانت تزمع الاستيلاء على أرمينية الصغرى وأنطاكية ، فلن يستطيع أن يعرض نفسه لغارات وهجمات الجيش الصليبى ، إلا إذا كان قد حصل على وعود محددة ، وإذا خشى صلاح الدين بربروسه ، لم يتردد فى أن يبذل لإسحاق من الأراضى ما ليس بحوزته مقابل تدمير الجيش الألمانى[٢].

---

(١) Ostrogrsky : op . cit . p 360 .
Grousset : op . cit . Tome . III . P. 13 .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٣١٧ ، ٥٨٥ ، أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص ١٥٩ .

وطلب البيزنطيون من صلاح الدين أيضا أن يبعث لهم ببعثة من علماء الدين ، بدلا من التى وقعت فى أيدى الجنويين ، لإقامة الخطبة باسم الخليف العباسى فى جامع القسطنطينية ومن الطبيعى أن يحرص صلاح الدين على الاستجابة لهذا الطلب، ولذا أرسل بصحبة السفير إماما ، ومنبرا وطائفة من المؤذنين ، والقرّاء لتلاوة القرآن ، وجرى الاحتفال باستقبالهم استقبالاً باهرا ، وجرت أول خطبة ، وشهدها عدد كبير من تجار المسلمين ورحّالتهم [١].

ولما مات مبعوث إسحاق فى الشام ، والراجح أن ذلك وقع فى أواخر صيف سنة ١١٨٩ ، أوفد سفيرا ثانيًا ، ليتم المفاوضات ، كان إسحاق يأمل فى أن يحصل على مساعدة حربية من صلاح الدين ، لأن فردريك بربروسه لن يجد عناء شديدا فى معالجة ما صادفه من قوات بيزنطية ، وأدرك الامبراطور أن أخبار هذه الأحداث سوف تبلغ فعلا الشام غير أن حرب العصابات التى قام بها البيزنطيون ، عرقلت - الامبراطور الألمانى منذ أن دخل إلى الامبراطورية ، ففى الجهات الممتدة من نيش إلى صوفية ، نجح فردريك فى أن يطرد جيشا بيزنطيا من استحكاماته ، وبالقرب من فيليبوبولس ، أنزل الهزيمة مرة أخرى بقوات إسحاق[٢] . وما كاد بربروسه يتأكد عنده خبر اعتقال سفارة أسقف مونستر ، حتى تعاهد بأنه سوف يُرغم البيزنطيين على إطلاق سراح هذه البعثة بالإغارة عن تراقيا ، وعلى الرغم من أن الأسقف ورفاقه قد أطلق سراحهم حوالى ٢٠أكتوبر سنة ١١٨٩ م ، ظل إسحاق على ولائه لصلاح الدين ولم يسمح للألمان باجتياز بلاده إلى آسيا[٣] . وعندئذ أصر فردريك بربروسه على غاراته ، فاستولى على أدرنَه بل إنه أعد خطة لحصار القسطنطينية[٤] ، ولم ييأس الامبراطور البيزنطى من الحصول على مساعدة من قبل المسلمين حتى فبراير سنة ١١٩٠ ، حين حلت به الهزيمة ، ووافق على معاهدة أدرنه ، التى تقضى بأن يسمح إسحاق للامبراطور الألمانى ، بشراء المؤن من الأسواق وبالعبور إلى آسيا الصغرى) وأن يقدم من الرهائن ما يكفل ضمان السلوك الطيب من قبل البيزنطيين[٥] .

---

(١) أسد رستم : الروم ص ١٧٢ .

(٢) Runciman : op . cit . vol III . p . 13 , 14 .

(٣) Grousset : op . cit . Tome . III. 12 , 13 .

(٤) Ostrogorsky : op . cit . P 361 .

(٥) أسد رستم : الروم ص ١٧٢ .

وفى ضوء ما أحرزه فردريك بربروسه من انتصارات ، كانت رسالة إسحاق المؤرخة حوالى ديسمبر ١١٨٩ ، والتى أنفذها مع الرسول المتوفى ، إلى صلاح الدين ، أثناء الحصار على عكا ، خليطا من الأسى ، والتهديدات الجوفاء وبالتظاهُر بالشجاعة ، والتوسلات بأن يقوم صلاح الدين بأعمال إيجابية . ونص هذه الرسالة ، التى لا شك فى أصالتها ، والتى أوردها أحد رفاق صلاح الدين فى مؤلفه عن سيرته[١] ، تكشف ما انتاب إسحاق من مخاوف فى لحظة حرجة أثناء قيام المحالفة[٢] : ولهذا هو نص الرسالة: لاهميتها بالنسبة لمستقبل العلاقات البيزنطية الإسلامية « قدم الرسول بخطاب عن موضوع تجرى الاهتمام به ، وفيما يلى وصف لهذه الوثيقة ، إذ أنها خطوط عريضة طويلة ، غير أنها تزداد ضيقا بين الخطين على ما هو معروف فى بغداد من الكتابة ، ووردت الترجمة فى القسم الثانى ، من الورقة فى باطنها وظاهرها ، وجرى إثبات الخاتم بين القسمين.وكان هذا الخاتم من الذهب ، انطبع عليه صورة الملك ، ويزن خمسة عشر دينارا . ويجرى شطرا الكتاب كما يأتى « من إيساكيوين (إسحاق) الملك ، خادم المسيح ، المتوَّج بفضل الله ، الامبراطور المظفر دائما المجيد ، والذى يحكم باسم الله ، الذى لا يقهر ، طاغية اليونانيين ، أنجيلوس ، إلى عظمة سلطان مصر ، صلاح الدين ، خالص المحبة والود ، وما أرسلته سيادتكم من رسالة إلى جلالتنا ، وصلت بسلام ، لقد طالعناها ، ووقفنا منها على وفاة رسولنا ، وسببت هذه الوفاة لنا كدرا شديدا ، ولاسيما لأنه مات فى أرض أجنبية ، دون أن تتم ما عهدت به إليه امبراطوريتنا من أعمال وكان لابد أن يتدارسه مع سيادتكم . ولاشك أن سعادتكم إنما تقصدون بأن تبعثوا إلينا سفيرا لينهى إلى امبراطوريتنا ما اتخذ من قرار يتصل بالمهمة التى كلفنا سفيرنا الراحل بإعدادها ، وما تركه من متاع أو ما يصح اكتشافه بعد وفاته ، لابد من إرساله إلى امبراطوريتنا حتى يصح تسليمه إلى أبنائه وأقاربه ، وليس فى وسعى أن أعتقد أن سعادتكم سوف تستمعون إلى التقارير السيئة عن مسير الألمان فى أملاكى ، وليس ما يدعو إلى الدهشة ، أن أعدائى سوف يذيعون الأكاذيب لتحقيق أغراضهم . فإذا أردت أن تعلم الحقيقة ، فسوف أخطرك بها ، فما يعانون من المشاق والإرهاق يعوق ما يسومون

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ١١٥ .

(٢) Lane - Poole : op . cit . p 265 .

به الفلاحين ببلادى من العـذاب ، إذ أن خسارتهم فى المال والخيل والـرجالـة ، كانت بالغـة الفداحـة ، إذ فقدوا عـددا كبيرا من الجند ، ولم يفلتـوا من جنـودى الشجعان إلا بصعوبة ، وحل بهم من التعب والإرهاق ، أنهم لم يكن بوسعهم الوصول إلى ممتلكاتك ، بل إنهم إذا نجحوا فى الوصول إليها فليس فى وسعهم أن يبذلوا المساعدة لرفاقهم ، ولن يلحقـوا بسيـادتكم أدنى ضرر ، فإذا جـرى الإمعـان فى هـذه الأمـور ، فإنى لشـديـد الدهشة، لما حدث من إغفالكم علاقاتنا الطيبة السابقة ، وإنكم لم تؤدوا لامبراطوريتى شيئا من خططكم ومشروعـاتهم حتى ليبدو أن النتيجة الوحيـدة لصداقتى معكم ، أنها جرت على كـراهية الفـرنج وكل أجناسهم ، فيتحتـم على سعادتكم أن تـوفوا بما ورد فى رسالتكم ، من نيـة ترمى إلى أن تبعثوا إلىّ بسفير يخطرنى بما اتخذتموه من قـرار ، فى الأمر الذى بعثت إليك رسالة عنه منذ زمن طويل . فليجر ذلك بأسرع ما يكون وإنى لأرجو الله ، أن قدوم الألمان ، الـذين سمعت عنهم روايـات عديـدة ، سوف لا يكـون له وزن عنـدك ، فما اتخذوه من خطط وأغـراض سـوف تؤدى إلى اضطـرابهم ، تحرر فى سـنـة ١٥٠١ ، من التقـويم السـلجوقى ، الموافق أول سبتمبر ١١٨٩-٣١ أغسطس سنة ١١٩٠[١] .

وما تردد فى الـرسالة من الشكوى وخيبـة الأمل ، وما جرى من ترويـد المطالب ، للـوقـوف على أغـراض صـلاح الـدين ، ومـا انطـوت عليـه من عبـارات عما إذا كـان الصليبيون سوف ينجحـون فى الوصول إلى الشام ، كل ذلك زاده شعـور إسحاق بفشله فى تدمير بربروسه[٢] ، وكراهيته الشـديدة لما لجأ إليه صلاح الـدين من التسويف ، وفى فبراير - أبريل ١١٩٠ ، وفى نفس اللحظة التى عقد فيها الصلح مع فردريك ، وسمح له باجتياز اراضيه ، كتب إسحاق للمرة الثانيـة ، يذكر صلاح الدين ، بأنه أعاد الخطبة للخليفة العبـاسى فى مسجـد القسطنطينية ،ويؤكـد من جـديد صـداقته للمسلمين ، وشرح أيضـا بأنـه اضطر إلى أن يسمح لـفردريك بـاجتياز بـلاده ، غير أنـه أعلن أن

(١) لا شك فى صحة هذه الـرسالة ، لا فحسب فى وصف ما ورد فى الخطاب من عبـارات التحية وما اشتملت عليه من الإقناع ، بل إن الفاظ الرسالة وجرسها تعتبر من عبارات إسحاق أنجيلوس . وأما التقويم السلجـوقى فكان شائع الاستعمال عند الجانبين . انظر : أبو شـامة : الروضتين ج ٢ ص ١٥٩ ، ابن الأثير : الكـامـل ج ١٢ ص ٣٠ ، ٣١ ، ابن شـداد : النـوادر السلطـانيـة ص١١٦-٣١٧.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٢٩ ، ابن شداد : النوادر السلطانية .

الامبراطور الألمانى وجيشه لن يستطيعوا القتال إذا وصلوا إلى الشام[١] . « لقد اتبع الامبراطور كل أنواع الخداع والغش أثناء مسيره ، وما تعرض له من متاعب ، وما تعرضت له مؤنه من النقص ، كل ذلك أضعفه وأقلقه ، فلن يبلغ بلادكم فى صورة سليمة ، فسوف يجد قبره هنالك، ولن يعود إلى بلاده ، وسوف يقع فريسة فى الشَّرَكِ الذى نصبه »[٢].

كرر إسحاق أنه فعل كل ما فى وسعه لتحطيم جيش بربروسه ، وألحَّ على صلاح الدين أن يبعث إليه رسولا يحمل الردود على المطالب البيزنطية ، ووفقا لرواية عماد الدين الكاتب ، اشتد تأثر السلطان ، واتخذ قرارا يتفق مع رغبات إسحاق ، والراجح أن هذا لا يعنى سوى أن صلاح الدين أرسل سفارة جديدة إلى القسطنطينية[٣] .

رفض صلاح الدين لطلبات البيزنطيين:

وفى تلك الأثناء ، غادر فردريك بربروسه أراضى الامبراطورية البيزنطية ، واجتاز آسيا الصغرى إلى قونية ، عاصمة سلطنة سلاجقة الروم ، وهذه المدينة التى صمدت اسوارها لمانويل كومنين ، اقتحمها فردريك دون عناء[٤] ، فتبين لصلاح الدين أن ما زعمه إسحاق أنجيلوس عن تدمير الجيش الصليبى ، إنما هو من قبيل الخيال والوهم ، أما تقدير فردريك عن خسائره فى تراقيا ، التى تبلغ حتى ١٨ نوفمبر سنة ١١٨٩ نحو مائة رجل بعد حرب عصابات امتد نطاقها وبعد الغارات على المدن البيزنطية ، وبعد أن وقع اشتباكان مع جيش إسحاق فإنه دل على أن إسحاق لم ينفذ إلا قليلا من خطته التى وضعها لتدمير الصليبيين[٥]، ومع ذلك فإن بربروسه أقر بأن خيوله تناقص عددها

---

(١) ابو شامة : الروضتين ج ٢ ص ١٥٩ .

(٢) Lane - Poole . of . cit . p 565 .
Grousset : of . cit . Tome III . p . 13.

(٣) نقل أبو شامة فى كتاب الروضتين ١٦٠ باختصار ما أورده رواية العماد الكاتب فى شأن هذه الرسالة ،وما احتوته الأجزاء الأخرى من هذه الرسالة يدل على أنها تختلف عن الرسالة السابقة المؤرخة فى ديسمبر ١١٨٩ .
أبو شامة : الروضتين ١٦٠ .

(٤) Runciman : of . cit . vol III P. 15.
Ostrogorsky : of . cit . p . 320.

(٥) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٦٠ .

وما كان من تـداعى هجمات إسحاق على الجيش الألمانى الصليبى ، وقف عليه صلاح الدين من التقارير التى وصلتـه عن سيرهم فى آسيا الصغرى ، ومن أشهر هذه التقارير الرسـالة الـواردة من باسيل أسقف أرمينيـة ، وهو من الـذين انحازوا إلى صـلاح الدين بسبب مـا يكنــه من الكـراهيـة لأرمينيـة الصغــرى ، التى يحكمهـا بيت روبين الموالى للصليبيين ، على أن الأسقف أورد رواية حافلة بالمبالغة والمغالاة عن قوة الجرمان وحسن نظامهم وصبرهم على تحمل الشدائد ، وعـرض المؤرخون العرب فى ذلك العصر لما أثاره تقدم بربروسه[1] فى معسكرهم من الخوف ، وفى يـونيه سنة ١١٩٠م غرق فـردريك عند حدود إقليم روبين ، وتلى ذلك مبـاشرة تفرق جيشه[2] فى صيف ١١٩١ أرسل أسحـاق مرة أخـرى إلى صلاح الدين رسولا يحمل هـدايا ورسالـه شفوية واستقبله العـادل أخو صلاح الدين ووزيـر خارجيته وكرر فى رسـالته جهوده ضد الصليبيين وفى وجـه الدعوة للحمـلات الصليبية ، على أن صـلاح الـدين تـوافر لـديـه من التقـارير مـا تفيـد بأن الامبراطور البيـزنطى بذل كل مـا يستطيعه لتحطيم الألمان ، وكـان يقصد بـذلك أيضا حماية بـلاده من الصليبيين ، بينما يزعم أنه يعمل لصالــح المسلمين . أمــا بطريـركية بيت المقدس ، التى استنـدت إلى الامبراطور البيـزنطى وقتئذ واعتمدت عليـه ، فجرت الروايـة أن إسحاق أخطـر اللاتين من قبل بأن إشرافه وسيطـرته عليهـا ، لن يستمرا إلا ريثما يتولى البطـريركية رجل من أتبـاع أمراء الغـرب ، وبهذه الدعوى زعم إسحـاق أنه أبعـد عن شخصـه خطر الـلاتين ، ولا سيما بعـد أن استقـرت فى القسطنطينية الخطبـة للخليفة العباسى ، ووفقا للقاضى الفاضل رفض صلاح الدين آخر الأمر ، كل طلبات البيـزنطيين، وقد أوضح القـاضى الفـاضل أن الامبراطور البيـزنطى سبق أن طلب من صـلاح الـدين أن يجعل لـه الإشراف على بيت المقدس أو يشترك معـه فى الهجـوم على قونيه[4] وعلى الـرغم من أن الامبراطـور شرع من جـديد فى التماس حلفـاء فى الغـرب ، بسبب ازدياد قوة هنـرى السادس الهوهنشتا وفن فإنه لم ييأس أبـدا من أن صلاح الدين سوف يوفى بـوعوده[5] . ففى ١٥ مـايــو ١١٩٢ ، وصل إلى بيت المقـدس رســول من

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٢٠- أبو شامة: الروضتين ج ٢ ص ١٧٧ .

(٢) Grousset : of . cit . Tome III. p. 12, 13.

(٣) أبو شامة: الروضتين ج ٢ ص ١٧٧ .

(٤) Runciman : of . cit . vol III.. p. 29 .

(٥) Grousset : of . cit . II. p . 748 .

القسطنطينية ، وبعد يومين استقبله صلاح الدين ولم تكن طلباته إلا تكرارا لما ورد من نصوص فى المعاهدة التى جرى الزعم بوجودها فعلا ، واشتملت هذه النصوص على المطالب المتعلقة بالصليب المقدس (قطعة من الصليب) الذى استولى عليه صلاح الدين ، وأملاك الكنائس الأرثوذكسية فى بيت المقدس (التى فكر صلاح الدين فى أن يتنازل عنها للاتين ثمنا لرحيل ريتشارد قلب الأسد) ، وإجراء محالفة دفاعية هجومية بين الدولتين ثم القيام بحملة بحرية مشتركة ضد قبرص ، وعلى الرغم من الزعم بأن صلاح الدين رفض هذه الشروط ، ويصح أنه أعطى الرسول قطعة من الصليب المقدس ، فإنه أنفذ رسولا إلى القسطنطينية ، لمراجعة الشروط سنة ١١٩٢ أى فى العام الذى سبق وفاته .

ويشير المقريزى إلى ذلك فى حوادث سنة ٥٨٩ هـ فيقول : « وفيها قدم رسول متملك القسطنطينية يطلب صليب الصلبوت ، فأحضر من القدس وكان مرصعا بالجوهر ، وسلم إليه على أن يعاد ثغر جبيل من الفرنج ، وتوَّجَهُ الأمير شمس الدين جعفر بن شمس الخلافة بذلك[١] .

وأرسل صلاح الدين مع سفيره ، ما جرت العادة به ، من الهدايا القيمة : ومنها الخيول ، وحيوانات بريه وأليفة ، وسروج الخيل المطهمة بالتحف واللآلىء[٢] . وفى أواخر الصيف أو فى مستهل الخريف ارتحل السفيران البيزنطى والأيوبى إلى القسطنطينية على سفينة بندقية ، يمتلكها أحد الأفراد اسمه بوردانو ، وحدث أن التقت السفينة بالقرب من جزيرة رودس بأسطول للقرصان الجنويين والبيازنة ، بقيادة قائد جنوى جعل من نفسه مصدر رعب للمنطقة . فتم استباحة السفينة البندقية ، وتعرض للموت رسولا إسحاق وصلاح الدين ، كما استولى على قطعة الصليب المقدس أحد البيازنة ، واسمه فورتى Forti فحملها إلى حصن البيازنة فى بونيفاكيو على ساحل جزيرة فورسيقه، حيث استولى عليها سنة ١١٩٥م أحد الجنويين ، فأضافها إلى المقدسات الدينية المحفوظة بالمدينة[٣] .

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٢٠ .

(٢) Runciman : op. cit . vol III . p . 74 .

(٣) Runciman : op . cit . III. p . 63 .

وفى نوفمبر سنة ١١٩٢ ، رفع إسحاق الشكوى إلى جنوه وبيزا ، عن هذا الحادث، وغيره من أعمال القرصنة ، ويبدو أنه حصل من جنوه على تعويض عما تعرض له من خسائر مالية . على أن علاقات الامبراطورية البيزنطية بصلاح الدين انتهت عند هذا الحادث . إذ انخدع صلاح الدين فى كفاية إسحاق الحربية ، بينما أدرك إسحاق أن صلاح الدين يبلغ من البعد عنه مالم يتيسر له أن يحميه من اللاتين[1] .

ولما مات صلاح الدين ١١٩٣ ، لجأ الامبراطور إسحاق إلى تغيير سياسته فعقد محالفات مع جنوه وبيزا ، والبابا ، والنورمان فى صقلية ، وكان يأمل من ورائها ، أنها تربحه من ارتكانه السابق على المسلمين ، والخلاصة أن الفترة الواقعة بين سنة ١١٨٥، ١١٩٢ كان التحالف فيها مع صلاح الدين ، يعتبر حجر الزاوية فى سياسة بيزنطة الخارجية . إذ أن الامبراطورية البيزنطية ارتكنت إلى قوة المسلمين[2] ، فى سوريا ومصر ، لمهاجمة ما يكنه لهامن العداء النرمان ، والبيازنة ، والجنويين ، والامبراطور الألمانى والبابا والواقع أن إسحاق أنجيلوس بصفة خاص ، استمد من هذا التحالف من الشعور بالثقة والاطمئنان ما أدى آخر الأمر إلى وقوعه فى مشاكل عديدة إذ أن عداءه للامبراطور بربروسه نشأ أساسا من هذه المسألة ، فكيما يفى بما التزم به فى المعاهدة ، كان لزاما عليه أن يقاوم كل جيش صليبى يجتاز أراضيه وما كان يأمله من جزاء ، مقابل ذلك ، لم تكن سوى الأهداف التى تطلع إسحاق وآل كومنين الأول لتحقيقها ، وهى استعادة قبرص واسترجاع الأراضى المقدسة[3] ، وإعادة حدود آسيا الصغرى إلى ما كانت عليه فى القرن العاشر الميلادى ، وترتب على فشل التحالف مع صلاح الدين ، أن تغيرت السياسة نهائيا ، واتخذت صورة التقارب مع الدول الصغيرة فى الغرب لمواجهة أطماع الامبراطور هنرى السادس ، التى أخذت فى الازدياد والنمو[4] .

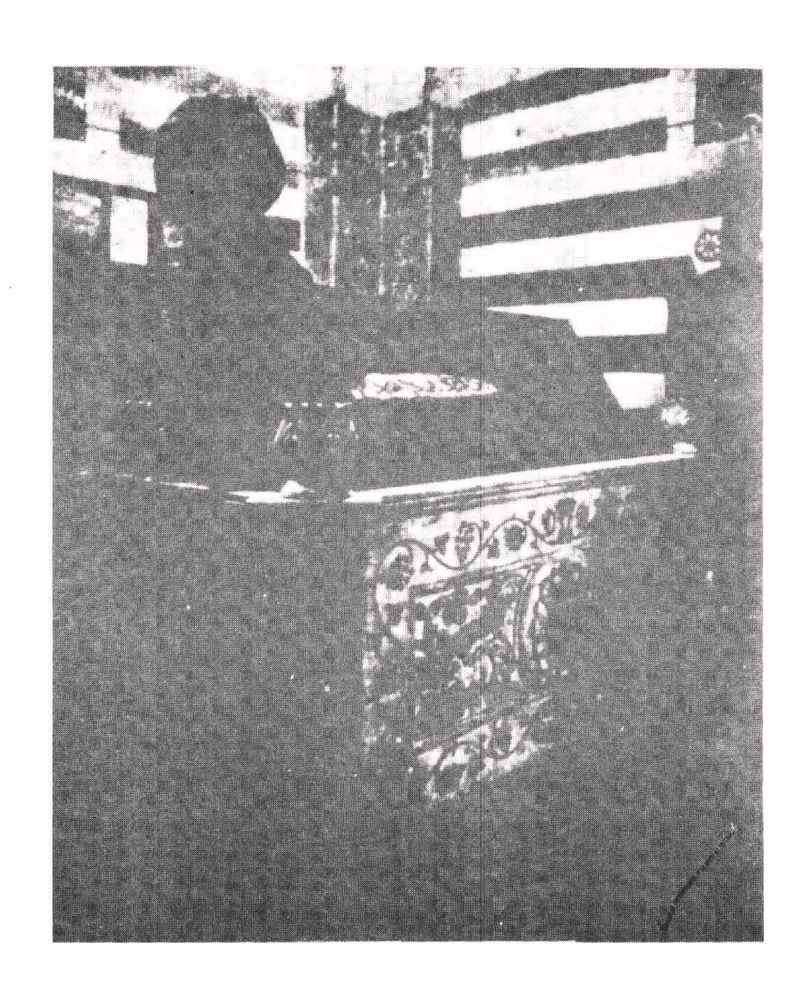
كان للتحالف البيزنطى الإسلامى أثر كبير فى مجرى الأحداث بالشام ، من ذلك أنها عجلت باستسلام بيت المقدس ، على الرغم من أن أحوال المدينة بلغت من السوء ما جعلها عاجزة عن الصمود لقوة المسلمين المتزايدة ، ولو أن حملة بربروسه وصلت فعلا إلى الأراضى المقدسة ، بكامل قوتها ، وجودة نظامها وتدريبها ، لتغير الموقف ، غير أن تدميرها لم يكن بحال من الأحوال من أعمال إسحاق ، فإن أقوى ما قام به من هجمات لم تؤثر فيها ، فقد عانى الصليبيون من المناخ والطرق ما يزيد كثيرا على ما عانوه

(١) Runciman : of . cit . vol III. p. 65 .

(٢) أسد رستم : الروم ص ١٧٢ .

(٣) Gibboms : of . cit . vol . VI p. 406 .

(٤) Ostrogorsky : of . cit . p . 368 .



قبر صلاح الدين بدمشق

من الامبراطور ، ولم يحصل الامبراطور من وراء التحالف مع صلاح الدين إلا على مزايا مادية ضئيلة ، فعلى الرغم من إنه صار فى حوذة الأرثوذكس ، بعض كنائس الأرض المقدسة ،فإن قبرص ، التى استولى عليها اللاتين ، أصبحت قبيل وفاته حليفا له ، وبقيت قونيه فى أيدى المسلمين ، ولم تغير المحالفة مع صلاح الدين ، برغم ماكان لها من أثر على وضع الامبراطورية بالشرق إلا شيئا ضئيلا [1] . أما النتائج السيئة للتحالف مع المسلمين على سمعة البيزنطيين ، فاستمرت زمنا طويلا ، فالواضح أن اللاتين فى سوريا أزعجهم هذا الترابط ، وسعوا إلى التشهير به فى سائر أنحاء أوربا ، إذ أن فردريك بربروسه ، أثناء اجتيازه تراقيا ، بعث إلى ابنه هنرى يطلب إليه أن يحث البابا على أن يدعو لحرب صليبية ضد البيزنطيين ، وما حدث من حرص ريتشارد قلب الأسد وفيليب أغسطس والحملات الصليبية المتأخرة ، على اتخاذ الطريق البحرى ، كان شديد الارتباط بعلاقات إسحاق مع المسلمين[2] ، ولاشك أن ذكرى هذه السياسة تأثر بها رجال الحملة الصليبية الرابعة ، إذ جرى استخدامها للتشهير بالامبراطورية الشرقية (البيزنطية) . فطوال القرن الثانى عشر فى زمن الحملة الصليبية ، سنة ١١٠١ ، وفى أثناء النضال بين بوهمند وبين الكسيوس كومنين ، وبعد الحملة الصليبية الثانية ، جرى تحطيم كل ما لصق بالبيزنطيين من التُّهَم ، التى تشير إلى ممالأتهم للمسلمين ، أما فى هذا المثال الأخير (التحالف بين إسحاق وصلاح الدين) فإن هذه التهم لقيت التبرير، إذ أن المحالفة أدت إلى التداعى الظاهرى فى مكانة الامبراطورية والتقدير الذاتى لها .

فمن ناحية النظريات السياسية قلما اعترفت بيزنطة بدولة أنها ندٌّ لها منذ زمن الساسانيين ؛ لأن الامبراطورية الرومانية ليست إلا أداة - اختارها الله ، لنشر المسيحية فى العالم وإدارته ، وما من دولة تستطيع أن تقترب منها إلا على أنها خادم تابع ذليل .

ولما حاول الأباطرةُ البيزنطيون التماس صداقة صلاح الدين ، سعوا إلى أن يبقوا على هذه الصورة ، مثلما حدث حينما طلب أندرونيكوس من صلاح الدين أن يبذل له الولاء ، وحينما أرسل إسحاق تاجا ، يقترن بتصريح ينطوى على فكرة أن بيزنطة لا زالت تحتفظ بحق منح الألقاب الشرعية أو منعها ، ولما تجاهل صلاح الدين هذه الأمور أو أنكرها ، فإن واقع الموقف وحقيقته لم تلبث أن ألزم بيزنطة بأن تتخذ وضع التابع الذليل ، نظرا لأنها أضعف شأنا ، وقبل إسحاق كرها ما أنزله الصليبيون والجرمان من الخراب

(١) Munciman : of . cit . vol VI. p. 374 .

(٢) Muvciman : of . cit . vol III p. 13,14

بأراضيه ، لما كان يأمله من أن – صلاح الدين سوف يكافؤه على أنه خدمة بإخلاص[1] لم تجد كل محاولة للتوفيق بين دعاوى البيزنطيين وواقع الأمور السياسية . فدعوى السيطرة جرى اغفالها ،، حينما تضاءل كبرياء أندرونيكوس ، وليس أدل على ذلك من أن المؤرخ البيزنطى نكيتاس لم يشر إلى التحالف مع صلاح الدين ، على الرغم من أنه كان من كبار موظفى الدولة البيزنطية ، ولابد أنه وقف على كل ما يعتبر معروفا بصفة عامة فى الغرب .

وهكذا فشل التحالف بين البيزنطيين والمسلمين ، ضد العدو الدخيل (اللاتين) إذ كان صلاح الدين من البعد ما يجعل من العسير عليه أن يحمى إسحاق من أعدائه، ولم تكن أحوال البيزنطيين تسمح لهم بإبداء مقاومة عنيفة للصليبيين ، أما تقدير المسلمين لقيمة هذا التحالف فظهر فى صراحة فى رسالة القاضى الفاضل التى حررها حينما كان جاى ملك قبرص حليفا لصلاح الدين ، بقوله : « ينبغى ألا يجعل مفاوضاتنا مع حاكم القسطنطينية ، فيما يتعلق بالمساعدة التى لا بد أن تبذلها لـه لمهاجمة قبرص ، لأننا لم نعده بهذه المساعدة إلا حينما كانت البلاد (قبرص) فى أيدى أعدائنا ، والواقع أن الملك اليونانى لم ينجح مطلقا فى حملاته ومعاركة ولم نجنِ شيئا من صداقته ، ولن تخيفنا عداوته» [2].

وتقدير إسحاق لقيمة هذا التحالف أشد عبوسا إذ « يبدو لامبراطوريتى أن النتيجة الوحيدة التى نجمت عن صداقتى لك ، أنها جرت على كراهية الفرنج وجميع أجناسهم» [3]وما حدث من التحالف مع صلاح الدين زاد فى كراهية الغرب للبيزنطيين ، والتى بلغت ذروتها فى تحول الحملة الصليبية الرابعة ، واستيلاء اللاتين على القسطنطينية ، وما حدث من قبول إسحاق ، القيام بدور ثانوى فى محالفته هيأ الطريق مرة أخرى ، إلى هبوط مكانة امبراطورية كانت عظيمة، فصارت دولة صغرى فى شرق البحر المتوسط .

---

(١) Ostrogosky : of . cit . p . 360 .

(٢) أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص ١٧٨ .

(٣) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٢١٠ .

الفصل الخامس

بيزنطة وخلفاء صلاح الدين

١١٩٣ - ١٢٥٠م

الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين - العلاقة بين بيزنطة وخلفاء صلاح الدين - الحملة الصليبية الرابعة وتحولها إلى القسطنطينية سقوط القسطنطينية - انقسام الامبراطورية البيزنطية امبراطورية نيقية البيزنطية - امبراطورية طرابيزون البيزنطية والسلاجقة الامبراطورية اللاتينية بالقسطنطينية - سياسة الأيوبيين مع السلاجقة - الأيوبيون والحملة الصليبية السابعة .

الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين :

حينما مات صلاح الدين ، فى ٤ مارس ١١٩٢ ، تمزقت الوحدة التى فرضها فى امبراطوريته بفضل قوة شخصيته وسلطانه ، وأضحت كل الأقاليم باستثناء الكرك ، مستقلة . وترتب على ذلك أن صار لبلاد الشام بناء سياسى من نوع خاص إذ أصابها من الانقسام ، ما اتصف به قبل زمن السلاجقة ، وما حدث من الاضطرابات التى ولدتها المنازعات فى البيت الأيوبى ، وأطماع بعض أفراده وحرص أميرى حلب ودمشق على المحافظة على استقلالها من أطماع أقاربهما الأقوياء فى مصر والجزيرة ، كل ذلك جعل هذه المرحلة من تاريخ الأيوبيين تتسم فى الظاهر بالفوضى والاضطراب ، على أن ما يجعل لهذه الرحلة شيئًا من التماسك ما اتصفت به الأسرة الأيوبية فعلا من الترابط ، الذى زاده قوة ومتانة ، ما حدث من المصاهرات التى انعقدت بين أفراد الأسرة ، وما كان للإدارة التى تتسم بالروح الدينية من تأثير قوى ، بفضل تمسكها بتقاليد نور الدين وصلاح الدين[1] .

ومن السمة البارزة فى السياسة الأيوبية : المحافظة على علاقات المسالمة والمهادنة مع إمارات الفرنج فى الشام ، ولم يحدث إلا قليلا أن اتخذ الأيوبيون خطة مهاجمة الفرنج[2] .

ومن عوامل الاستقرار أيضا ما كان يحدث فى كل جيل من ظهور زعيم قوى فى الأسرة ، كان يظفر فى الوقت المناسب بفرض سلطانه على سائر الأمراء الآخرين على الرغم مما تعرض له فى الأجيال المتتالية من مقاومة عنيفة ، ففى الجيل الأول كان العادل أيوب شقيق صلاح الدين هوالمسئول الأول عن كيان الأيوبيين ، والمعروف أن العادل كان أعظم مستشارى صلاح الدين ، وكان أقوى أفراد الأسرة ، بعد صلاح الدين وأكثرهم كفاية ، فلم تكن مكانته فحسب راجعة إلى مناهضته أبناء صلاح الدين صغار السن ، والذين افتقروا إلى الخبرة والتجربة ، بل لدرايته التامة بأحوال الإمارات الداخلية ، نظرا ، لأنه تولى إدارة مصر وحلب والكرك فى أزمنة مختلفة[3] .

---

(١) Setton : of . cit . vol , II. p. 644.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٧٨ .

Setton: of . cit . vol, II p. 695 .

(٣) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص ١١٠ .

وفى السنوات الستة التالية لوفاة صلاح الدين أمد العادل سلطانه إلى الشام ومصر وحرص على توطيده ، ولما اشتهر به العادل من الكراهية للحرب جعل من الدبلوماسية والتآمر أهم الأسلحة عنده ، وما وقع من المنازعات والمخاصمات بين أولاد صلاح الدين هيأ له أوسع سبيل لاستخدامها[1] .

وفى ٤ أغسطس سنة ١٢٠٠ صار العادل سلطانا على مصر والشام واعترف بسلطنته سائر الأمراء فى الأقاليم ما عدا الظاهر عادى أمير حلب[2] ، إلا أنه لم يسعه إلا الاعتراف بسلطنة العادل سنة ١٢٠٢م بعد أن هدده بمحاصرة حلب[3] ، وما حدث من إخضاع أملاك الفرنج المتاخمة ، لا سيما فى الجنوب ، أبعدت كل خطر حقيقى عن قواتهم المحلية ، والخطر الوحيد الذى يصح الخوف منه ، هو احتمال قدوم حملة صليبية جديدة من جهة البحر ، وكانت مصر أهم ما يشغل بال العادل ، شأنه فى ذلك شأن صلاح الدين ، وظلت العساكر على أهبة الاستعداد فى مصر ، وإذ خشى ما قد يقوم به الصليبيون من غارات جديدة ، تنازل للصليبيين عن يافا والناصرة سنة ١٢٠٤ وعقد معاهدات تجارية مع إيطاليا .

العلاقة بين بيزنطة وخلفاء صلاح الدين :

الواقع أن للأحوال السياسية بأوربا الغربية تأثيرا كبيرا على اتجاهات السياسة البيزنطية ، ومن الدليل على ذلك أن ما جرى من أقدام أسرة أنجليوس على التحالف مع صلاح الدين وانتهاج سياسة مُوَالِيَة للشرق ، أثار المتاعب لبيزنطة ، ذلك أن أباطرتهم لم يكن لهم من الطباع والخلال ما اتصف به أباطرة أسرة كومنين ، فلم تكن سياستهم موالية للاتين ، بل إن إسحاق أنجيلوس أرسل بعد وفاة صلاح الدين إلى العزيز عثمان سفارات وكتبا دلت على استمرار المودة وأشار فيها إلى اهتمامه بأمر الشعائر الإسلامية أخذ يوصيه خيرا بالروم فى الدولة الأيوبية[4] . وإذ أضعف بيزنطة ما نشب بداخلها من حروب داخلية وحملاتها الفاشلة فى البلقان ، لم يعد بوسعها أن

---

(١) Setton : of cit . vol . II. p. 695.

(٢) أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص ٢٣٧ .
المقريزى : السلوك ج ١ ص ١٤٩ .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ١٥٩ .

(٤) المقريزى : السلوك ج ١ ص ١٢٩ .

تنـاهض أطماع بيت هوهشتـاوفن[1] . وبـازديـاد تـدهـور وضع الصليبيين فى سـوريـا وفلسطين ، والفشل النسبى الـذى حـاق بـالحملـة الصليبيـةالثـالثـة ، اشتـد الاهتمام بالامبراطورية البيزنطية[2] . فما جـرى من مخاصمات سياسيـة ، ومـا وقع من منافسـات تجارية ، وما حدث من الانشقاق بين الكنيستين الشرقيـة والغربية كل ذلك خلق وضعا جعل اشتراك الغرب فى قيام بهجوم على الامبراطورية البيـزنطية أمرا وشيك الوقوع ، فلم تكن الحرب الصليبية الثالثة إلا ستارا لأطماع فردريك بربروسه الذى خطب لابنه وريثة مملكة صقلية ، تمهيدا لاتحا د ألمانيا وصقلية تحت حكم أسرة واحدة[3] ، وحينما تهيأ سنة ١١٨٨م للخروج اتصل بـالامبراطور البيزنطـى ، كيما ييسر له اجتياز بـلاده ، كما وطد علاقته بسلطان سلاجقة الروم فى قـونيه ، وتحالف مع بلغاريا ، فى عدواتها لبيزنطة ، ولما لم يكن بـوسع إسحاق أنجيلـوس أن يسانـد الحركة الصليبيـة تجهز فردريـك بربـروسه لمهاجمة إسحاق الذى تجرد من الكياسة الـدبلوماسية ، وأساء استخدام الموقف ، وكتب فردريـك إلى ابنه هنرى بأن يبعـث بأسطول لمهـاجمة القسطنطينية من جهةالبحـر ، فلم يسع الامبراطور إسحـاق أنجيلوس إلا أن يقبل شروط فـردريك ، ووقع معاهـدة أدرنه ١١٩٠م ، وبذا توقع فردريك بربروسه ما وقع سنة ١٢١٤ من أحداث[4] .

أعد هنرى السادس بن فردريك بربـروسه حملة صليبية جديدة لفتح القسطنطينية والاستيـلاء على الامبراطـورية البيـزنطيـة ، قبل المضى إلى سـوريـا وفلسطين ، ولم يسع الامبراطور البيزنطى الكسيوس الثـالث أنجيلوس (١١٩٥-١٢٠٣) إلا المبادرة بتلبية مطـالب هنرى ، التـى اقتضت تأدية إتـاوة بـاهظة ، ومع ذلـك فإن هنرى حـرص على توطيد مركزه فانتمى إليه ملكا قبرص وأرمينية الصغرى .

ولم ينته الخطر إلا بوفاة هنرى الفجائية سنة ١١٩٧[6]. على أن القوات الصليبية لم يوجهها للإفادة من متاعب بيزنطة سوى البندقية ومطامعها ، فما كان من تمزقالامبراطوريـة البيزنطيـة وانـقسامها ، هيـأ الفرصة لتفـوق البندقيـة البحرى وللقيـام بهذا العمل ، فى

---

(١) Camb. Med . Hist . IV. P. 441 .

(٢) Setton : of . cit vol . II p. 146-147 .

(٣) Setton : of . cit vol . II p. 147.

(٤) Setton : of . cit vol . II p. 148 .

(٥) Camb. Med . Hist .Vol . IV. P. 114.

(٦) Setton : of . cit . vol II p. 149 .

القرن الثالث عشر[1] . فلم تكن الحملة الرابعة مفاجأة للدوائر الدبلوماسية فى الغرب ، إذ أن الأحوال الداخلية للامبراطورية البيزنطية كانت شديدة الملائمة لهذا الهجوم ، فقد ازدادت -الامبراطورية ضعفا فى عهد آل أنجيلوس ولا سيما فى عهد إسحاق الذى انهارت فى عهده الامبراطورية البيزنطية ، وفقدت توازنها الاقتصادى ، ودب الفساد فى جهازها الحكومى ، وشبت الثورة فى بعض النواحى ولا سيما فى بلغاريا[2] واستغل الكسيوس أنجيلوس شقيق الامبراطور هذه الفرصة فاستولى على العرش بعد أن عزل إسحاق واعتقل ابنه الذى استطاع الفرار إلى زوج شقيقته فيليب فى ألمانيا[3] .

والمعروف أن الحملة الصليبية الرابعة كانت تهدف إلى الاستيلاء على بيت المقدس ومصر[4] ، ولكن ما تعرضت له مصالح البندقية التجارية بالقسطنطينية من مناهضة ، أثار مخاوف البنادقة ، وأدركت أنه لا سبيل إلى المحافظة على امتيازاتها إلا بالإسهام فى القضاء على حكومة القسطنطينية ، فحرصت على تحويل اتجاه الحملة عن مصر إلى بيزنطة[5] ، هذا فضلا عن العداء الشخصى الذى يكنه الدوق داندلو الذى كان يتولى أمر البندقية ، كما أن للبندقية علاقات تجارية واسعة مع مصر ، من مصلحتهم المحافظة عليها بل إن البنادقة عقدوا معاهدة مع السلطان العادل ، وأكد دوج البندقية أنه لا ينوى القيام بأى عمل أو الاشتراك فى أى حملة موجهة إلى مصر[6] ، كما أن كراهية البندقية للامبراطور البيزنطى الكسيوس الثالث ، بلغت من المرارة أنها اعتقدت أنه لابد لها أن تنفرد بتجارة القسطنطينية ،يضاف إلى ذلك ما أحس به البنادقة من تزايد نفوذ جنوه وبيزا فى بيزنطة[7] .

ومهما يكن من أمر فقد تعهدت البندقية بنقل الحملة ومدها بالمؤن فى مقابل ٨٥ ألف مارك ونصف ما يجرى فتحه من البلاد[8] ، ولكن عجز الصليبيين عن دفع

---

(١) Camb : Med . Hist . vol IV. P. 411 .

(٢) Grousset : of . cit . Tome . III p. 17 .

(٣) Runciman : of . cit . vol III . p. III .

(٤) Setton : of . cit . vol II . p. 151 .

(٥) كلارى (روبرت) : فتح القسطنطينية ص ٤٠ .

(٦) أرسل العادل رسولاً إلى البندقية فأكد له رفضهم الاشتراك فى أى حملة تقصد مصر .

Runciman : of cit. III. p . 112 .

(٧) Runciman : of . cit . vol III. p. 113.

(٨) كلارى : فتح القسطنطينية ص ٤٥ .

القسط الأول بسبب وفاة كونت شمبانيا شجع البندقية على العمل لتحويل اتجاه الحملة من مصر إلى القسطنطينية للاستيلاء على زارا[1] ، رغم إصدار البابا قرار الحرمان لكل من يستولى على أرض مسيحية ، وتقرر استدعاء الكسيوس أنجيلوس ، الذى كان يقيم عند زوج شقيقته فيليب امبراطور ألمانيا ليكتسب الهجوم صفة شرعية[2] ، واغتنم رجال الحملة فرصة قلة الأقوات وطلبوا أن تكون وجهة الحملة القسطنطينية ولقى هذا الطلب استجابةً من مونتفرات قائد الحملة ومن عدد من الصليبيين فى حين عارضه آخرون ، رأى المؤيدون أنهم لن يستطيعوا المضى إلى القاهرة أو الإسكندرية وبلاد الشام نظرا لنفاذ ما معهم من ذخيرة أو أموال بعد أن أنفقوا كل ما عندهم بسبب تأخيرهم ، فضلا عما بلغهم عن ثراء بيزنطة الذى بهر الغربيين ، ويشير روبرت كلارى أن فريقا عارض فكرة المسير إلى القسطنطينية قائلا (ماذا سنفعل فى القسطنطينية ، لقد رسمنا خطتنا على أن نذهب إلى القاهرة أو الإسكندرية ، خلال سنة واحدة ، وها قد انقضى من العام نصفه[3] ولكن إزاء إغراء دوق البندقية ووعوده للصليبيين بأنه سيمكنهم بعد استيلائهم على القسطنطينية من السير إلى بيت المقدس ومصر ، تقرر عقد اتفاق بينهم وبين الكسيوس تضمن تعهد الامبراطور المطالب بعرش الامبراطورية بدفع ٢٠٠ ألف مارك ، و إعلان تبعية الكنيسة الشرقية للغربية ، و إرسال عشرة آلاف جندى بيزنطى معهم لمحاربة المسلمين واستخلاص بيت المقدس ، كما تكفل بتموين جميع من يغادورن القسطنطينية إلى الأراضى المقدسة ، وذلك فى مقابل تنصيبه على عرش الامبراطورية .

انسحب بعض القادة احتجاجا على انحراف الحملة عن غرضها الأساسى واتجاهها لمحاربة بلد مسيحى وانفصلوا عنها واتجهوا إلى بيت المقدس ومن هؤلاء ريجنالد وتيرال ، ولكنهم كانوا قلة[4] .

مضت الحملة لمحاصرة القسطنطينية وطلبت من الكسيوس التسليم بحق إسحاق ولكن الكسيوس رفض ، ولم يكن بالشخص القدير ، ولم يكن جيش الامبراطورية قد

---

(١) Gibbon : of . cit VI p. 419 .

(٢) Ostrogorsky : of . cit . P . 376 .

(٣) كلارى : فتح القسطنطينية ص ٤٥ .

(٤) Runciman : of . cit . vol III . p. 116.

استعاد قوته بعد هزيمة مانويل وأصبح غالبيته مـرتزقة فلم يصمدوا وهرب الامبراطور وسقطت القسطنطينية وتم تتويج الكسيوس وأبيه أنجيلـوس فى مقابل وفائهما بما التزما بـه ، وحصلوا من الكسيـوس على مائة ألف مـارك اقتسموهـا مناصفـة ، وطلب منهم الكسيوس فتح بقية الامبراطورية مقابل مكافأة مالية ضخمة ، وعاث بعض الصليبيين فسادا فى المدينـة فأحرق بعض الفرنسيين الجامـع المقام فى القسطنطينية الـذى تبودلت بين صلاح الدين وأندرونيكس وإسحاق الرسـائل بشأنه ، واستمر الصليبيون والبنادقة فى مطالبة الكسيوس بالمال ، وكـان الامبراطور استنفذ الأموال فى استرداد المدينة وطلب من الدوق الرحيل بينما ظل الدوق يتهدده ويذكره بما له عليه من الأيادى .

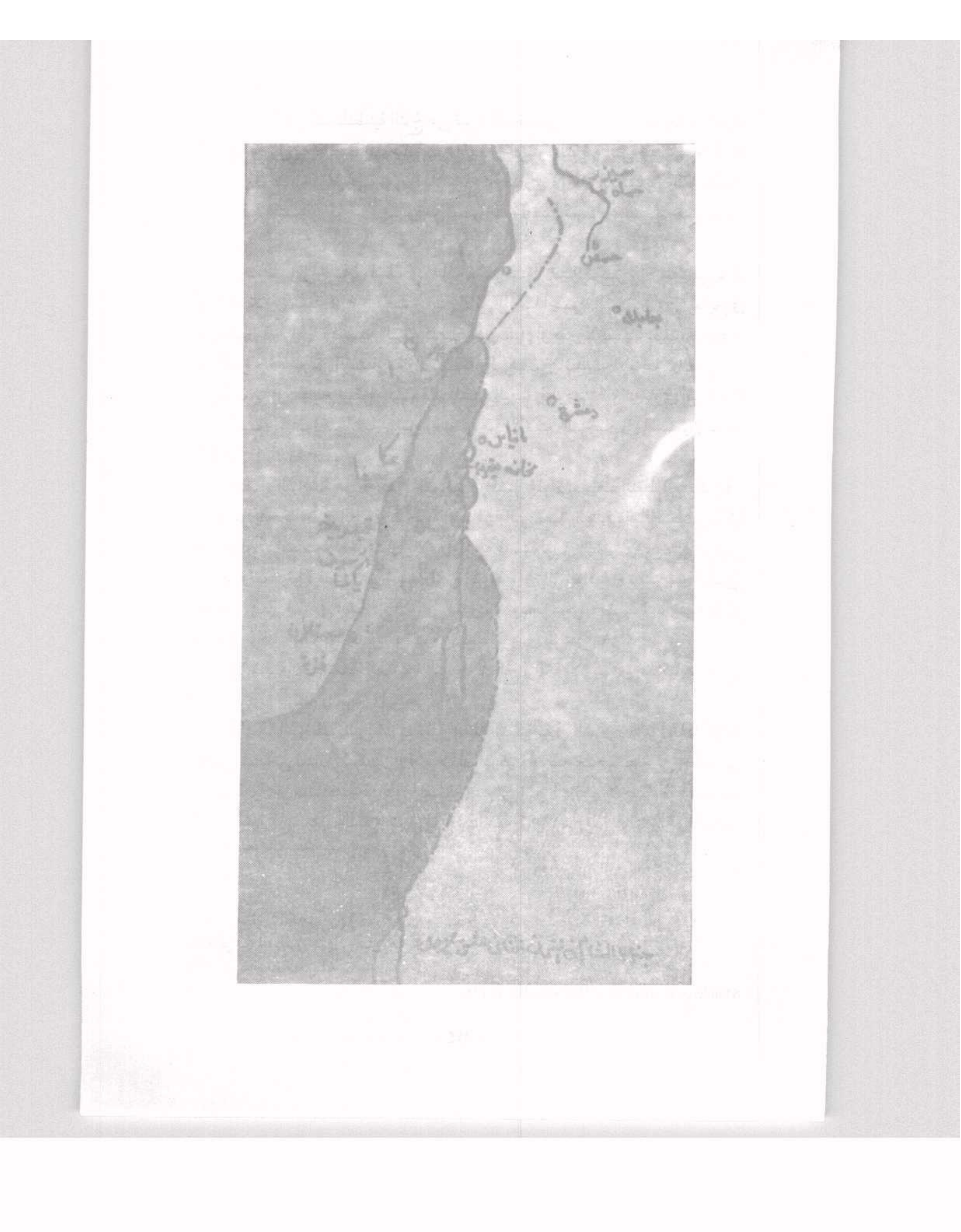
أخذ الامبراطور يماطل فى دفع تعهـداته ، بينما اعتبر اليونانيون الامبراطـور صديقا للصليبيين المعتدين ، فتآمـر عليه جماعة من اليونانيين وقتلوه ، ولم يمـد له الصليبيون يد العون ،وعاد الصليبيون إلى محاصرة القسطنطينية وسارعت البنـدقية إلى عقد اتفاقية قبل سقوط المدينة ، كـان من شروطها الحصول على ثلاث أربـاع الغنيمة والاحتفاظ بجميع الامتيازات التجارية وأن ينتخب الامبراطور مجلسًـا من الفرنسيين والبنادقة ، والحصول على كنوز أيا صوفيا وانتخاب البطريك منهم[١] .

سعى البيزنطيون (فى القسطنطينية) إلى الاستنجاد بأعـدائهم القدامى السلاجقة فلم يمد السلطان العون إلى أعدائه القدامى بل اعتبرها فرصة سانحة لإذلالهم[٢] .

---

(١) ديل : البندقية ص ١٣٦ .

(٢) ابن الأثير / الكامل ج ١٢ ، ص ٧٩-٨٠ .



عرض أهل القسطنطينية التاج على ثيورد لاسكـارس ، فرفضه لعلمه بعدم جدوى المقاومة وفرّ إلى نيقية ، وبذلك سقطت عاصمة الحضارة الشرقية التى ظلت تسعة قرون عاصمة للحضارة المسيحيـة ومركزا للإشعاع الحضارى ، وقـام الفرنسيون والفلمنكيون والبنادقة بـاغتصاب كل ما وجـدوه من ثــروات ولم تسـلم من عبثهـم حتى كنيسة أيا صوفيا[1] .

وحـرص المؤرخـون المسلمـون على أن يشرحـوا أهميـة سقـوط القسطنطينيـة فى أيدى الـلاتين سنـة ١٢٠٤ ، فيشير ابـن الأثير إلى مـا أجـراه الـلاتين من المذابح فى اليونـانيين (الروم) ، فأصبح الـروم كلهم ما بين قتيل أو فقير لا يملك شيئـا ... وخرج إلى الفـرنج جماعة من القسـاوسة والأسـاقفة والـرهبان وبأيـديهم الإنجيل والصليب ، يتوسلون بها إلى الفرنج ليبقوا عليهم فلم يلتفتوا إليهم وقتلوهم[2] ، كما يروى أبو شامة: «أن الفـرنج بـاعـوا كثيرا ممـا نهبـوه وغنمـوه من الآلات والـرخـام إلى المسلمين بمصر والشام»[3] .

حصل البنادقـة على أخصب الأراضى وأفضل الموانىء وأهم النقط العسكـرية ، فأصبحوا يتحكمون فى الطـرق البحرية الأساسية التى تصل البندقيـة بالقسطنطينية كما أنهم كفلوا لأنفسهم وضعا ممتـازا بالامبراطورية فاستـولوا فى البحر الإيجى على أبيروس وكورفو وكيفالونيا ، فضلا عن شبـه جزيرة المروة ، والجزائر الواقعة جنوب بحر الأضيل وغربه ، وصار لهم على الساحل الأوربى للدردنيل وبحر مرمره ، جاليبولى ، وهراقلية ثم أدرنه فى تراقيا ، وانتزعوا جزيرة كريت من بونيفاس دى مونتفرات[4] .

ولا شك أن للحملـة الصليبية الـرابعة نتـائج بـالغة الأهميـة فى علاقـات الشرق الإسلامى مع بيزنطة والغرب المسيحى[5] .

فالدولة البيزنطيـة التى كانت تعتبر معقل المسيحية فى الشرق ، والتى طالما أثارت العـالم المسيحى لقتال المسلمين ، لم تلبث أن أدركت أن مـا تعـرضت له من خطـر من قِبَلِهِمْ يفـوق ما صـادفتـه من قِبَلِ المسلمين ، حتى آثـر البيزنطيـون صـداقة أعـدائهم القدامى من المسلمين والسلاجقة ، وما حدث سنة ١٢٠٤ من تفكك بيزنطة وانقسامها

---

(١) Runciman : op . cit . vol III. p. 125 .

Setton : op . cit vol II. p. 611 .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص ٨٠ .

(٣) أبو شامة : الذيل على الروضتين ص ١١١ .

(٤) ديل : البندقية ص ٢٤ .

(٥) Saunders : J AHistory of Medival islam p. 178.

إلى إمارات عـديدة كان فى الـواقع بداية لتـداعيها وتـدهورها ثم زوالها آخـر الأمر على أيدى العثمانيين سنة ١٤٥٣م .

ودل سقـوط القسطنطينيـة سنـة ١٢٠٤ فى أيدى الـلاتين على زوال عهـد الـروح الصليبية ، وتغلب المصـالح الاقتصادية والشخصيـة والسياسية عنـد الصليبيين فضلا عن حرمان الصليبيين بالشـام من قوة كانت دائما تسـاندهـم[1] ، على أن الـلاتين فى الشرق فـرحوا حينما أصبحت القسطنطينيـة بأيدى الـلاتين ، وبذا لا تخضع الحمـلات الصليبية لتحكم الأبـاطرة البيزنطيين ، ويشير ابن الأثير إلى أهمية سقـوط القسطنطينية وإلى أنـه خرج فى تلك السنـة كثير من الفرنج فى البحـر إلى الشام وسهل الأمـر عليهم بذلك ، لتملكهم القسطنطينية[2] .

انقسام الامبراطورية البيزنطية :

كـان للحملـة الصليبيـة الـرابعـة وقيـام المملكـة الـلاتينيـة بـالقسطنطينيـة (١٢٠٤-١٢٦١) أهمية كبيرة فى تطـور العلاقـات بين الأيوبيين والبيـزنطيين ، ولاسيما بعد أن دخل فى السيـاسة العـالمية ، عناصر جـديدة ، واختفت عـوامل كانت معـروفة بتأثيرها فى مجرى الأحداث فى الشرق الأوسط ، ومن هذه العـوامل أن بيزنطة لم تعد دولة متحدة مثلما كـانت من قبل إذ اختفى مـا كان يعـرف بالامبراطـورية البيزنطيـة ، وحل مكأنها دويـلات اتخذت أسماء مختلفـة ، ذلك أنـه تـرتب على استيـلاء الصليبيين على القسطنطينيـة فى الحملة الصليبيـة الـرابعة سنـة ١٢٠٤ ، وقـام على أنقـاضها إمـارات فرنجية (لاتينية) إمارات يونانية[3] .

فشلمت إمارات الفرنج ، الامبراطورية اللاتينيـة بالقسطنطينية ومملكة سالونيكا ، وإمـارة إخيا فى شبـه جزيـرة المورة ، ودوقية أثينـا وطيبـة فى وسط بلاد اليـونان ، وامتـد سلطان البنادقة إلى الجزائر البيزنطية فى بحر إيجه وبحر أيونيان وجزيرة كريت ، وبعض المواضع الساحلية والداخلية[4] . ومن نتـائج سقوط القسطنطينيـة فى أيدى الصليبيين أيضا أن صـار للبندقية مقابل اشتراكهـا فى الحملة الرابعة ، ثـلاث أثمان القسطنطينية ، وكان هـذا القدر سببا فيما اتخذه الـدوق من لقب لنفسه ، كما أن بطريـرك القسطنطينية

(١) Runciman : of . cit . vol III p . 120 .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص ٨١ .

(٣) Gibbon : of . cit . vol . VI . p. 452 .
Grousset : of . cit . Tome III p . 175 .

(٤) Vasiliev : of . cit . p . 566.

صار يختار من البنادقة ، واكتملت سيطرة البندقية التجارية على البحر المتوسط بما صار لها من سيادة على أسواق بيزنطة ، وعلى الطرق البحرية ولا سيما التى تربط بينها وبين مصر ، بعد استيلائها على مودون وكورون ، وشرائها جزيرة كريت والاستيلاء على يوبيا وجاليبولى فأضحى للبنادقة امبراطورية تجارية استعمارية فى البحر المتوسط(١) .

ومن الدليل على ما للبنادقة من نفوذ فى القسطنطينية أن بلدوين آخر امبراطور لاتينى بالقسطنطينية ، جعل ابنه رهينةً لدى البنادقة مقابل مبلغ من المال ، كما أفاد البنادقة من المنازعات(٢) الناشئة بين القوى المختلفة .

أما الإمارات البيزنطية اليونيانية ، فكان منها بآسيا الصغرى ، امبراطورية نيقية وامبراطورية طرابيزون ، ومنها بشمال بلاد اليونان ، إمارة أبيروس ، ولاشك أن هذه الإمارات اليونانية كانت أكثر الإمارات اتصالا بالدولة الإسلامية فى الشرق .

والمعروف أن بلدوين كونت فلاندر أضحى امبراطورا على القسطنطينية وسيدا على الشطر الأكبر من تراقيا ، وولى بونيفاس مونتفرات حكم سالونيكا ، وامتد سلطانه إلى مقدونيا وتساليا ، بينما حكم فى المورة وليم شامبليت ، وصار أوتون دى لاروش سيدا على أثينا وطيبة(٣) ،وتولى حكم الممالك البيزنطية اليونانية ، تيودور الأول لاسكاريس فى نيقية والكسيوس الأول كومنينوس فى طرابيزون ، وميخائيل الأول أنجيلوس دوكاس كومنينوس فى أبيروس .

يضاف إلى هذه الإمارات اللاتينية واليونانية الامبراطوية البلغارية الثانية التى توالى على حكمها كالوجان ، ويوحنا أصن الثانى ، ثم سلطنة السلاجقة فى قونية ، وأسهمت هاتان الدولتان فى الحياة الدولية المعقدة التى سادت ما قام من إمارات على أنقاض الامبراطورية البيزنطية وتحكمهافيها ، وماكان من علاقات بينها وبين الغرب المسيحى ، والشرقى الإسلامى(٤) ، ومن هذه العوامل أيضا ، ما وقع بين هذه الإمارات فى القرن الثالث عشر من مصادمات ، إذ دأب اليونانيون على مهاجمة الفرنج والترك والبلغار الذين اعتبروهم دخلاء ، ونشبت المنازعات أيضا بين اليونانيين أنفسهم ، فما

---

(١) Miller : Trebizond the last Greak Empire p. 116 .

(٢) Miller : Essays on the Latin orient p. 99 .
Bayna byzantium p 37.

(٣) Vasiliev : of . cit . P. 506 .

(٤) Vasiliev : of . cit . p .506, Diehl : of . cit . p . 139 .

وقع بينهم من اختلاف قومى أضاف إلى الحياة عاملا جديدا من عوامل التمزق والتفكك فزاد الحياة اضطرابا ودار القتال بين الفرنج (اللاتين) والبلغار وترتب على كل هذه المصادمات الحربية ، قيام محالفات دولية ، غير أنها لم تلبث أن تحطمت[1] .

ولابد هنا من استعراض الأوضاع السياسية والعسكرية والاقتصادية فى إمارات الشرق الأوسط ، سواء كانت مسيحية أو إسلامية حتى يتسنى دراسة ما كان من علاقات بين البيزنطيين والأيوبيين فى هذه المرحلة الممتدة منذ أوائل القرن الثالث عشر إلى سقوط الدولة الأيوبية سنة ١٢٥٠ ، والظاهرة الملموسة أن العلاقة تكاد تنحصر فى علاقات تلك الدول بدولة السلاجقة فى آسيا الصغرى .

امبراطورية نيقية البيزنطية :

المعروف أن مؤسس امبراطورية نيقية البيزنطية هو تيودور لاسكاريس الذى ينتمى إلى بيت الإنجيليين عن طريق زوجته آنه ، ابنة الامبراطور الكسيوس الثالث من جهة ، و إلى بيت كومنين عن طريق الكسيوس الثالث من جهة أخرى . وليس معروفا أصل أسرة الأشاكرة (لاسكارس) المالكة ولا اسم موطن تيودور[2] ، وكل ما هو معروف أن تيودور كان قائدا عسكريا استبسل فى قتال الصليبيين ، أثناء الحملة سنة١٢٠٤ ، ورشحه رجال الدين اليونانيون بالقسطنطينية ، كيما يكون امبراطورا ، بعد فرار الامبراطور الكسيوس دوكاس مورتزوفلوس غير أنه كان قد هرب إلى آسيا الصغرى عقب سقوط القسطنطينية ، ولحق به ، فرارا من الصليبيين عدد كبير من نبلاء بيزنطة العسكريين والمدنيين ، وبعض كبار رجال الكنيسة ، وغيرهم ممن كرهوا الخضوع للحكم الأجنبى[3] ، أما البطريرك اليونانى وهو يوحنا كوماتيروس فلجأ إلى بلغاريا ، ولم يلب دعوة تيودور بالقدوم إلى نيقية .

وحكم تيودور لاسكاريس فى نيقية من سنة ١٢٠٤ حتى سنة ١٢٢٢ ثم تلاه ، على الحكم صهره زوج ابنته إيرين ، يوحنا الثالث دوكاس فاتا تزيس١٢٢٤-١٢٥٤، وهما أعظم أباطرة نيقية ، وأنبههم شأنا وأكثرهم اتصالا بموضوع الرسالة ، ثم أعقب

---

(١) Vasiliev : of . cit . p . 507, 508 .

Runicman : of . cit . vol 3 p . 112 .

(٢) اشتهر تيودور لاسكارس بالنسبة للمؤرخين العرب باسم الأشكرى وأطلق اللفظ على بقية حكام الأسرة ابن الأثير : ج ١٢ ص ٨٠ .

(٣) Setton: of . cit . vol . II .p. 21 .

يوحنا ابنه تيودور الثانى ١٢٥٤ / ١٢٥٨ - ثم حفيده يوحنا الرابع (١٢٥٨-١٢٦١) وكان صغير السن ، واستطاع خلفه ونحائيل باليولوجس أن يستعيد القسطنطينية من أيدى اللاتين سنة ١٢٦١[١] .

والواقع أن وضع الدولة الجديدة فى بثينيا كان بالغ الخطورة ، إذ هددها من جهة الشرق سلطان السلاجقة فى قونية الذى ملك كل الأجزاء الداخلية من آسيا الصغرى ، وجزء من ساحل البحر الأسود بشمالها ، وتعرضت دولة نيقية للضغط من الغرب ، من قبل الامبراطورية اللاتينية بالقسطنطينية ، التى جعلت من أهدافها الأساسية تدمير دولة نيقية الناشئة[٢] ، وكان لزاما على تيودور لاسكاريس ، الذى استمر حكمه أربع سنوات ، والذى اتخذ لقب طاغية لا امبراطور ، أن يتحمل عبئا ثقيلا ، إذ سادت الفوضى فى أنحاء بلاده ، وظهر فى الدولة حكام عديدون مستقلون مناوئون ، وأغلقت نيقية أبوابها على تيودور [٣] .

واندلع عصيان اليونانيين والبلغار فى شبه جزيرة البلقان ، واضطر الصليبيون (اللاتين) أن يطلبوا من أوربا الجند التى كانت موجهة إلى آسيا الصغرى لقتال تيودور لاسكاريس ، وحلت بالصليبيين هزيمة ساحقة فى أدرنه سنة ١٢٠٥ هلك فيها زهرة الفرسان الغربيين ووقع بلدوين فى أسر البلغار ، حيث لقى مصرعه[٤] .

ازداد مركز الصليبيين حرجا بعد معركة أدرنه ، فتحطمت آمالهم وزالت سيطرتهم على آسيا الصغرى ، أما البلغار واليونانيون بالبلقان فلم يتحقق لهم إقامة مملكة يونانية عاصمتها القسطنطينية ، بل انفرط عقد التحالف بينهما ، ورأى اليونانيون بالبلقان فى ملك نيقية البيزنطى محررا لهم من اللاتين ورمزا لآمالهم وأمانيهم القومية ، وإذ تحطمت قوة اللاتين بالقسطنطينية ، أضحت نيقية بنجوة من خطرهم ، وتهيأ لها الأمل فى حياة جديدة ، فانصرف تيودور لاسكاريس إلى تنظيم مملكته الناشئة وتقرر تعيينه بطريرك جديد فى نيقية سنة ١٢٠٨ ، وهو الذى توج تيودور ، فى نفس السنة امبراطورا[٥].

---

(١) Setton : of . cit . vol . II . p. 201 .

(٢) Diehl : of . cit . p. 139 .

(٣) Vasiliev : of . cit . p. 508 .

(٤) Setton : of . cit . vol II . p. 203 .

(٥) Vasiliev : of . cit . p . 511 .

أضحت نيقية مقر للامبراطور والكنيسة معا ، فإلى جانب امبراطورية اللاتين بالقسطنطينية قامت امبراطوريته البيزنطية التى أخذت تحتل رويدا رويدا مساحة من أراضى آسيا الصغرى ، ثم صارت أيضا تجتذب انتباه اليونانيين وأضحت معقد آمالهم. ففى المعاهدة التى انعقدت سنة ١٢١٩م بين تيودور لاسكاريس وممثل البنادقة (اليوديشتا) فى القسطنطينية اعترف البنادقة بلاسكاريس امبراطورا . وجاز لرعايا الامبراطوريتين ممارسة التجارة فى بلاد الجانبيين وتقرر إعفاء البنادقة من الرسوم والضرائب ببلاد نيقية ، على حين التزم تجار نيقية بأن يؤدوا الرسوم القانونية فى القسطنطينية وفى أملاك البندقية ، ووعد لاسكاريس بألا يرسل سفنا حربية إلى القسطنطينية إلا بعد موافقة البوديشتا (ممثل البندقية) وألا يستخدم البنادقة جندا مرتزقة إلا بموافقته أيضا[١] .

ولم تلبث العلاقات أن توترت بين الامبراطوريتين فى القسطنطينية ونيقية التى قامتا على أنقاض بيزنطة ، فلم يكن بوسعهما أن يعيشا فى تآلف وسلام ذلك أن نيقية التى تقع على مسافة ٥٠ ميلا من القسطنطينية ، أضحت عاصمة الامبراطورية الجديدة كما أن وقوعها فى ملتقى عدة طرق جعل لها أهمية سياسية خاصة ، واشتهرت نيقية فى التاريخ البيزنطى بما انعقد فيها من مجامع مسكونية ، ثم صارت عاصمة للسلاجقة بآسيا الصغرى أعادها الصليبيون لالكسيوس الامبراطور البيزنطى . فكان امبراطور نيقية امتدادا لسلسلة الأباطرة البيزنطيين . وما تعرضت الامبراطورية اللاتينية من الهزيمة على أيدى البلغار ، ومن تجدد خطرهم على اللاتين ، منع اللاتين من الاستيلاء على نيقية . على أن ما تعرضت له نيقية أيضا من خطر السلاجقة كل ذلك أدى إلى عقد هدنة بين نيقية والقسطنطينية[٢] .

على أن ما نشب من الحرب بين تيودور امبراطور نيقية والسلطان السلجوقى كان بالغ الأهمية ، نظرا ؛ لأن السلاجقة فى قونية كانوا يملكون معظم آسيا الصغرى ، ولم يلق قيام دولة نيقية قبولا عندهم ؛ لأنها حالت دون توسعهم نحو بحر إيجه غربا ، يضاف إلى ذلك أن الكسيوس الثالث أنجيلوس ، صهر تيودور لجأ إلى السلطان السلجوقى يلتمس منه المساعدة لاسترداد عرشه الضائع ، فلم يسع السلطان السلجوقى إلا أن

(١) Setton : of . cit . vol II. p .213 .
(٢) Setton : of . cit . vol II p. 205 .

ينذر تيودور ، ويطلب إليه إعادة العرش للامبراطور الكسيوس ، ودارت معركة عنيفة بين البيزنطيين والسلاجقة على نهر دياطفو فى كاريا . وعلى الرغم من أنه لم يترتب على هذه المعركة تغييرات إقليمية هامة فى جانب تيودور ، فإنها أحيت الأمل فى نفوس اليونانيين فى آسيا وأوربا ، واعتبروا نيقية نواة وحدتهم المقبلة وانتعشت الآمال للاستيلاء على القسطنطينية[1] .

كل ذلك أثار مخاوف هنرى فلاندر امبراطور القسطنطينية ، ولاسيما أنه لم يتوافر له من القوة ما يكفل حماية أملاكه ، على أن ما انعقد من صلح بين هنرى فلاندر امبراطور اللاتين بالقسطنطينية ، وتيودور لاسكارس امبراطور البيزنطيين ، أقر الحدود التى قامت بينهما منذ سنة ١٢٠٤ ، إذ أن الجزء الشمالى الغربى من آسيا الصغرى ظل بأيدى الامبراطورية اللاتينية ، ومات تيودور سنة ١٢٢٠م بعد أن أقام بآسيا الصغرى حكما هيلنستيا ، ووحد الدولة ، وشيد الأساس الذى أقام عليه خليفته يوحنا الثالث دوكاس فانا تزيس (١٢٢٢-١٢٥٤)الامبراطورية بعد اتساعها وامتدادها .

ويعتبر يوحنا الثالث من أنشط أباطرة نيقية ، وحدث فى عهده أن تنازع السلطة أربع قوى : امبراطورية نيقية ، الامبراطورية اللاتينية بالقسطنطينية ، واستبدادية أبيروس ، ومملكة بلغاريا .

وقامت سياسة يوحنا فاناتزيس الخارجية على الحروب من جهة ، وعقد المحالفات من جهة أخرى ، ونجح يوحنا فى معالجة الموقف الدولى المعقد ، بينما فشل خصومه الثلاثة فى البلقان ، لما وقع بينهم من المنازعات حول الحرب والمحالفات[2] .

ففى السنوات الأولى من عهد يوحنا فاناتزيس ، أضحى لنيقية التفوق على امبراطورية القسطنطينية ، بعد أن أنزل يوحنا الهزيمة الساحقة بالخارجين عليه من أخيه تيودور الأول والذين تلقوا التأييد من اللاتين[3] ، فاكتملت له السيادة فى آسيا الصغرى ولم يعد للاتين بمقتضى معاهدة سنة ١٢٢٥ سوى الساحل الأسيوى المواجه للقسطنطينية والقرى التى تحيط بنيقوميديا ، وانتزع أسطول نيقية جزر لسبوس وخيوس

---

(١) Vasiliev : of . cit . p. 510

(٢). Vasiliev : of . cit . p. 518 .

(٣) Ostrogorsky : of . cit . p . 384.

وساموس ، واعترفت رودوس بسيادة امبراطوريته ، وبذا توطدت أركان امبراطورية نيقية برا وبحرا ، وأخذت تتطلع لانتزاع الجانب الأوربى ، وإعادة الامبراطورية البيزنطية[١] إلى سابق عهدها ، وحدث أن اعترفت إمارة أبيروس البيزنطية بسيادة حكومة نيقية عقب سقوط القسطنطينية فى أيدى اللاتين وبذلك زالت أسباب الاحتكاك بين الدولتين البيزنطيتين فى آسيا الصغرى والبلقان ، نظرا لا تفاقهما فى المثل والأهداف ، غير أن تيودور شقيق ميخائيل أنجيلوس حاكم أبيرورس ، لم يلبث أن أنكر ولاءه لنيقية بعد أن تولى العرش حوالى سنة ١٢١٥ وبفضل بسالته استطاع أن يستولى على المملكة اللاتينية فى تساليا ومقدونيا سنة ١٢٢٤ بعد حصار طويل[٢] ، وزعم لنفسه حق الامبراطور البيزنطى وتوجيه القتال ضد القسطنطينية ، وبذا ظهرت مقاومته لامبراطورية نيقية[٣] ، وإذا تهيأ لامبراطور نيقية البيزنطى ، يوحنا فانا تزيس أن يستولى على ادرنه ١٢٢٥ تراءى أن عودة الامبراطورية البيزنطية أضحت وشيكة الوقوع[٤] . لولا أن تعرضت مؤخرة قواته لهجمات أمير أبيروس البيزنطى ، تيودور أنجيلوس الذى أرغم قوات نيقية على الانسحاب بعد أن كاد يتحقق غرضه ، بالاستيلاء على القسطنطينية ، غير أنه تطلع إلى هذا الهدف ، الاستيلاء على القسطنطينية قيصر بلغاريا أصن الثانى (١٢٢٨-١٢٤١) ، ولم يتطلع أصن لما هو أقل من إقامة امبراطورية بيزنطية بلغارية ، تتخذ القسطنطينية حاضرة لها[٥] .

وتم التوقيع على معاهدة التحالف بينه وبين فاناتزيس فى سنة ١٢٣٥ فى غاليبولى[٦] التى استولى عليها مؤخرا فاناتزيس ، وتم زواج تيودور الثانى لاسكاريس ابن الامبراطور البيزنطى فى نيقية من ابنة أصن التى كان مقررا أن تتزوج من بلدوين الثانى امبراطور القسطنطينية[٧] .

تقدم الحلفاء لإلقاء الحصار برا وبحرا على القسطنطينية ، وعلى الرغم من صمود

---

(١) Setton : of . cit. vol II p. 214 .

(٢) Setton : of . cit . vol II p. 214 .

(٣) Ostrogorsky : of . cit . p. 585 .

(٤) Setton : of . cit . vol II. p. 215, Ostrogorsky : of . cit . p. 387 .

(٥) Setton : of . cit . vol II . p. 215 .

(٦) Setton : of . cit . vol II p. 216 .

(٧) Ostrogorsky : of . cit . p. 387 , 388 .

العاصمة بفضل مساندة أسطول البنادقة ، فإن وضع اللاتين أضحى فى شدة الحرج حتى إن بلدوين الثانى غادر المدينة ، ليلتمس المساعدة من الغرب ، ولم ينقذ القسطنطينية سوى ماوقع من نزاع بين المهاجين .

وإذ توفى أصن سنة ١٢٤١ أخذت قوة بلغاريا فى التفكك بسبب إغارة المغول ، ولم يعد يواجه فاناتزيس خطر [١] .

وتوجه يوحنا فاناتزيس على رأس حملة سنة ١٢٤٢ لمهاجمة امبراطورية سالونيكا ، ولما اقترب من العاصمة علم بغزو المغول لآسيا الصغرى ، فاضطر إلى الانسحاب وعقد الصلح مع امبراطورية سالونيكا ، وترتب على هذه المعاهدة أن قبلت امبراطورية سالونيكا التخلى نهائيا عن كل تنافس مع امبراطورية نيقية ، وتنازل امبراطور سالونيكا عن ردائه الامبراطورى ووافق على أن يتخذ اللقب الذى منحه له فاناتزيس[٢] .

على أن الغزو المغولى أثار كل شرق أوروبا والشرق الأدنى فهوت روسيا فى أيدى الغزاه ، وظلت ما يزيد على مائتى سنة خاضعة للتتار لتهديدهم سلطنة قونية المتاخمة من جهة الشرق لامبراطورية نيقية[٣] .

وتعرضت لخطرهم أيضا امبراطورية طرابيزون ، ولم تأمن نيقية ذاتها من خطرهم . وأدى الخطر المشترك إلى عقد محالفة بين يوحنا فاناتزيس وامبراطور طرابيزون وسلطان السلاجقة بقونية سنة ١٢٤٣[٤] ومن الدليل على ضعف الروح الصليبية ، أن السلاجقة استخدموا من اللاتين جنودا مرتزقة بلغ عددهم نحو ألف رجل ، وبلغ من نفوذ اللاتين أنهم أسهموا فى تولية غياث الدين كيخسرو الثانى سلطانا وكاد التحالف يتم بين السلاجقة واللاتين ، لولا أن كيخسرو كان ضعيفا ولم يكن عدوا لفاناتزيس فضلا عن تحالف كيخسرو مع فاناتزيس بعد غارة المغول ، فلم يسعه إلا الاعتراف بسيادة المغول والانتماء إليهم ، بل إن سلطان السلاجقة التزم بدفع الجزية ، وبمقتضى هذه الشروط ، تهيأ لامبراطور طرابيزون وسلطنة قونية السلجوقية أن يحافظا على بقائهما

(١) Setton : of . cit . vol II . p. 223 .

(٢) Setton : of . cit . vol II . p. 223 .

(٣) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٢٤٩ .

(٤) Vasiliev : of . cit . p. 530 , 531 .
ostrogosky : of . cit . p. 390 .

لأن المغول انصرفوا عنهما إلى ما هو أهم مـن المغامرات[1] ، على أن امبراطوريـة نيقية لم تتأثر بكل ذلك ، بل إنها أفادت كثيرا من ضعف جيرانها .

فدخل سـالونيك فى ديسمبر سنة ١٢٤٦ ، دون أن يلقـى شيئا من المقاومـة وبذا اختفت امبراطورية تيـودور أنجيلوس ، الذى اكتفى بالحصول على ضيعـة بالقرب من مودينا[2] .

فكر فاناتزيس فى توحيد الكنيستين الشرقية والغربية سنة ١٢٣٤ مقابل أن يتخلى البابويـة عن الامبراطورية اللاتينية ، غير أنـه لم يلبث أن تخلى عن هذا المشروع ، بعد أن أدرك أن أيام الامبراطـورية اللاتينيـة أمست معدودة[3] . الواقـع أن فاناتـزيس زاد من مساحة امبراطورية نيقية ، إذ أن أملاكه بآسيا الصغرى أضحت مستقرة آمنة بينما خضع لسلطأنـه الشطر الأكبر من شبـه جزيـرة البلقان ، وجـرى التخلص من خصوم نيقيـة السـابقين ، فهـوت امبراطوريـة اليـونـان الغـربية ، ولم يعـد يتعـرض للخطـر من قبل استبداديـة أبيروس ومملكة بلغاريا ، أمـا الامبراطورية الـلاتينية فإنها تحتضر ، إذ بلغ بها الفقر والعجـز أن الامبراطور بلـدوين الثانى رهن ابنـه وولى عهده فيليب عنـد التجار البنـادقـة ، حتى يحصل على قرض يخفـف عنه ضـائقتـه وحـاجته الشـديـدة للمال[4] واقتصرت أملاك الامبراطورية اللاتينية على ما يحيط بالقسطنطينية من بلاد يحيط بها من كل جانب أمـلاك فانـاتزيس امبراطور نيقيـة ولم يبق لاستكمال استعادة الامبراطـورية البيـزنطية إلا القيـام بمحـاولـة أخيرة ، وهى الاستيلاء على القسطنطينيـة التى قـام بها امبراطور آخـر بعد أن أعـد فانـاتزيس كـل الخطوات الـلازمة ، وهو الـذى يرجـع إليه الفضل فى استعادة الامبراطورية البيزنطية[5] .

وما أحـرزه فانـاتزيس من النجـاح فيما اتخذه من التدابير الاقتصاديـة لم يكن أقل شأنا ، إذ أن امبراطورية نيقية شهدت فى عصره من الرخاء المادى مالم تشهده فى سنوات عديـدة ، إذ وجه الامبراطور اهتمامـه إلى إصلاح الزراعـة وتربيـة الماشية وأقام نمـوذجا

---

(١) Ostrogorsky : of . cit . p. 390 , Setton : of . cit . vol II . p. 223 .

(٢) Setton : of . cit . vol II . p. 226 .

(٣) Vasiliev : of . cit . p. 544 , 545 .

(٤) Setton : of . cit . vol II . p. 225 .

(٥) Ostrogorsky : of . cit . p. 393 .

لذلك ، بأن جعل لضِياع الامبراطورية مثالا يحتذى به ،فأظهر لرعاياه ما يتوافر من الثروة من زراعة المحصولات وزراعة الكروم وتربية الماشية[١] ، كما قام بحماية البلاد من الواردات الخارجية ومنع رعاياه من شراء الكماليات الباهظة الأثمان ، ومع ذلك تدفق إلى الامبراطورية المعادن النفيسة والمنسوجات الثمينة ، من سلطنة السلاجقة المجاورة لها ، وعلى الرغم من أن الغزو المغولى خرب الإمارات المجاورة لنيقية فإن هذا الغزو كان بالغ الأهمية للبيزنطيين من الناحية الاقتصادية ، إذ أن الترك اشتروا المواد الغذائية من امبراطورية نيقية ، ودفعوا فيها أثمانا مرتفعة من الذهب والسلع التجارية[٢] ، ولذا لم تفتقر نيقية إلى الأموال ، برغم انغماسها فى حروب مستمرة ، وما ساد من أحوال اقتصادية فى دولة نيقية زمن يوحنا فاناتزيس ، كان أسلم وأصح مما عرفته الامبراطورية البيزنطية زمن أسرة كومنين وأنجيلوس فلم تستنفذ الدولة حيويتها ، وأضحى استعادة الامبراطورية البيزنطية أمرا قريب الوقوع .

امبراطورية طرابيزون البيزنطية والسلاجقة :

ارتبطت امبراطورية طرابيزون البيزنطية بعلاقات عدائية مع جيرانها من السلاجقة، إذ تعرضت لحصار من قبل كيخسرو سلطان السلاجقة لطرابيزون سنة ١٢٠٥ ، ١٢٠٦م ، كما أن السلطان السلجوقى الجديد كيكاوس الأول عمل على التوسع على حسابها ، فاستولى على سينوب ، وذبح دافيد حاكم المنطقة[٣] ، وكان للاستيلاء على سينوب نتائج بعيدة المدى إذ اقتطع السلاجقة جزءا كبيرا من الحدود الغربية لطرابيزون ، ومنعوا اتصالها المباشر بامبراطورية نيقية البيزنطية[٤] .

وفى عهد ثانى أباطرة طرابيزون أندرونيكوس الأول تعرضت العاصمة لخطر القتال المباشر ، إذ أن إحدى سفن طرابيزون المحملة بالجزية من إحدى الولايات البحرية ، وعلى ظهرها أحد الإرخونات وعدد من النبلاء ، تعرضت لعاصفة شديدة فلجأت إلى ميناء سينوب[٥] ، ووفقا للمعاهدة التى عقدها أندرونيكس مع

---

(١) Ostrogorsky : of . cit . p. 394 .

(٢) Vasiliev : of . cit . II p. 546 . Gibbon : of . cit . vol . p . 476 .

(٣) أسر السلاجقة كومنينوس حاكم طرابيزون وتعهد بدفع جزية سنوية للسلطان علاء الدين كيقباذ.
Miller : Trebizond p.19 .

(٤) Vasiliev : The foundation of Empire of Trebizont p. 26 speclum 1933 vol XI .

(٥) Vasiliev : of . cit . p . 25 .

غياث الدين كيخسرو بن السلطان السلجوقى كيقباذ الذى وصل ارتقى عرش قونية سنة ١٢٢٠م[1] ، قام تابعه هيتوم بالاستيلاء على السفينة وشحنتها وبحارتها كما أرسل السفن لنهب خيرسون ، وحين وصلت الأنباء طرابيزون ، حشد أسطولا ، وجهه اندرونيكس إلى سينوب حيث استولى على جميع السفن الراسية فى الميناء .

أعد غياث الدين العدة واتجه إلى طرابيزون ، فى حين حصن أندرونيكس المدينة والطرق المؤدية لها ، حاصر غيات الدين المدينة وهاجمها من جهة البحر ، إلا أن المدينة صمدت للهجوم ، ودعا الامبراطور البيزنطى إلى عقد معاهدة سلام ، ودعا وفدا سلجوقيًا لرؤية المدينة وتحصيناتها ، ولكن لم تلبث أن هبت عواصف دمرت معسكر السلاجقة ووقع غياث الدين فى الأسر ، فاستقبله أندرونيكس بحفاوة بالغة ، وأجلسه بجانبه ، وبعد أن استشار مجلسه ، تقرر إرسال غياث الدين إلى بلاده ، وتجديد الاتفاق السابق بين طرابيزون وقونية ، الذى يقضى بالاعتراف بالتبعية ، وتقديم الخدمات العسكرية والجزية والهدايا ، ووافق غياث الدين الذى أعجب بتقدم طرابيزون .

كانت فترة الاستقلال هذه قصيرة المدى ، فقد تنازع جلال الدين خوارزمشاه السيطرة مع السلطان السلجوقى على غرب آسيا وأصبح جارا لطرابيزون الذى عقد تحالفا معها ، فلما حلت به الهزيمة سنة ١٢٣٠ لجأت بعض قواته إلى طرابيزون ، ولقد كلفت هذه الغلطة أندرونيكس جميع الامتيازات التى حصل عليها من اتفاقه مع مليك، وعادت طرابيزون تابعة لسلطان قونية حوالى سنة ١٢٤٠م[2] .

الامبراطورية اللاتينية بالقسطنطينية :

لم تكن الامبراطورية اللاتينية التى تأسست بالقسطنطينية سنة ١٢٠٤م ، نتيجة للحملة الصليبية الرابعة ، من القوة ما يدعوها إلى مساندة الفرنج فى الشام ، إذ استنفذت جهود المسيحيين من الرجال والأموال ، بل إنها اجتذبت إليها النبلاء الذين استقروا حتى وقتذاك بالشام[3] ، وإذ اتجهت معظم الجيوش إلى القسطنطينية ، كان

---

(١) زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى ، ترجمة زكى محمد حسن وحسن أحمد محمود ج ٢ ص ١٦٣ .

(٢) Miller : of . cit . p. 20 - 25 .
Gibbon : of . cit . vol . VI p. 459 .

(٣) Gibbon : of . cit . vol . VI p . 488-489 .

لزامًا على الصليبيين فى مملكة بيت المقدس أن يلتمسوا دائما الصلح مع المسلمين ، فتكرر عقد المعاهدات بين الجانبين (١٢٠٥-١٢١٠) ١٢١١-١٢١٧ ، ١٢٢١-١٢٢٨ ، ١٢٢٩ - ١٢٣٩)[١] ، وما يدعو إلى الالتفات أن بوهمند الرابع أمير أنطاكية أفاد من الامبراطورية اللاتينية ، حينما تعرض للأخطار والفتن من قبل أمراء أرمينية الصغرى ، ورجال الدين بداخل أنطاكية ، وطوائف الفرسان الرهبان من السبتارية والداوية ، بأن أعلن ولاءه للامبراطور اللاتينى ، وباعتباره الوارث الشرعى للبيزنطيين ، الذين اعتبروا أنطاكية أصلا من ممتلكاتهم[٢] .

والواقع أن ما ساد الامبراطورية اللاتينية من الاضطراب السياسى والدينى ، وما كان من قيامها فى بلاد معادية بين اليونانيين الكارهين للاتين[٣] ، والذين بادروا إلى التماس قادة لهم من الجهات المجاورة فضلا عن ار تكانها إلى ما يتدفق عليها من الغرب من المال والرجال ، واحتمال توقف هذه المساعدة فى أى وقت من الأوقات ، كل ذلك يجعل بقاء الامبراطورية اللاتينية متوقفا على ما يتصف به الصليبيون من بعد النظر السياسى ، ومثال ذلك أن الأباطرة اللاتين اعتبروا أن من السياسة السليمة الإفادة مما وقع بين اليونانيين من المنازعات الطبقية التى سبق أن أدت إلى تدمير الامبراطورية البيزنطية ، كان يساند الفلاحين إزاء سادتهم السابقين ، وبذا تزداد مكانتهم فى الريف ، غير أن هذا الاتجاه كان بعيدا عن تفكير القادمين من الغرب ومع ذلك فإن اللاتين لم يفيدوا مما تهيأ لهم من فرص دبلوماسية وعسكرية[٤] ، وما لجأ إليه اللاتين من رد هجمات البلغار ، إنما أدى إلى تحالف البلغار مع اليونانيين ، يضاف إلى ذلك أن اللاتين بالقسطنطينية ، لم يدركوا أهمية التحالف مع سلاجقة الروم فى قونية ، أما حلفاؤهم من الأرمن فقد غشوهم ولم يحفلوا بما تعرض له اللاتين من أخطار[٥] ، ومع ذلك فإن سقوط القسطنطينية فى أيدى اللاتين أثار الاضطراب والتفكك فى القوى المسيحية بالشرق

---

(١) Setton : of . cit . II. p. 532-533.

(٢) أعلن بوهمند ولاءه لزوجه هنرى شامبينى حين حضروها لبيت المقدس وعين بطريرك إغريقى وكان الإغريق العنصر الغالب فى أنطاكية .

(٣) Ostrogorsky: of . cit . II. p. 370.

(٤) Setton : of . cit . II. p.199-200

(٥) كانت بعض قوات الحملة الرابعة اشتركت مع الصليبيين فى الشرق فى مهاجمة الأيوبيين ، ولكن هذه الهجمات لم تأت بنتيجة تذكر .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص ١٤٦ .

الأدنى ، فمن ذلك ما تعرضت له حمص من الهجوم من قبل الاسبتارية فى حصن الأكراد ، وتصدى الظاهر غازى صاحب حلب لهم ، كما حدث أيضا أن قام القراصنة من جزيرة قبرص بمهاجمة سفن مصرية والاستيلاء على ما تحمله من السلع والأسرى ، زمن الوصاية على عرش بيت المقدس (١٢٠٥-١٢١٠) ، فخرج العادل إلى الشام ، وإذا احتج لدى الوصى على عرش بيت المقدس ، أعلن أن حاكم قبرص يدين بالولاء للقسطنطينية ، وليس له عليه سلطان ، ولم يلبث الصلح أن عاد بينهما[١] . والمعروف أن قيام امبراطورية لاتينية بالقسطنطينية جعل البابا أول الأمر فى وضع حرج ، إذ أن البابا أنوسنت الثالث قاوم تحول الحملة الرابعة لمهاجمة القسطنطينية ، وحرم من الكنيسة الصليبيين والبنادقة بعد الاستيلاء على زارا سنة ١٢٠٢ ، غير أنه لم يلبث أن أقر الأمر الواقع بعد سقوط القسطنطينية فى إيدى اللاتين[٢] ، بل إنه دعا رجال الدين وسائر الملوك والأمراء ، وكل الشعوب والأقوام لمساندة بلدوين امبراطور اللاتين فى القسطنطينية ، أعرب عن أمله فى أن سقوط القسطنطينية سوف ييسر الاستيلاء على الأراضى المقدسة وإعادتها للمسيحيين[٣] على أن البابا ارتاع لما وقع من نهب بالقسطنطينية وما ارتكب فيها من الفظائع ، فضلا عن الطابع الدنيوى ، لمعاهدة التقسيم ، التى استبعدت كل نفوذ وتدخل من قبل الكنيسة[٤] .

وكان من أثر الحملة الرابعة ١٢٠٤ ، أن غلبت الصفة العلمانية على الحركة الصليبية وأن انحرفت عن هدفها ، الذى يقضى بالتوجه إلى الأراضى المقدسة فمنذ سنة ١٢٠٤ ، لم تقتصر أهداف الصليبيين على توجيه قواتهم لمهاجمة المسلمين فى مصر وفلسطين ، بل تحتم عليهم أيضا إرسالها إلى أملاكهم فى بلاد الامبراطورية الشرقية لمساندتها ، فعطل ذلك من حركة القتال ضد المسلمين فى الشرق[٥] وأدرك البابا أنوسنت أن امبراطورية اللاتين بالقسطنطينية ليس بوسعها أن تتولى توجيه حملة صليبية

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص ١١٤ .
ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٣٤١ .

(٢) Runicman : of . cit. vol III p . 128 .

(٣) Runicman : of . cit. vol III p . 128 .
Vasiliev : of . cit. p . 467.

(٤) Vasiliev : of . cit. p . 468

(٥) Vasiliev : of . cit. p . 469 .

للشرق ، نظرا لما تصادفه من متاعب سياسية واقتصادية ودينية[1] .

وإذ ظفرت البندقية بنصيب الأسد عند اقتسام الأملاك البيزنطية ، لم يحل ذلك دون تغيير سياستها مع المسلمين إذ حرص كل من العادل والكامل على المحافظة على العلاقات الطيبة مع البنادقة وجمهوريات إيطاليا .

ففى سنة ١٢٠٧ قام سفير بيزا ماركوتيرتى بعقد معاهدة مع العادل الحدث حرص السلطان على الاستمرار فى تقديم كل التسهيلات اللازمة[2] ، وفى سنة ١٢١٥م ارسلت جمهورية بيزا إلى القاهرة سفيرا آخر ، وكان بسبب قيام الحكومة المصرية بأسر عدد كبير من البيازنة ، وكان قد تم القبض عليهم فى كنيستهم ، وعقدت معاهدة ١٢١٦م حددت فيها امتيازاتهم[3] .

وعقدت البندقية بدورها معاهدة تجارية مع الملك العادل عقدها مارينو داندولو، وبطرس مخائيل ، وهى مجموعة من المراسيم السلطانية التى صدرت فى القاهرة وخطاب أرسل باسم السلطان إلى دوق البندقية[4] ، وتنص النصوص بصورة إجمالية على حماية البنادقة وحسن معاملتهم فى أرض السلطان وعلى حماية من يصحبونهم للحج ، وليس معروفا على وجه التحديد السنة التى عقدت فيها المعاهدة والمرجح أنها سنوات ١٢٠٦-١٢٠٨ و، لكن لما كانت العبارتان اللتان تردد ذكرهما فى هذه المراسيم ، وهما: سيد ملوك المسلمين ، أمير المؤمنين لم تضما إلى ألقاب السلطان سوى فى العام الهجرى ٦٠٤هـ إذ كان تاريخ صدور المرسوم حوالى ١٢٠٨[5] ، وفى نفس العام أرسلت جمهورية البندقية إلى مدينة ، حلب السورية سفيرا خاصا ، يدعى مارينونى ، فقام بعقد معاهدة تجارية مع صاحب المدينة ، وهوالأمير غياث الدين ابن صلاح الدين ، ومنح التجار البنادقة فى مدينتى حلب واللاذقية امتيازات ضخمة[6] ، على الرغم من أن البابا أنوسنت الثالث أشار فى المجمع الدينى الذى انعقد باللاتران سنة ١٢١٥، إلى ما تقوم

(١) Vasiliev : of . cit . p. 469 .

(٢) Heyd : Hist , du commercedu Levant Tome I. P. 404 .

(٣) Heyd : op . cit Tome I . p. 404 .

(٤) Wiet : op . cit . p. 385 .

(٥) Heyd : op . cit . Tome p. 403 - 404

(٦) Heyd : op . cit . Tome . p. 374 - 375

بـه المدن الايطـاليـة من نقل المواد الاستراتيجيـة كـالأخشـاب ، والحديـد ، بل إن من الأيطاليين من خـدموا فى السفن الإسـلامية ، ممـا أضعف الروح الـدينية[1] فتردد على دمياط السفن من أبوليا والبندقية وبلاد اليونان[2] .

ومن الطبيعى أن البنــادقـة لم يقصـدوا إلا مصلحتهم الخاصــة ، فما حـدث من سيطرتهم على القسطنطينية ومودون وكريت ، التـى ليست إلا محطات تجارية فى طريقها إلى مصر إنما قصدوا بـه أن يتخذوا من دمياط والإسكنـدرية ، قاعدة لتجـارتهم بعد أن حصلوا على الامتيـازات الضخمة فى القسطنطينيـة ، وسيطروا على تجارتها ، وظفـروا من طاغيـة أبيروس البيزنطى وامبراطـور نيقية البيـزنطية أيضا على امتيـازات تجارية بـالغة الأهمية[3] ، ولذا أسهمت البنـدقية فى إعداد الحملـة الصليبية الخامسـة ومدها بـالعتاد والرجال والسفن أملا فى أن تخضـع لها مصر مثلما خضعت القسطنطينية إذ وجدت فيه فرصة نادرة للسيطرة على ذلك الثغر التجارى الهام الذى تستطيع أن تنفذ منه إلى داخل البلاد المصرية[4] ، وتزعمت الجمهـوريات الثلاث حـركة المعـارضة عندمـا قدم الملك الكـامل سنة ١٢١٩ عـرضوا الجلاء عن دميـاط والشواطىء المصريـة فى مقابل إعـادة الصليب الـذى كان قـد استولى عليـه صـلاح الدين عنـدما دخل بيت المقـدس ، ورد الأسرى الموجودين فى القـاهرة ودمشق ، وتسليم مـدينة بيت المقـدس مع دفع مبلغ من المال لإصلاح أسوارها ولما أوقع المصريـون بالجيش الصليبى فى سنة ١٢٢١ وسط مياه الدلتـا ، اضطر زعماؤهـا للموافقة على الجلاء .غير أن ممثلى الجمهـوريات الإيطـالية فى الحملة ، رفضـوا التسليم بذلك وهـاجموا قصور الملك والداويـة والاسبتاريـة فى دمياط واستولوا عليها ، ونصبـوا أنفسهـم سادة على المدنية ، ولم يتنازلوا عنهـا إلا عندما شعروا بأن الشتاء مقبل عليهم ، بينما كـانت المؤنة آخذه فى النفـاذ . وكانت جمهورية البنـدقية أكثر حماسا من زميلاتها للبقاء فى مدينة دمياط حتى إنها عندما أرغمت على الانسحاب حرمت على رعاياها التردد على موانىء مصر والتجارة معها[5] .

---

(١) Heyd : of . cit . Tome . p. 403-404 .

(٢) Wiet : of . cit . p 385.

(٣) ديل : البندقية ص ٤٥ .

(٤) Michaud : Histoire des croisades tome III p. 647 .

(٥) Heyd : of . cit . Tome I p . 405-406 .

وهــددت بأقصى عقــوبـات السجـن والنفى والمصـادرة للمخـــالفين ، وأنــزلت فى الإدرياتيك فى ١٢٢٦ أحد سفنها لتتجول باحثة عن مخالف(١) .

على إنـه فى الـوقت الذى كـانت فيـه الجمهـوريـة تتبع سيـاسة معاديــة لمـصر وللتجـارة مع مصر ، كانت تحاول جاهـدة أن تثبت حقوقها التجاريـة فى شمال سوريا، ففى سنة١٢٢٥ أرسلت لتلك الجهـات السفير البندقى تـوماسينو فوسكارينـــى الذى عقد معـاهدات تجاريـة مع الملك العزيـز صاحـب حلـب ، ومع صاحـــب اللاذقيـة وصاحـــب حصـــن سيجـــون حصل البنـادقـة بمقتضـاهـــا على امتيـازات فى تلك الجهات(٢) .

وعندما وجـدت جمهورية البندقيـة أن الامبراطور فردريك الثانى ، عقـد معاهدة سنة ١٢٢٩م مـع الملك الكامل ، قـامت بدورها بـإلغاء قرار تحريم التجـارة مع مصر وأرسلت سفيرا إلى شمال سـوريـا وعقـد معـاهـدة مع صـاحب حلب الملك العـزيـز حصلت بمقتضـاها على امتيـازات أكثر ، وفى سنـة ١٢٣٨ أرسلت البندقيـة إلى الملك العادل الثانى سفيرين لعقـد معاهدة تجارية جديدة حـوت كثيرًا من التسهيلات وجاء فيهـا لأول مـرة ذكـر قنصـل البنـدقية كمشرف على تجارهـا فى الإسكندريـة(٣) . وفى ١٢٤٤ أرسلت سفـارة أخرى حصل فيهـا سفيرها وكان السلطـان هو الملك الصـالح نجم الـدين أيوب على تأكيـد بـالامتيازات التى منحهـا والـده ، الملك العادل الثـانى للبنادقة(٤) .

وعندمـا هاجم الملك لويس التـاسع دمياط ١٢٤٩ لعبت البندقية سيـاسة ذات وجهين فهى لم تشترك فى الحملـة كبيزا وجنـوه خوفـا إلغاء معـاهداتها ، إلا أنها عنـد ما اضطر لـويس بعد وقوعه فى الأسر ١٢٥٠م إلى الإذعـان لرغبات السلطـان بالجلاء عن دمياط ، ثارت عليـه ثورة عنيفة ، وتعاونت مع زميلتها جنوه وبيـزا على مهاجمة الحجاج الفرنسيين عند عودتهم فى البحر فإنها كـانت تأمل أنه فى ظل الاحتلال الصليبى سوف تتمتع بإعفاءات كاملة من الضرائب .

---

(١) Heyd : of . cit . Tome I p. 405-406.

(٢) Heyd : of . cit . Tome I P. 365 .

(٣) Heyd : of . cit Tome I p. 375 .

(٤) Mas Iatrie : Traites Appedice P. 72- 76 .

سياسة الأيوبيين مع السلاجقة :

تمثلت هـذه السياسـة طـوال فترة حكم كيخسرو الأول وكيكـاوس وكيقبـاذ ، فى تأمينطـوروس المواجهـة لمملكة قليقيـة ، وفى عـلاقـات ودية مع الفـرنج ، وحيـاد مع اليونانيين ، وعداء إخوانهم المسلمين فانحازوا إلى الفـرنجة بأنطاكية لمناوأة قليقية ، وإلى اللاتين والبنادقة بالقسطنطينية لمناهضـة اليونانيين فى نيقية ، وإلى القبارصة ، واستأجروا عساكر من الفـرنج وتراسلوا مع البابـوية ورحبوا بالبعثات التبشيريـة اللاتينية ، وذلك لمحاولة انتزاع رعاياهم اليونانيين من كل ما يربطهم ببيزنطة من صلات[1] .

أمـا سياسـة السلاجقـة مع القوى الإسـلامية ، فإنها قـامت على التوسع صـوب الجنوب الشرقى وكان السلاجقة قد استهلـوا هذه فى منتصف القرن الثانى عشر ، تخلوا عنها أثنـاء الخصومات الأسرية ولقـوا المساعدة بما حدث من الاضطـراب الناشب بين أمراء الشام والجزيرة .

وذلك أن كيخسرو وكيكاوس اتخذا سياسـة التحالف مع الظاهر غـازى صاحب حلب ضد ليـو الثانى ملك أرمينيا الصغـرى ، وكان غازى الأيـوبى يأمل من وراء هذا التحـالف أن يجد فيـه الحمايـة من عمـه العـادل الأول . وحينما مـات الظـاهـر سنة١٢٢٦[2]، أراد كيكاوس أن يساند ابنا آخر لصلاح الدين وهوالأفضل ، الذى كان يتولى سمسياط منذ سنة ١٢٠٣ إقطاعا من السـلاجقة ، وكان يرشحه لأن يتولى حكومة حلب، غير أنـه لم يستطع إلى ذلك سبيـلا ، بسبب ظهـور الأشرف بن العـادل ، فـرجع كيقباذ إلى السياسـة القديمة[3] ، واستطـاع بفضل التحـالف مع الأشرف أن ينتـزع من مـودود الأرتقى صـاحب آمـد وحصن كيفـا ، كل مـا يملك من حصـون واقعـة وراء الفرات، وتمتـد إلى جنوب أذربيجان ، فأضـاف إلى أملاكه أذربيجان سنـة ١٢٢٨ بعد ثلاث سنوات من وفـاة أميرها بهرام شاه ، وفى غمرة هذه الأحداث ، ظهر عـامل جديد فى سيـاسة غـرب آسيـا وهو الخوارزميـة بقيـادة جلال الـدين خـوارزمشاه ، ولم يظهـر السلطان السلجـوقى شيئا من الكراهيـة لجلال الدين خوارزمشاه الـذى لم يهدد سوى أرزروم التى يعـادى صـاحبهـا كيقبـاذ السلجـوقى[4] وسـوى أمـلاك الأشرف

(١) العينى : عقد الجمان حوادث ٦٢٦ مخطـوطة دار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤ تاريـخ . المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٢٣ أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٤٨ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ض ١٨٧ .

(٣) أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٢٤ .

(٤) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٣٨ .

الشمالية الشرقية ، مثل أخلاط على بحيرة وان . غير أن الأمور لم تلبث أن تغيرت حينما ظهر أن جلال الدين يستعد لغزو الأناضول بعد أن دانت له أخلاط ، ولقى التأييد من جهان شاه صاحب أرزدوم صار من أتباعه . واستطاع كيقباذ أن يحرض الأشرف الذى قدم بنفسه ، وكذا حكومة حلب ، فضلا عن السلطان الأيوبى الكامل ، على أن يرسلوا إمدادا ، ونجحت القوات المتحالفة فى أن تنزل الهزيمة بالخوارزمية فى سنة ١٢٣٠ فى غرب أذربيجان ، وإذ تورط بهرام شاه فى تحالفه مع الخوارزمية ، وحل به ما حل بهم من الهزيمة ، ففقد ارزدوم التى أضافها كيقباذ إلى بلاده فأصبحت أملاك كيقباذ تتاخم أطراف آذربيجان[١] ، وإذ كانت جورجيا (بلاد الكرخ) مساندة للخوارزمية ، فإن ماحدث من تهديد السلاجقة لهم ، أرغمهم - هم وحلفاؤهم - فى طرابيزون على أن يتخذوا سياسة المصالحة والمسالمة والولاء نحو كيقباذ ، ولما لم يكن ثمة باعث للتعاون بين الأيوبيين والسلاجقة ، تصادمت أطماعهم ففى سنة ١٢٣٣ كان السلطان الكامل يأمل فى أن يغزو بلاد السلاجقة ، بعد أن أنهى إليه بعض السوريين الذين كانوا بهذه البلاد سنة ١٢٣١ ، أنها بلاد ضعيفة ليس لها من يدافع عنها ، وإذ توقف الكامل فى الجبال الواقعة شمال الشام توجه صوب الشمال الشرقى ، بعد أن دعاه لمساندته صاحب خرتبرت ، غير أن الحليفين الكامل وأظفر تعرضا لهزيمة ساحقة على يد كيقباذ الذى ضم إليه[٢] ، وبذلك امتدت أملاكه إلى ما وراء نهر الفرات ، بل إنما أقام حامية فى حران فى جون بلاد الأيوبيين ، والتى لم يلبث أن استردها الكامل دون تعب ثم حاصر آمد ، ولما مات كيقباذ الأول سنة ١٢٣٧ وقع الخلاف بين ابنه غياث الدين والخوارزمية ، الذين فروا إلى الجزيرة ، غير أن ما حدث من وفاة الأشرف ثم الكامل هيأ له أن يشترك فى التحالف مع أمراء الشام والجزيرة ضد الصالح أيوب ابن الكامل ، والخوارزمية[٣] . فدخل آمد نفسها التى تعتبر أمنع المعاقل فى ديار بكر وأن يحاصر ميافارقين الواقعة وراء دجلة ، فامتدت السلاجقة إلى نفس الحدود التى كانت للدولة البيزنطية من قبل ، بل إنها اتجاهتها نحو الجزيرة قد تجاوزت حدود بيزنطة السابقة وهى

---

(١) أبو الفدا : المختصر ج ٢ ص ١٥٣ .
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٧٣ .
(٢) أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٦٢ .
المقريزى : السلوك ج١ ص ٢٥٤ .
(٣) أبو شامة : الذيل على الروضتين ص ١٦٨ .

التركمان . على أن الدولة السلجوقية فى قونية ، زمن كيقباذ الأول وبرغم تزايد الخطر المغولى فى مستهل حكم كيخسرو الأول بلغت الذورة فى القوة العسكرية وفى التوسع الإقليمى يحيط بها أتباع أو حلفاء من كل جانب ، المسلمون فى حلب والجزيرة المسيحيون وطرابيزون ونيقية وقبرص ، التى كانت ترسل إمدادًا كلما طلب إليها ذلك وكانت هذه أيضا هى الفترة التى اكتمل فيها نظام الدولة ونضجت الحياة الاقتصادية والحضارية .

على أنه لسوء الحظ أن دولة السلاجقة كانت تخفى وراء واجهتها القوية ما كان ينخر فى داخلها من عوامل الضعف على حين أن الخطر المغولى بدأ يلوح فى الشرق . ذلك أن المغول قد توغلوا فى أملاك السلاجقة أواخر أيام كيقباذ الأول وما حدث من مشاكل داخلية بين المغول هيأ لكيخسرو فترة من الراحة لِبِضْعِ سنوات .

الأيوبيون والحملة الصليبية السابعة :

ترتب على زوال شخصية الكامل القوية ، أن وقع الأمراء الأيوبيون فى مخاصمات ومنازعات عنيفة بالغة الاضطراب ، فابنه العادل أبو بكر الثانى ، الذى عينه خليفة له بعد استبعاد الصالح أيوب ، اعترف به القادة المصريون ، الذين رشحوا أيضا الجواد يونس (حفيد العادل الأول وزوج ابنة الأشرف الوحيدة) ليكون أميرا على دمشق ، وطردوا الناصر داود إلى الكرك مرة أخرى . واتخذ جيش حلب خطة الهجوم بدل الدفاع، فانتزع معرة النعمان وحاصر حماه ، بينما قام أميرها بتجديد التحالف مع كيخسرو الثانى، ورفضا التفاوض مع الصالح أيوب ، والعادل الثانى والجواد[1] ، لقى الصالح أيوب متاعب من الخوارزميين الذين تركوا خدمة كيخسرو ودخلوا فى خدمة أرسلان الأرتقى صاحب ماردين فهرب إلى سنجار غير أنه حينما حاصره بسنجار بدر الدين لولو صاحب الموصل ، أرسل الصالح أيوب قاضى سنجار متنكرا إلى الخوارزمية يطلب منهم الانحياز إلى جانبه ، فزحفوا على سنجار وهزموا قوات الموصل وطردوا جيشا سلجوقيا كان يحاصر آمد ، واستولوا على حصن نصيبين وأقليم الخابور باسم الصالح أيوب ، مقابل أنه جعل لهم بلاد مصر (فى غرب الجزيرة)[2] .

---

(١) أبو شامه : ذيل الروضتين ص ١٦٨ .
أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٧٠ .
(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٧٥ .

وحوالى نهاية سنة ١٢٣٨ ، خشى الجواد صاحب دمشق أن يتعرض للغزو من قبل مصر بالاشتراك مع الناصر داود ، فطلب إلى الصالح أيوب أن يأخذ دمشق مقابل أن يعطيه بعض الجهات فى الجزيرة ، غير أنه صار لأيوب من الشهرة ما أقلق جيران دمشق ولذا ، فإنه بعد أن توطد مركزه فى دمشق توجَّه إلى فلسطين ليتجهز لغزو مصر ، غير أن عمه الصالح إسماعيل خرج من بعلبك وصحب معه المجاهد أمير حمص ، وانتزعا دمشق من يد المغيث عمر بن الصالح أيوب (٣٠ سبتمبر ١٢٣٨م) وإذ تخلى عن أيوب عساكره فلم يبق معه سوى ثمانين مملوكا ؛وقع فى أسر الناصر عند نابلس ، وتقرر حبسه فى الكرك(١) .

وفى مصر سارت الأمور زمن العادل الثانى من سىء إلى أسوأ(٢) ، فما اشتهر به العادل من الإسراف البالغ ، بدد ما تركه الكامل من رصيد كبير من الأموال (الذى بلغ نحو ستة ملايين دينار ، عشرون مليون درهم) وثارت العداوة الصريحة بين الأتراك والكرد فى الجيش المصرى ونزع المماليك إلى التمرد والثورة(٣) ، وماكان من المبادرة إلى أن يدخل فى النظام الأيوبى قوة جديدة وغرض جديد ، إنما اتخذها المظفر تقى الدين الثانى صاحب حماه ، ولما اشتهر به من الاعتقاد فى سياسة التحالف مع مصر ضد الحلف التقليدى المؤلف من دمشق وحمص وحلب ، كان من الأمور البالغة الأهمية عنده أن يكون بمصر سلطان قوى . كل آماله تركزت حول الصالح أيوب(٤) ، بعد أن حلف له أنه فى مقابل ما يبذله داود له من مساعدة لولاية الحكم بمصر يجعل الصالح أيوب له حكومة دمشق والجزيرة ، وفى نفس الوقت نفذت الرسائل إلى الخوارزمية ، تحثهم على أن يهاجموا حلب وحمص(٥) وابتسم الحظ لأيوب بعد أن ظل حتى وقتذاك عابسا فى وجهه ، وبينما كان العادل الثانى يتجهز للمسير إلى فلسطين للقاء داود وأيوب، ألقى القبض عليه عساكره من الترك فى ٤ مايو ١٢٤٠ ، وجرى إنفاذ رسالة عاجلة إلى أيوب الذى ، دخل القاهرة فى ١٨ مايو هتفوا به سلطانا(٦)ونتيجة ذلك عقد

(١) أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٧٣ .
أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٦٩ .

(٢) Setton : op. cit . Tome II. p. 706 .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٧٥ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٦ ص ٣١٠ .

(٤) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٨١ .

(٥) أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٨٠ .

(٦) Runicman : op . cit . vol III p. 210

الصالح إسماعيل محالفـة مع الصليبيين تنازل فيها عن صيدا وشقيف عـرنون وما تبقى من صيـدا وطبرية وانصرف الصالح إلى إعـادة تنظيم مملكته فى مصر بـدلا م أن يهتم بما جرى فى الشام من أحداث .

فى مايـو سنة ١٢٤٢ تعرضت حملـة مصرية قادمة من غـزة للهزيمة بـالقرب من بيت المقدس على أيدى النـاصر داود صاحب الكرك والداويـة ، ومع ذلك فإنه حدث بعد شهور قليلة أن اشترك الناصر داود مع قوات مصرية من غزة للقيام بغارات انتقامية على أملاك الصليبيين بعد أن أغاروا على نابلس فى ٣١ أكتوبر . غير أن ما أحرزه المغول من انتصـارات حمل الأيوبيين على المبـادرة إلى تسـوية منـازعـاتهم غير أن المفاوضـات احبطت لارتيـاب الصـالح إسماعيل فى الصـالح أيـوب . فلجـأ إسماعيل إلى تجديـد التحالف مع الفرنج ، وفى ربيع ١٢٤٤ تنازل لهم عن بيت المقدس[1] ، بعد موافقة داود صاحب الكرك والمنصور صاحب حمص ، فما ارتكبه الكامل من حماقة قبل خمس عشرة سنة ، صار أمرا مسلما به بل تجاوز الحد بأن سلم إليهم قبة الصخرة .

على أن مخاوف الصالح إسماعيل تستند إلى أسـاس سليم ففى يونيه ١٢٤٣ أرسل المظفـر صاحب حماه ، الـذى يعمل بـالاتفاق مع الصـلاح أيـوب ، سفارة إلى الأمـراء المشارقـة وبغداد ومن تعـاليمه لـرئيس السفارة أن يتصل بـالخوارزمية فى طـريقه ، وأن يدعو زعيمهم بركة خان لمسـاندة أيوب إزاء أعدائه بالشام[2] ، وفى صيف سنة ١٢٤٤ انساب ما يزيد على عشرة آلاف منهم فى البقاع واستـولوا على بيت المقدس بعد حصار قصير الأمد (٢٣ أغسطس) واحتلـوا فلسطين وانحازوا إلى القوات المصريـة بغزة[3] . قام المنصـور صاحب حمص مـرة أخرى بـالمبادرة إلى عقد حلف مـؤلف من المسلمين والفـرنج بالشـام لمنـاهضتهم وزحفت على غـزه الجيوش المتحـالفـة من حمص ودمشق والكرك وعكا[4] . على أن الخوارزمية والمصريين بقيـادة الأمير ركن الدين بيبرس أنـزلوا الهزيمة الساحقة بالفرنج فلم ينجُ من القتل سوى نحو (٥٠) من الداوية والاسبتارية .

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٩٥ .
العينى : عقد الجمان ، حوادث سنة ٦٤١ .
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٢٢ .
(٢) أبو شامة : الذيل على الروضتين ص ١٧٤ .
(٣) Howorth : History of the Mongols . vol .III p. 456.
(٤) Camb Med . Hist . vol VI . p. 636 .

وفى أكتوبر ١٢٤٤ بادر بيبرس بقواته لحصار عسقلان بينما استولى حكام الصالح أيوب على السلطة بفلسطين وكان حادث استيلاء الخوارزمية على بيت المقدس سببا مباشرا من أسباب الحملة السابعة .

وللحملة السابعة أهمية خاصة فى تاريخ الحروب الصليبية وفى تاريخ مصر ، نظرا لأنها عاصرت تلك نهاية الدولة الأيوبية وبداية دولة المماليك ، وقد بدأت الدعوة للحملة سنة ١٢٤٥ فاستجاب لها الملك لويس التاسع الذى اشتهر بالتقوى والصلاح وكانت أحوال العالم المسيحى وقتذاك شديدة الملائمة[١] ،إذ اجتاح التتار العالم الإسلامى حتى وصلوا لتخوم بغداد ، وبعد هزيمة السلاجقة أصبح الطريق إلى بلاد الشام مفتوحا[٢] .

وفى سنة ١٢٤٣م قاموا بهجوم على سوريا عن طريق ميافارقين وماردين والرها وتقدموا عبر الفرات إلى حلب ووصلوا إلى باب جيلان ويشير ما ثيو باريس إلى أن أهلها دفعوا جزية[٣] .

ونظر المسيحيون إلى قوة المغول وتهديدها للعالم الإسلامى نظرة ارتياح ورأوا من الخير لهم ترك كلا الفريقين يصارع الآخر حتى يقضيا على بعضها البعض وعندئذ يصبح بوسع البابا التأثير عليهم وفرض سلطانه عن طريق نشر المسيحية ، وبهذا يتوقف توسعهم اتجاه أوربا واعتقد البابا أن باستطاعته تأليف حلف صليبى مغولى فيصبح الشرق الأوسط بين شقى الرحا فيهجم المغول على الشرق الإسلامى من الناحية الشرقية فى حين يقوم لويس التاسع بالهجوم على فلسطين والشام من ناحية البحر المتوسط[٤] .

ولقد تناسى البابا شيئا هاما وهو أن المغول قد قاموا بالفعل بمهاجمة البلاد المسيحية مثل أنطاكية وجورجيا وهنغاريا وطرابيزون ، واستنجد الحشيشية بالغرب للوقوف أمام هذا الخطر المشترك ، ولكن لم يجدوا آذانا صاغية ، ولم يجدوا استجابة إلا عند فردريك بربروسه .

أرسل البابا مبعوثين سنة ١٢٤٥م لمحاولة إقناع المغول بتنفيذ هذا التحالف .

---

(١) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٢٢٦ .

(٢) Howorth : of . cit . vol III p. 456 .

(٣) Howorth : of . cit . vol III p. 456 .

(٤) زيادة : (محمد مصطفى) حملة لويس التاسع على مصر ص ٨٣ .

ولكن الخاقان أصر على أن يدخل البابا وجميع أُمراء الغرب فى طاعته أولا ، وأخبره أن المغول لا يبغون ألا الفتح ، ولكن البابا أنوسنت الرابع مازال مؤمنا بجدوى التحالف مع المغول فأرسل أحد الدونسكان فى سفارة ثالثة فرحل عبر سوريا وقابل حاكم المغول فى تبريز سنة ١٢٤٧ ، وكان المغول مستعدين لمناقشة أمر التحالف ضد الأيوبيين إذ كانوا يعدون العدة لمهاجمة بغداد[١] ، وكان اشتباك الصليبيين مع الأيوبيين سيشغل مسلمى سوريا عن مد العون إلى الخلافة العباسية ، وأرسل الخاقان إلى البابا مبعوثين ، ولكنه كان دورهما مقصورا على التشاور لا اتخاذ خطوات إيجابية وأرسل معهما البابا رسالة يبدى أسفه على عدم تحقيق التعاون ضد الأيوبيين [٢].

وحين شرع لويس فى إعداد الحملة جعل وجهتها مصر نظرا لأن الدولة اللاتينية فى القسطنطينية لم تعد تثير اهتمام العالم الغربى ، فيسعى لإنقاذها واستغرق الإعداد للحملة ثلاث سنوات وبلغت أنباء تلك الاستعدادات الصالح أيوب عن طريق الامبراطورية فردريك الثانى الذى أنبأه لويس بصفته صاحب الحق فى عكا[٣] .

ولم تشترك البندقية فى الحملة فى البداية حرصا على مصالحها التجارية فى مصر ، واشتركت بدلا منها بيزا وجنوه[٤] ، وغادرت الحملة فرنسا ١٢ أغسطس ١٢٤٨ ورحلت إلى ليماسول عاصمة قبرص ، ورأى لويس أنه إذا استطاع الاستيلاء على دمياط فإنه سيتخذها وسيلة للمساومة على بيت المقدس وسوف يغرى النصر البندقية للاشتراك فى الحملة[٥] ، وصل لويس التاسع إلى قبرص فى سبتمبر ١٢٤٨ ، ظل مقيما بقبرص مدة طويلة حتى يكتمل احتشاد العساكر ، غير أن إرجاء السير كان له آثار سيئة، منها وفاة كثير من النبلاء المشتركين ، ومنها ضياع فرص مواتية لمهاجمة مصر ، ذلك أن السلطان الصالح أيوب توجه على رأس جيشه إلى الشام وهاجم الناصر أمير حلب، وانصرفت عساكره لحصار حمص أثناء شتاء ١٢٤٨-١٢٤٩ .

والواقع أن هذه الشهور كانت فرصة مواتية للمبادرة بالسير إلى مصر ، فالانتظار حتى فصل الربيع ليس له من معنى سوى أن الصليبيين سوف لا يأملون فى أن يقيموا

---

(١) Camb . Med . Hist . vo l IV. p. 638 .

(٢) Runicman : of . cit . vol III p. 260 .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة : ج ٧ ص ٢١١ .

(٤) Heyd : of . cit . Tome I P . 404 .

(٥) Grousset : of cit . Tome II p . 434 .

رأس جسر قبل حلول الفيضـان فيصير اجتياز الـدلتا أمـرًا يكاد يكـون مستحيلا وإن أثمرت تلك الفترة علاقـات مع أطراف عديدة كالمغول والسـلاجقة والبيزنطيين وأمراء الـلاتين بـالقسطنطينيـة وأمـراء المورة ، فسعى الملك لـويس إلى التحـالف مع المغـول ووصل إليـه اثنان من النسـاطرة ، بعثهم القـائد المغولى نـائب الخاقان الأعظم ، وكـان الخطاب يتحـدث عن التقارب بين المغول والصليبيين وأرسـل لويس معه أخـوه الذى يتكلم العربية ، ولكن الخاقـان كيوك كان قد تـوفى وتولت الأمر[١] بدلا منـه « زوجته ، ولقـد اعتـذرت عن عقـد تحالف بسبب الصعـاب التى تعترض الحملـة فى تلك الفترة وتمنعها من إرسـال حملة للغـرب ، ولم تصل البعثة إلا بعـد ثلاث سنـوات ١٢٥٢م بعد فشل الحملـة ، وكانت تحمل خطـابًا كتلك التى يـرسلها السادة إلى أبتـاعهم ، وتطلب الانتظـام فى إرسال الهدايـا . وأرادت القسطنطينية استغـلال الحملة لصـالحها بعـد أن أضحى بلـدوين الثـانى امبراطور القسطنطينيـة فى حـالـة من الفقر يـرثى لها وتـردت امبراطوريته فى مهاوى الانهيار وخاصة بعد ازدياد قوة حاكم نيقية ولم تعد مملكة اللاتين فى القسطنطينية إلا رقعـة ضيقة[٢] حول القسطنطينيـة ولم يعد بينه وبين أتبـاعه إلا ولاء أسمى ليس لـه وزن ، ولم يعد مستقبل الامبراطوريـة شيئا جـوهريـا ، فرغم إمكـانيات الأتباع المادية والبشرية فإنهم آثروا الاشتراك فى حملـة لويس التاسع على مصر على إنقاذ امبراطـوريتهم ومن هؤلاء الاتبـاع حاكم أخيـا وحـاكم المورة ، أرسل إليه لـويس دوق برجانديا لما اشتهر به هو وفرسانه من قوة وشجاعة ، ولقد قضى الدوق الشتاء فى إقناعه فى الاشتراك فى الحملة ، ولقـد اشترك بما يقرب من أربع وعشرين سفينـة حربية كـاملة العتـاد والمؤن ، وبـدلا مـن أن يسعى لـويس لالتماس المسـاعـدة من امبراطـور القسطنطينية، سعى هذا الامبراطور البـائس إلى الملك لويس التاسع[٣] ، رأى بلدوين فى تلك الحملة الرابعة وتوجيهها إلى البيزنطيين فى نيقية أو مساعدتهم على الأقل ببعض قوات الحملة . وأرسل الامبراطور بلـدوين زوجته ماريا[٤] بربين ابنة حنا بـريين لمحاولة التأثير على لويس ، وكانت تمت له بصلة القرابة .

أورد جوانفيل مـؤرخ الحملة ، وصفـا لتلك الرحلـة ، كان جوانفيـل يميل لحكام القسطنطينية الـلاتين ، وتبادل مع بلدوين الرسـائل العديدة ، وكـان جوانفيل وبعض

(١) Setton : of . cit II. p. 493 .

(٢) Miller : Essays of the Latin Orient P. 91 .

(٣) Joingille (Jean Sire de : The History of st . Louis . Trans . joan Evans p. 41 .

(٤) Joinville : of . cit . p. 41 .

الأمراء الصليبيين يميلون إلى مساعدة القسطنطينية ، واستقبلها جوانفيل وحملها رسائل تأييـد من حوالى مائتين مـن الصليبيين يظهرون الود واستعـدادهم لتأييد بلـدوين ، بل أكد لها أنه وحـوالى ثلاثمائة فارس على استعداد للذهـاب فورا إلى القسطنطينية إذ وافق الملك لويس ، بل وأنهى إلى لـويس رغبته ، ولكن لويس رفض هذا الـرجاء فعلى الرغم كان يميل إلى الاستجابة لـرجاء الامبراطورة ماريا بريين فإنه صـارحها بأنه من الأجدى أن تتجـه الحملة إلى المسلمين وإلى مصر بـالـذات نظـرا لأنه لا يحتمل تشتيـت قواتـه وتـوجيههـا إلى جبهتين ، وكـان لـويس شـديـد الاقتنـاع بألا جـدوى من مسـاعـدة القسطنطينية وكل ما فعلته ماريا أن عقـدت زواج شقيقها حنا دى برين صاحب عكا على كونتيسة مونتفيرات .

أما موقف الأيوبيين من الحملة السابعة ، فإن الصالح أيوب كان يعتقد أن الحملة ستتوجـه إلى الشام ، ولكن بعد أن تبين له أن الحملـة موجهة إلى مصر ، وسارع بـالعودة إلى أشموم طناح ليكون فى مقابلـة الفرنج إذا وصلوا إلى دمياط[1] وأرسل الجيش بقيادة فخـر الدين ابن شيخ الشيـوخ وأمـر بإعداد دميـاط وتجهيـزها بمستـودعات الـذخيرة والأسلحـة والمؤن وإعداد أسطـول نهرى ، ولكن لويس استطـاع الاستيلاء على دميـاط وانسحب فخر الـدين بجيوشـه ، ورحل الصالح أيـوب بالجيش إلى المنصـورة ، وتأخر لويس فى الزحف إلى القاهرة ، وبدأ ارتفاع النيل ولم يكن أمراء الصليبيين الذين يرافقون لويس يبـدون اهتماما بالحملـه ومصيرها ومن الوقت الـذى اتخذ فيه لويس طـريقه إلى المنصورة تـوفى الصالح أيوب فى ٢٢ نـوفمبر ١٢٤٩ ، ولم يكن لوفاتـه تأثير مباشر على الموقف بفضل الإدلـة القـويـة التى أنشأهـا ، وهى المماليك التـى استكثـر منهم ومـا اشتهـرت بـه زوجتـه شجرة الـدر من قـوة الشخصيـة ، إذ أخفت خبر وفـاة الصـالح وتولـــت الإدارة باسمـــه بموافقـــة المماليك البحريـــة ثم استـدعت توران شـاه ابن الصالح من حصن كيفا غير أنه لم يصل حتى نهاية فبراير سنة ١٢٥٠م[2] .

وبعـد فشل حملـة لـويس التاسـع على مصر سنة ١٢٥٠م سعى حـاكم طـرابيـزون إلى التقرب إلى لـويس أثنـاء حصار صيدا ، كما ذهبـت وفود من السـلاجقة بالهـــدايا إلى لويس التاسع سعيا للتحالف ضد مصر[3] .

---

(١) المقريزى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ج ٢٧ ورقة ٩٠ ومخطوط رقم ١٤٩٥ تاريخ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ورقة ٣٥٥ (مخطوط رقم ٥٣١٩) تاريخ .

(٢) لم يلبث تورانشاه فى الحكم سـوى شهور حتى قتل على يد المماليك وأهم ما تـرتب على مقتله من تطور فى تاريخ الشرق الإسلامى وسقـوط الدولة الأيوبية وقيام دولـة المماليك: زيادة حملة لويس التاسع ص ٢٠٦ .

(٣) Joinivlle : of . cit . p. 180 .

الفصل السادس

العلاقات الحضارية

العلاقات الاجتماعية - تبادل الزيارات - التسامح الديني - التأثير الحضاري المتبادل بين العرب وبيزنطة - أثر الحرب الصليبية على الأيوبيين والبيزنطيين - أثر العرب وبيزنطة في الحضارة الإيطالية - التجارة - الإجراءات الجمركية ...



كنيسة أيا صوفيا

العلاقات الاجتماعية :

تبادل الزيارات :

تحتل الامبراطورية البيزنطية موقعا ممتازا ، إذ تقع فى ملتقى الاتصال بين آسيا وأوربا وأفريقيا ، وتمر بها كل الطرق البرية والبحرية التى تصل بين أوربا الشرقية والبحر المتوسط[١] ، ورغم قيام الحروب الصليبية واضطراب التجارة ، ثم سقوط القسطنطينية ، وتعذر السير ، وصعوبة الرحلة لأسباب سياسية وطبيعية ، فضلا عن العلاقات العدائية ، فإن كثيرا من الرحالة العرب زاروا القسطنطينية التى نزلت بها جاليات إسلامية ولا سيما من سوريا[٢] ، والملاحظ أن البيزنطيين لم تجذبهم الرحلات لتدوين تقارير عن مشاهداتهم فى الشرق ، بعكس الرحالة العرب الذين زاروا بيزنطة وعرضوا صورة واضحة عن الحياة الاجتماعية ، والمعاملات ، والتجارة ، والإدارة ، ساعدت المسلمين فى فترة فتوحهم الأولى على تنظيم أحوالهم الإدارية .

وصف العرب الطرق المؤدية إلى بيزنطة ، والزمن الذى يستغرقه المسافر فى رحلته ، بل أعطتنا صورة عن التسامح والمعاملة الطيبة التى لقيها العرب من الحكام البيزنطيين[٣] ، فلم يتعرضوا للكراهية التى تعرض لها اللاتين[٤] ، بل إن التقسيمات الجغرافية التى أوردها العرب لبيزنطة ، اعتمد عليها الجغرافيون الغربيون ، وكتب كثير من الرحالة العرب عن القسطنطينية فى الفترة السابقة للحروب الصليبية أمثال هارون بن يحيى الذى كان أسيرا فى القسطنطينية ثم ابن خردابه[٥] .

أما فترة الحروب الصليبية – ورغم الصراع والانهيار السياسى– فإن الرحالة العرب بهرتهم بيزنطة بحضارتها وثرائها وآثارها وعجائبها ، وأبدوا إعجابهم بالمدينة التى وصفها روبرت كلارى بأن فيها ثلثى ثروة العالم ، فزارها الرحالة العرب الهروى ، والإدريسى فى حكم آل كومنين[٦] .

---

(١) Baynes (N) : Byzantium. p. 67.

(٢) العدوى : الامبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية ص ١٥٨ .

(٣) Baynes : of . cit . p . 68.

(٤) كلارى : فتح القسطنطينية ص ١٣٢ .

(٥) brooks : Arabic Lists : p 27 (Journal) of Hellenic Studies vol : XXi.

(٦) Miller : of . cit . p. 262 .

وكتب الجغرافيون العرب عددا من الكتب الجغرافية - انطوت فصول منها على وصف كامل لبيزنطة ومدنها وتقسيماتها الجغرافية ، ومن هؤلاء الجغرافين ياقوت الحموى الذى ذكر الفترة التى كانت فيها بيزنطة فى يد الفرنج[1] ثم ابن الأثير الجزرى الذى ألف كتابا جمع فيه بين جميع كتابات الرحالة الذين زاروا القسطنطينية فى تلك الفترة ، وتشرح تلك الرحلات العلاقة الوثيقة بين الجانب الإسلامى والبيزنطى فالهروى الذى زار القسطنطينية فى عهد مانويل بهرته عظمة بيزنطة وثروتها ، وكان الهروى مقربا من الملك الظاهر ابن صلاح الدين ، ويورد الهروى وصفا لأسواقها وميادينها وآثارها ومناراتها ، ويعقد مقارنة بين منارة الإسكندرية ومنارة القسطنطينية « المنائر العجيبة بمدينة القسطنطينية ، منها منارة موثوقة بالرصاص فى البضرم »وهو الميدان ويورد وصفًا لبلاط الملك ، ويذكر الصليب المجنون وحكايته ، والبيمارستانات ، ثم يذكر التسامح الذى ينعم به الرحالة والمعاملة الطيبة التى يلقاها المسلمون ، والتى لقيها هو من الامبراطور مانويل ، كما يذكر كنيسة أيا صوفيا إذ أشار إلى أنه سيذكر ترتيب هذه الكنيسة وارتفاعها وأبوابها وعلوها وطولها وعرضها والعمد التى بها وعجائب هذه المدينة ، وأوضاعها والسمك الذى بها ، وباب الذهب وجميع ما بها من الآثار والعجائب ما فعل الملك مانويل معى من الخير والإحسان ، فى كتاب العجائب «أذكر كما تقدم إن شاء الله تعالى، وهذه المدينة (القسطنطينية) أكبر من اسمها نسأل الله تعالى أن يجعلها دار الإسلام بمنه وكرم »[2] .

أما الرحالة الثانى فهو الإدريسى الذى رسم صورة تقريبية لما أورده الهروى فتحدث عن المزارات الإسلامية ، وقد رأى الكهف « أصحاب الكهف » فهم فى كهف فى رستاقة وتحدث عن بيزنطة ، ومدنها وشواطئها وموانيها كطرابيزون ومسنية وسالونيكا ، فالساحل البيزنطى كله ، أجوان وجبال « وتكلم عن قوة مُنْشَئات بيزنطة التى أقامتها لحماية شواطئها ومدنها ، وعن خليج القسطنطينية ، الذى يصل بين القسطنطينية وبحر الشام وطوله ، وعن المآصر والأبراج ، وكان للخليج ، فوهتان إحداهما تتصل ببحر الشام فى جهة الجنوب ، وتحدث الإدريسى عن تقسيمها

---

(١) ياقوت الحموى . معجم البلدان ج ١٠ ص ٣٦٠ .
(٢) الهروى : الإشارات إلى معرف الزيارات ورقة ١٩٧ .
(مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٧٤٧٤ جغرافيا) .

الجغرافى[1] ، فى حين لم يعط المؤرخون الغربيون معلومات وافية عن ذلك ولقد وصفها وصفا دقيقا ، لم يرد لدى أى مؤرخ يونانى فأورد فى البلوبونيز ١٣ مدينة وأشار إلى نباتات كورفو وأثينا .

وأجمع رحالة ذلك العصر على الإشارة بما نعموا به من معاملة طيبة ، وما يلاقيه المسلمون ، رحالة وتجار ، من حسن معاملة ، وكان جميع الرحالة على دراية بعلماء اليونان وفلاسفتهم وأبدوا إعجابهم بهم .

وما حدث من تبادل السفارات بين المسلمين والبيزنطيين كان لها مراسيم استقبال خاصة ، تجرى على أسلوب دقيق عند كلا الجانبين ، ولقد أنفق الأباطرة البيزنطيون الأموال الضخمة على البعثات والضيوف الذين قاموا بزيارة القسطنطينية متشبهين بالبلاط الشرقى[2] ، وشغل عرب المشرق مركزا رفيعا عن عرب المغرب فى البلاط البيزنطى ولقى سفراء المسلمين من قبل نور الدين والعباسيين كل تكريم[3] ، وتدلنا الحوليات البيزنطية على أن الأباطرة اهتموا بتزويد سفرائهم بالثروة حتى يبهروا العالم الأسمى ، وكانت مظاهر الاحتفال تتمثل فى المجاملات الدبلوماسية ، وعرض القوات العسكرية ومشاهدة آثار العاصمة ، وكتاب الامبراطور قسطنطين بورفجنتيوس الذى ألف فى القرن العاشر والمعروف باسم المراسيم يعرض وصفا لمراسيم البلاط البيزنطى للاستقبالات[4] وبرغم فترة الضعف والانهيار الاقتصادى ، امتازت بعثات بيزنطة إلى الشرق بالفخامة .

ولقى البيزنطيون من الجانب الإسلامى كل اهتمام ، وكانت البعثات الإسلامية والبيزنطية تصحب عادة مترجمين يجيدون اللغة العربية واليونانية ، وكان كل من البيزنطيين والمسلمين ، يسعى إلى اختيار سفرائه من الأشخاص المقربين الموثوق بهم[5] وكانت البعثات البيزنطية إلى الخارج ترحل فى حاشية كبيرة ، محملة بالهدايا والألطاف السنية والجواهر والذهب والحرير والحيوانات النادرة ، وكذلك امتازت سفارات الجانب الإسلامى أيضا بالبذخ ، واهتم العباسيون بأمر التقاليد الدبلوماسية ،

---

(١) Miller : of. cit. p. 262.

(٢) Runciman : of . cit . vol . III . p. 475.

(٣) Baynes : of cit . p . 312 .

(٤) Baynes : of . cit . p. 312 .

(٥) رنسمان : الحضارة البيزنطية ص ١٨٦ .

وكان السفراء يوضعون عادة تحت رقابة دقيقة[1] واستمرت تلك التقاليد سائدة فى عهد الدولة الأيوبية التى حرصت على علاقات الصداقة والود .

وحرص ديوان الإنشاء على استخدام صيغ وعبارات خاصة ، فى الكتابة إلى الأباطرة البيزنطيين .

كانت هناك صيغة خاصة يخاطَب بها امبراطور القسطنطينية وهى أعلى مراتب التفخيم ، وكانت الصيغ فى الحرب تختلف عنها فى السلم بما تشتمله من دعاوى وتقديم وتفخيم ، وفى الفترة التى تلت سقوط القسطنطينية ١٢٠٤ وانقسامها إلى ممالك اتخذ ديوان الإنشاء صيغة تلائم كل حاكم ، إذ جعل صيغا خاصة بحكام نيقية وصيغا خاصة بحكام سالونيكا ، ومن الألفاظ التى اعتادت الدبلوماسية إطلاقها على الامبراطور نمطان[2] ، النمط الأول ، أكثر ما فيه صفات الشجاعة مثل الأسد الضرغام، الهمام ، الغضنفر ، الباسل ثم ألقاب مركبة ، مثل العادل فى ملكه حامى البحار والخلجان ، ضابط الممالك الرومية ، الذى يحكم باسم الله ، الذى لا يقهر[3] وكان للدبلوماسية البيزنطية هى الأخرى أساليبها الخاصة بها ولها ما يشبه ديوان الإنشاء، إذ أحاطت نفسها بشبكة من الصدقات والمودات القريبة والبعيدة ، وانتهج الأباطرة البيزنطيون نهج الملوك الشرقيين فازدهرت الحركة الدبلوماسية ، وإن كانت أساليب بيزنطة لا تصل إلى فخامة الأساليب الإسلامية الشرقية التى امتازت بكثرة ألقاب المديح وفى مثال رسالة إسحاق إلى صلاح الدين :-

« من إيساكيوين (إسحاق) الملك خادم المسيح ، المتوج بفضل الله الذى لا يقهر ، طاغية اليونانيين ، أنجليوس ، إلى عظمة سلطان مصر ، صلاح الدين ، خالص المجد والود والصداقة » .

ولقد كان العادل أخو صلاح الدين بمثابة وزير الخارجية لأخيه ، وكان يقوم باستقبال البعثات الدبلوماسية والإشراف على إقامتها[4] .

---

(١) رنسمان : الحضارة البيزنطية ص ١٨٥ .
(٢) القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ج ٨ ص ٤٣.
(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٨ ص ٤٣ .
(٤) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٨ ص ٤٣ .

و الفترة الأولى من حكم الأيوبيين تخللتها سفارات عـديدة من كلا الجانبين وهى فترة حكم صـلاح الديـن وابنه العـزيـز وحكم أندرونيكس وإسـاحق أنجليـوس من الجانب البيزنطى[١] . أمـا الفترة التى تلت سقـوط القسطنطينيـة فلم تتبـادل فيهـا سفارات، ثم كثـر تبادل السفارات زمن المماليك وأسرة بـاليولوجوس ، وحـرص صلاح الديـن على استقبال السفراء البيـزنطيين ، وتفويـض العادل فى رعايتهـم كما حدث فى السفـارات التى استقبلهـا من قبل كل أنـدرونيكوس وإسحـاق[٢] ، أمـا سفاراتـه إلى الجانب البيزنطى كسفـارة سنة ١١٨٥ فكانت تحمل نفـائس وحيوانات وأنـواع البهار التى يهتم بها الشرق البيزنطى ، ولقد قدرت بما يقرب من ٦٦٧٥ هيبادوس[٣] .

وكان رد إسحاق على ذلك بهدايا تضارعها فى الفخامة منها تاج مرصع واستقباله الـرسل فى قصر منيف استقبالا عظيما وأحـاطهم بمظـاهر الاحترام ، وفى سنـة ١١٩١م أرسل إسحاق مـرة أخرى رسولا وهـدايا وقـام العادل باستقبـالهم ، وكان يصحب كل تلك السفارات مترجم يجيد اليونانية والعربية ، والفرنسية وكان صلاح الدين يرسل من يثق فيهم من السفراء وممن يجيـدون اللغة اليونانيـة ، فأرسل ابن البزاز المصرى سفيرا[٤] ولما كانت تتطلبـه تلك المهام من مهارة ودقة ، بل إن بعض السفـارات الشرقية حظيت بما لم تحظ بـه سفارات الغـرب ، وكان الغـرض من تلك السفـارات الحرص على إقامـة الشعائر الدينية وإقامة جبهة ضد اللاتين .

التسامح الدينى :

نَعِمَ مـواطنـو كـلا الجانبين البيـزنطى والإسـلامى بـرعـايـة الطـرف الآخـر الرحـالةوالتجـار سواء ، ونعم المسلمون بـرعايـة لم يحظ بها اللاتين [٥] ، وتردد صـدى المعاملة الطيبـة التى لقيها المسلمون فى كتابـات الرحالة ، وفى رسـائل صلاح الدين إلى أباطـرة القسطنطينية ، فالمزارات الإسلاميـة تنتشر فى طول الأراضى البيزنطية وعـرضها وظلت كـذلك حتى بعـد سقـوط القسطنطينية زمن الـلاتين ، كما ذكـر القـزوينى وابن سعيد المغربى اللذين عاصرا تلك الفترة .

(١) المقريزى : السلوك ج١ص ١٢٩.
(٢) أبو شامة : الروضتين ج٢ ص ٣١٩ .
(٣) عملة بيزنطية .
(٤) المقريزى : ج ١ ص ١٢٩ .
(٥) بنيامين : رحلة بنيامين ص ٧٧ .

وكـان ممـا استرعى انتبـاه الهروى كثـرة المزارات الإسلاميـة ومقـابـر المسلمين ، الـذين استشهدوا فى القسطنطينية التى تلقى كل رعاية من الدولة واحترام من البيزنطين .

وكـذلك أشار إلى الجوامـع المقامـة فى القسطنطينيـة والتى يتردد عليها المسلمـون ويؤدون شعائرهم بلا حرج ولا ضغط من السلطـات البيزنطية ، ففى جانب سورها قبر أبى الأيوب الأنصارى صـاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم واسمه خالـد بن يزيد ، وبها الجامع الـذى شيـده مسلمـة بن عبـد الملك والتـابعـون ، وفيـه قبر رجل من ولـد الحسين. بل نجد أن فى مدينة سالـونيك ونيقية أن الكنائس تجاورت إلى جانب الجوامع وفى مدينة قونية قبر أفلاطون الحكيم بالكنيسة إلى جانب الجامع وفى مدينة الأبروق وهو موضع ببـلاد الروم يـزار فى الأفاق ويقال إن بها شهـداء عمر بن الخطـاب ويقال إنهم لايبْلُوا وهناك كنيسـة لطيفة ومسجد فإن كان الزائر مسلماً أتوا بـه إلى المسجد وإن كان نصرانيا أتوبه إلى الكنيسة ، وزار مدينة أبسيس[1] ، وبها الكهف الذى ذكـر فى القرآن ، فرحلة الهروى خير مثـال على مدى العلاقات الوطيـدة ، وعلى مدى التسامح ، رغم أن الفترة التى زار فيهـا القسطنطينيـة ، وهى فترة حكـم مـانـويل[2] ، كـانت تتخللهـا الحملات على مصر .

واهتم صلاح الـدين وخلفاؤه بعمارة جـامع القسطنطينية وإرسال المقـرئين إليه ، وحظى المسلمون بالرعاية والحماية من السلطات البيزنطية[3] .

ولقى البيـزنطيون الرعـاية من صـلاح الدين وخلفـائه ، فكما اهتم صلاح الـدين بعمارة مسجد القسطنطينيـة اهتم إسحاق بأمـر الكنائس اليـونانيـة والشعائر والسماح للمسيحيين بتأديتها ، والسماح بإخراج مـوتاهم بالشموع بل وإرسـال صلاح الدين إلى بيزنطـة الصلبوت ، واشتهـر ملوك الأيـوبيين بتسامحهم كما لقى المسيحيـون اليونـانيون وخـاصة فى أنطـاكية معـاملة طيبـة ، بل إن صلاح الـدين حَوَّلَ بعض الكنـائس التى استـولى عليها إلى المذهب الأرثـوذكسى ، وكان اليـونانيـون فى بيت المقدس يفضلـون حكم المسلمين على اللاتين ، ونعم المسيحيون عامة رغم الحروب الصليبية بتسامح كبير

---

(١) ابسيس هى أفسيوس .

(٢) الهروى : الإشارات إلى معرفة الزيارات ص ١٩٧ .

(٣) الهروى : الإشارات إلى معرفة الزيارات ورقة ١٩٧ .

الامبراطور فردريك الثانى(١) ، فأفاد من تلك المعاملة الطيبة المسيحيون جميعا سواء اللاتين أو اليونانيون ، وكان صلاح الدين فى بداية حكمه قد استغنى عن خدمات المسيحيين فى الدواوين ، ولكن لم يلبث أن أعادهم سنة ١١٧٧م إلى أعمالهم لدرايتهم بالأعمال الديوانية فى تلك العصور ، واتخذ العادل كاتبا قبطيا من أسرة النحال ، ووافق القبط صلاح الدين فى غزواته(٢) ، وكان القاضى شهاب الدين الطوسى قد أغلق كنيستين فأمر صلاح الدين بفتحهما ، وكان فى خدمة الملك الكامل الطبيب أبو شاكر(٣) ورفض الكامل تعمير مسجد بجوار الكنيسة المغلقة بمدينة الفسطاط ، بناء على رجاء طبيبه ، وبرع بعض الأقباط فى العلوم العربية ، وأبدى بعض الأرثوذكس كثيرا من سرورهم بوجودهم فى مصر ؛ لأن العادل أحسن معاملتهم دون الكاثوليك على خلاف ما كان يفعله الصليبيون ، وكان عدد الكنائس يربو على مائة كنيسة ، وكان المسيحيون يتعرضون لغضب المسلمين خلال فترات قيام الحملات الصليبية فقط ، على حين أن الصليبيين كانوا يعتدُون على أراضى كل من المسلمين والمسيحيين .

ظلت الدولة الإسلامية والدولة البيزنطية قرونا عديدة على اتصال وثيق برغم العداء السافر ، والحروب التى نشبت بينهما وتأثرت كل منهما بالأخرى فى النواحى الحضارية والفنية والفكرية ، إذ استمد كل منهما حضارته من التراث الكلاسيكى الإغريقى ، فالفتوح العربية امتدت إلى مراكز الثقافة الهلينية أمثال أنطاكية فى الشام وقيصرية وغزة فى فلسطين والإسكندرية بمصر ثم حران ومراكز الحياة الفكرية الهلينية(٤) ، كما أفاد العرب من الحضارة الفارسية والحضارات القديمة فى العلم والفن قبل أن يدخلوا فى عداد الأمم ذات الثقافة ، وما قام من علاقات ودية ومن تبادل السفارات بين المسلمين والبيزنطيين أسهم إلى حد كبير فيما تأثر به المسلمون من النظم البيزنطية .

---

(١) Lane - Poole : A Hist . ory of Egypt . p. 24 .

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ١٢ ص ٢٤ .

(٣) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٧ ص ١٠ .

(٤) Camb : Med . Hist . col Iv . P. 774 .

أما بيزنطة فقد تأثرت بالشرق العربى حتى أصبحت توصف بأنها دولة بيروقراطية نصف شرقية[1] .

ولكن قيام الحروب الصليبية دفع العالمين البيزنطى والإسلامى إلى توجيه أنظارهم وقواهم إلى المجال الحربى والعسكرى وصرفهما عن المجال الحضارى ومجال توطيد العلاقات السلمية فى الفنون والآداب فلم تحدث اشتباكات وحروب مثلما حدث فى الفترة السابقة[2] ، وإن كان العنصر الإسلامى الذى تأثر ببيزنطة فى تلك الفترة هو سلاجقة الروم فزخرت ملاحمهم بالحديث عن حروبهم مع بيزنطة ، وكان السلاجقة على اتصال وصراع دائم بالقسطنطينية ونشأت بينهم علاقات عديدة وتسربت الحضارة البيزنطية إليهم تأثر بناء المساجد فى قونية بالأنماط اليونانية والتقاليد الفنية البيزنطية[3]. وسعى البيزنطيون للتبشير بالمسيحية ونجحوا إلى حد ما فى الفترة الأخيرة من التاريخ السلجوقى ، وارتبط بعضهم بعقد المصاهرة مع البيزنطيين ، ولكن هذا لا يمنع من وصول بعض التأثيرات البيزنطية فى تلك الفترة إذ كان من التجار سواء من العرب والبيزنطيين يجيد لغة الآخر كما أشار إلى ذلك ابن جبير[5] ، وتسربت كثير من الألفاظ العربية إلى اللغة اليونانية ولاسيما فى المجال التجارى كألفاظ Admiral, Dinarus وكذلك أسماء بعض المنسوجات ودفع لويس التاسع فديته بالدينار البيزنطى[6] .

وهناك بعض أمثلة قليلة للتعاون فى المجال الثقافى فمنذ العصر العباسى اعتاد الطلاب التردد على القسطنطينية للتزود بالعلم ، ففى أواخر القرن الحادى عشر كان يتردد على القسطنطينية طلبة من العرب بل من بغداد نفسها ، وقام أحد علمائهم وهو باسيليوس بدراسة الآداب المصرية واليهودية القديمة[7] ، ما زالت التأثيرات البيزنطية المعمارية واضحة فى العمارة فى العصر الأيوبى ، ومازال بعض المهندسين

---

(١) Baynes : of . cit . p. 322 .

(٢) Bayens : of . cit . p. 222.

(٣) Miller : Essays on the Latin orient p. 527.

(٤) كان لكل من كونت طرابلس وحاكم أنطاكية حرس من المسلمين الأتراك كانوا من المولَّدين من أمهات يونانييات .

Miller : of . cit . p. 527 .

(٥) ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ٢١٣ .

(٦) Wiet : of . cit . p. 282.

(٧) رنسمان : الحضارة البيزنطية .

اليونـانيين يسهمون فى العمائر الإسلاميـة ، ومن الدليل على ذلك الثلاث بـوابات التى بنيت فى عصر العزيـز عام ١٠٧٨م وهى باب النصر ، باب زويلة ، بـاب الفتوح والتى قام ببنائها ثلاثة إخوة من الرهـا ، وكانت على الطراز البيزنطى وتم تجديد تلك البوابات بواسطة أحد الرهبان اليونان فى العهد الأيوبى[١] .

وتمثل عمائر صـلاح الـدين الحربيـة فى القاهـرة قـواعـد الفن الحربى المعمارى فى المدرستين اللاتينية ، العربية البيزنطية أحسن التمثيل وتوضح مدى التفاعل بينهما وبناء الحصـون فى بلاد الشـام يبـدو فيه هـذا التأثير[٢] ، وكـان الفـرنج يسيرون وفق التأثير البيزنطى وإن كان التأثير العربى بدأ ظـاهرا واهتم الامبراطور البيزنطى بعمارة الكنائس وإصلاحهـا بالـزخارف والفسيفسـاء اليونـانية ولا سيما كنيسـة بيت لحم[٣] ، واشتهـر البيزنطيون بصناعة الفسيفساء وبالفنون الصغرى والحفـر البارز الذى برعوا فيه وخاصة الذهب والميناء ، وحاول المسلمون تقليدهم وإن كانت الأمثلة الإسلامية فى هذا المجال نادرة ، وأورد المقريـزى فى قائمته عن الكنوز الفاطميـة ، لوحات ذهبية مزخرفـة بالميناء متعددة الألـوان وعثر فى أطـلال الفسطاط على قـرص من المعـدن عليه زخـرفة نبـاتية وكتابـة بالميناء المحـوطة بحواجـز دقيقة Cloisine يـرجع إلى العصر الفـاطمى[٤]وأهم النماذج البيزنطية المعروفـة فى صناعة المعادن المزخرفة بـالميناء طاس من النحاس الأحمر محفوظ بمتحف فيردیناند بمدينـة Innsbruckوفى هذا الطاس زخرفة محفورة ، فى وسطها جامة مرسوم فيها صورة ، تمثل صعود الإسكنـدر ، وحولها جامات أخرى فيها حيوانات خرافيـة ، على أرضية من أشجـار النخيل ، وأشكال قائمـة بذاتها ومع أن هـذا الطاس بيزنطى الطـراز فإن عليه كتـابة تثبت أنـه صنع لأمير من أمراء الـدولة الأرتقيـة فى بلاد

---

(١) Lane - Poole : A Hist. of Egypt . p. 247 .

(٢) سعداوى : الحرب والسلم زمن العدوان الصليبى ص ٢٠٨

(٣) Brooks : the relation between the Empire and Egypt p.285 (Byzantinische zeitschrift XXii .

هناك الصـور الجصية – الجداريـة الموجودة فى أبو غـوش بلـد العنب ، وهى أعمال يونـانية من القرن الثانى عشر .

(٤) زكى محمد حسن : الفنون الإسلامية ص ١١٣ .

الجزيرة حكم حوالى النصف الثانى من القرن الثانى عشر [١]، وقد كانت بيزنطة تستورد بعض النباتات الحيوية لديها من الدولة الأيوبية كالبلسان المستعمل فى المواد الطبية والشب الذى يستعمل فى الصباغة ، والبهار [٢].

وأثر سقوط القسطنطينية على النهضة الحضارية إذ تشتت السكان ، وتوقفت أعمال المدارس وتقاليدها ،ولم تكن الظروف مواتية لنهضة الآداب والفنون وازدهارها . واستعادة مجدها القديم ، وأصبحت القسطنطينية فى حالة من الفقر والضعف حتى اختفى كل ما كان من اتصالها وسيطرتها على الكنائس الأرثوذكسية ومنذ سقوط بيزنطة عام ١٢٠٤م صار نفوذ بيزنطة وتأثيرها على الدول الإسلامية بالغ الندرة[٣] .

أثر الحروب الصليبية على الأيوبيين والبيزنطيين :

وللحروب الصليبية باعتبارها ظاهرة تاريخية تأثير كبير على كلا الجانبين الإسلامى والبيزنطى سواء من الناحية السياسية أو الحضارية فحين بدأت هذه الحروب كان المركزان الاساسيان للحضارة هما القاهرة والقسطنطينية ، ولما انتهت انتقلت الحضارة إلى إيطاليا وإلى مدن الغرب الغنية ، تأثر الأوربيون بكل من العرب واليونانيين ، فأبدوا اهتماما عظيما بمعلوماتهم فى الأدب والصناعة والفن ، وكان الغرب فى المرتبة الثالثة كما يشير جيبون ، ولكن الأحداث التى دارت حول الغربيين فتحت أعينهم على العالم[٤] .

وعلى الرغم من أن الشعوب الغربية تفتقر إلى الخيال ، حتى تتصور ما يفيض به الشرق الإسلامى من ثروة وخيرات ، فإن الأسرى والحجاج الذين رأوا القسطنطينية والقاهرة وتحدثوا عن جمالها وعظمتها وتراثها الذى كان له أكبر الأثر فيما عاد من فائدة على الغرب بينما عانى البيزنطيون والمسلمون من تلك الحرب ، ففى البداية تعرض العالم الغربى لهجوم الأعداء من جميع الجهات من النورمان والعرب والمجريين الذين جعلوا أقطار أوربا الغربية فى حالة من الفوضى ، ثم كانت المرحلة الثانية فى القرن الحادى عشر حين خرج المسيحيون الغربيون فى أعداد ضخمة إلى الشرق فى الحروب

---

(١) زكى محمد حسن : تراث الإسلام ص ٣٥ .
(٢) ابن الأثير : تحفة العجائب ص ١٥٧، ١٥٨ ، مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ٤٩٩ جغرافيا .
(٣) رنسيمان : الحضارة البيزنطية ص ٣٥٩ .
(٤) Cibbon : of cit. vol .IV. P. 484.

الصليبية[1] ، وبدأت العلاقات بينهم وبين الشرق فى مد وجزر ، وازدادت معلومات الغرب وتقدم خلال المائة عام التالية من الحروب ، ومدح كثير من الفلاسفة هذه الحروب ، ولكن تأثيرها صدم التقدم الحضارى فى الشرق البيزنطى والعربى وإذا كان الغرب قد استفاد من الناحية الحضارية فإن حياة وأعمال مليون من الناس ضاعت هباء فى الشرق ، كان من الأفضل أن تستخدم فى النهوض بأحوال العالم الغربى[2] ، وإذا نظرنا لتأثير الحرب بالنسبة للجانب الإسلامى فإن الضرر كان أخف وطأة من التدمير الذى أصاب بيزنطه[3] ، فليست الحروب هى السبب الأساسى فى انهيار العالم الإسلامى كما حدث لبيزنطة ، وإثر التوسع التركى فى الخلافة العباسية ، وكانت عوامل الضعف تنخر فيها ، أما الخلافة الفاطمية فإن ما تعرضت له من الفوضى والاضطراب، وما توالى على البلاد من الأزمات الاقتصادية ، فضلا عن المصادمات بين الوزراء وقادة العناصر العسكرية المختلفة ، كل ذلك أسهم فيما بلغته الدولة الفاطمية من الانهيار ، ولم يكن للصليبيين دخل فى ازدياد قوة الترك ، إذ أمد الترك الإسلام بقوة جديدة، على أن تأثير الفتح المغولى كان أكثر ضررا بالنسبة للعالم الإسلامى والحضارة الإسلامية من تأثير الحروب الصليبية[4] ولا يمكن إلقاء تبعة استدعاء المغول على الصليبيين فرغم أن الصليبيين سعوا إلى التحالف مع المغول ، فإن من أهداف المغول الأساسية مهاجمة العالم الإسلامى والخلافة العباسية والأيوبيين[5]، ولكن الصليبيين كانوا ، سببا فى ضعف موقف المسلمين تجاه المغول وتشتت قواهم ، وكان قيام الولايات الصليبية داخل فلسطين وبلاد الشام له تأثيره السيء على تلك الأقطار ، ولم يمح من ذاكرة المسلمين على مَرِّ العصور ولم يحاول أهل البلاد تعلم عادات وتقاليد الغزاة . فلم يسمح لهم دينهم بذلك ، وحالت أخلاقهم البسيطة دون محاكاة عاداتهم فى السلم والحرب[6]
أما البزنطيون فإنهم شعروا نحو غزاتهم اللاتين بنوع من الترفع إذ أحسوا

---

(١) Gibbon : of . cit . vol IV . p. 486.
Miller : of . cit . p. 572.
(٢) Gibbon : of cit . vol VI p. 486 .
(٣) Runciman: of . cit pol . III . p . 474.
(٤) Runsiman : of . cit . pol . III . p . 473
(٥) Pirenne : the Tides of the History . pol . II p. 185 .
(٦) Gibbom : of . cit . vol . VI. p. 483 .

بتفوقهم فى الحضارة والفكر على شعب يقل عنهم فى المستوى الفكرى والحضارى .

وأعلن البيزنطيون أثناء خضوعهم للاتين كراهيتهم الواضحة لسادتهم الجدد ، ولم تجد نفعا محاولة كل امبراطور لاتينى فى التقرب من أهل القسطنطينية ، على أن قدوم الصليبيين أساء إلى الخلافة العباسية ، فالنظرية الإسلامية فى الحكم تعتمد على أن الخلفاء يستمدون سلطانهم من انحدارهم من نسل النبى[1] ، وكانت الخلافة فى تلك الفترة عاجزة عن قيادة العالم الإسلامى من الناحية السياسية والجغرافية إذ خضعت للبويهيين ثم السلاجقة ثم الخوارزميين وأصبح الخلفاء ألعوبة فى يد وزرائهم وقادتهم ، أما القادة الذين تولوا القتال ضد الصليبيين أمثال نور الدين وصلاح الدين الأيوبى فلقوا كل تقدير فى سبيل توحيد العالم الإسلامى .

اعترفوا بالسيادة الاسمية للخلافة العباسية فهم لا ينتمون للنبى بل إن كيانهم قائم على انتصاراتهم وفتوحاتهم ، فالحروب الصليبية وأخطارها هى التى هيأت لبنى أيوب الظهور وكمدافعين عن العالم الإسلامى ، فهم يمثلون القوة الحقيقية ، ولقد ظل وجودهم مرتبطا بقيامهم بالدفاع عن المملكة الإسلامية ضد الصليبيين ، وإذ تهاونوا كان ذلك إيذانا بأُفول نجمهم ، وقام الأيوبيون بذلك الدور خير قيام .

وامتد اضطهاد الصليبيين إلى إخوانهم فى الدين الأرثوذكس الذين ينتمون إلى الكنيسة الإغريقية البيزنطية[2] على حين أن صلاح الدين طالما حمى المسيحيين الأرثوذكس من اللاتين ، وأعاد إليهم كنائسهم ، فالإسلام لم يعرف التعصب ، ومع أن كل عقيدة جديدة تسعى لاضطهاد أتباع العقائد الأخرى ، فإن العقيدة الإسلامية اعتبرت المسيحيين واليهود أهل ذمة ولم تسىء إليهم[3] ، والمعروف إن المسيحيين قاموا بنشاط مجيد فى المجتمع ، بل إن عددا من المفكرين والكتاب العرب كانوا مسيحيين ، وكان الأطباء عادة من المسيحيين[4] ، وكانت حرية العقيدة مكفولة بنصوص القرآن وحدث أثناء نشوب الصراع بين بيزنطة والمسلمين أن قامت علاقات ودية وسفارات[5] جرت مراعاة للناحية الدينية ، رغم أن الصليبيين أثناء الحرب قاموا

---

(١) Runciman : of . cit . vol . III . p .473 .

(٢) Runciman : of . cit . vol . III . p .473 .

(٣) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٢٤٣ .

(٤) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٢٣٩ .

(٥) Runciman : of . cit . vol . III . p. 473.

بالاعتداء على الأراضى والمقدسات الإسلامية وأساءوا إلى المسلمين فإن التسامح الذى نعم به المسيحيون الشرقيون استمر .

ولقد اتبع صلاح الدين وأسرته تجاه المسيحيين ولا سيما أتباع كنيسة بيزنطة سياسة قائمة على التسامح والشجاعة والفروسية حتى أشار مؤرخ غربى أنه لايمكن إطلاقا أن نقارن بين صلاح الدين ومعاملته المرنة تجاه الصليبيين بالخوارزمية أو المغول وأحسن صلاح الدين إلى المسيحيين فى شطرى دولته مصر والشام ، لم يفرق بينهم فى المذهب ، فإن الشعب الإسلامى كان يكن الكراهية العميقة لغزاته ، ولم يترددوا فى بعض الأحيان من مواجهتهم بالمثل .

ومن ناحية بيزنطة ، لم يدر بخلد البابا إيريان الثانى حين طلب إلى الصليبيين القيام بحملة لمساعدة المسيحية الشرقية وإنقاذها ، أن الحملات الصليبية ستوجه إلى الحضارة البيزنطية ، وستكون معول هدم للمسيحية الشرقية ، وللامبراطورية التى طالما كانت مركزا من مراكز القوى المسيحية[1] . فالمعروف أن الشعوب إذا اتصلت وتبادلت الزيارات تيسر الوصول للتفاهم ؛ كانت علاقة بيزنطة والغرب أول الأمر محدودة ، اقتصرت على موقف بيزنطة من الحجاج الغربيين والجنود الذين اجتازوا بلادها وزاروا القسطنطينية فاستقبلهم الملك ، ثم عادوا ليتحدثوا عن بيزنطة وثرائها الذى بهر كل من زارها حتى فى فترات ضعفها كما تحدث عنها الرحالة العرب والحجاج الفرنجة[2] ، وقال عنها روبرت كلارى إن بها ثلاثة أرباع ثروات العالم[3] على أن المشكلة الأساسية التى أثارت النزاع ، فتتمثل فى محاولات البابوية فرض سيطرتها على الكنيسة اليونانية ، فلما قرر النورمان مد سلطانهم فى البحر المتوسط ، تصادمت مصالح بيزنطة والعالم الغربى[4] ، وحين بدأت الحروب الصليبية كان لبيزنطة دور فى الدعوة إليها ، غير أنه لم يلبث أن ظهر الاختلاف بين هدف الامبراطور من الحملات الصليبية وهدف اللاتين[5] إذ كان الامبراطور يرى أن تقوم الحملات الصليبية باستعادة حدوده التى

---

(١) Runciman : of . cit . vol . III . p. 476.

(٢) Baynes : of . cit . p. 322.

(٣) كلارى : فتح القسطنطينية ص ٢٢ ، ١٣٦ .

(٤) Runciman : of . cit. vol . III. p.476.

(٥) Miller : of . cit . p. 534.

استولى عليها الأتراك السلاجقة بينما كان هـدف الصليبيين استعادة الأراضى المقـدسة من أجل العقيدة لا لمصلحـة بيزنطـة ، ونزع الصليبيون إلى إقـامة إمـارات مستقلة ، ولم يـرض قـادتهم عما طلبه منهـم الامبراطور من تقـديم الـولاء والتبعيـة ،أضحى الجنـود والحجاج أنفسهم يعيشون فى بلاد يختلف سكـانها عنهم فى العادات والتقاليد واللغات والعقيـدة التى يعتبرونها مخالفـة لعقيدتهم ، واشتبك أفـراد تلك الحمـلات مع الأهلين وخربـوا أراضى كثيرة من الولايـات البيزنطيـة مما دعا بيـزنطة إلى اتخاذ مـوقف مُعَادٍ فى بعض الأحيان وقيام جنـودها بكبح جماحهم ، ففكر الصليبيون فى غـزو بيزنطة ، فنصح قادة لويس السابع وأساقفته بمهاجمة القسطنطينية ، ولكنه رفض ، وكذلك راودت تلك الفكرة فـردريك بربروسه ، ولكنهـا لم تتحقق حتى جاءت الحملة الرابعـة التى استولت على القسطنطينية وأقامـت مملكة لا تينية بها[2] ، وكان هـذا تشتيتا للحركـة الصليبية ، فبدلا من تكتل القـوى الصليبية لاستعادة الأرض المقـدسة ، فإنها توجهت لقتـال بلاد مسيحية بـالغة الأهميـة ، وغلب على البابـوية نفسها المصـالح الدنيـوية بأن أقـرت ما حدث من الاستيـلاء على القسطنطينية ، ولم تجعل الصليبيين فى الشرق الأدنى ، وحينما استعادت بيزنطـة عاصمتها كان قـد انتاب الكيان البيزنطى كثير مـن التدمير ، وحاول اللاتين استعـادة نفوذهم دون جـدوى ، ولم يكن سعى الغربيين لإلحاق الأذى ببيـزنطة وأراضيها إلا تدميرا لا لبيـزنطة فحسب ، بل تدميرا للحضارة الأوربيـة ، فالقسطنطينية كانت مركز الحضارة المسيحية العالمية ، وتعرضت الحضارة البيزنطية للتدمير على أيدى اللاتين وانتقل مـركز الإشعـاع الحضارى إلى إيطـاليا فى القرنين الـرابع عشر والخامس عشر ، أما من النـاحية السياسية فلم تستطع بيـزنطة استعادة مجد الامبراطوريـة القديم فبعد عـام ١٢٠٤م لم تعد هناك امبراطـورية واحدة بـالمعنى القديم إنما قـامت إمارات عديدة متنازعـة متنافسة ، تواجه عداء الغرب والولايـات البلقانية المجاورة ولا تستطيع حماية البلاد طـويلا ضد الترك ، فالصليبيـون هم فعلا الذين حطمـوا الجبهة المسيحية الأولى ، وتسببوا فى السماح للترك بـالعبور إلى جـوف أوربا ولم تكن ضحـايا المسيحيين الحقيقيين هم الفـرسان الـذين سقطـوا فى قـرون حطين ولا على أسوار عكـا، بل أولئك المسيحيون فى البلقان والأناضول[3] كما أن الحروب لم تسىء إلى يـونانيين بيزنطـة بل إلى

(١) Runciman : of . cit . col . III. p. 476.

(٢) Runciman : of . cit . vol . III. p.476.

(٣) Gibbon : of . cit. vol . VI. p. 466,468.

اليونانيين فى الممالك اللاتينيـة ، إذ تدخلوا فى شعـائر الكنائس وتخلـوا عن حمايتها من المسلمين، بل تعرض أولئـك للسخط من قِبَلِ المسلمين فيما بعد لمحاولتهـم التقرب من المغول لاعتقـادهم أن المغول سوف يبذلـون لهم الحرية ، غير أنه لم يـؤد ذلك إلا لضياع أراضيهم وتخريب السـاحل الشـامى[1] و بـرغم خضـوع اللاتين للتأثيرات البيـزنطيـة وارتباطهم بـروابط المصاهـرة مع بيزنطة لم تحاول أى أميرة بيـزنطية تـزوجت فى ألمانيا أن تمارس الدعوة لبلادها[2] .

أفاد الصليبيون من صلاتهم بالعرب وبيـزنطة ، إذ كان الغرب بالغ التخلف ، فلما انتهت الحروب الصليبية بدأت نهضة جديدة فى الغرب[3] أفادت من حضارة الشعبين العريقين فـالمسلمون والبيـزنطيون ، اللذين استمـدا حضارتها وتـراثها من الشعوب القديمة مما حظى به الغرب من مظـاهر الترف وما وصل إليه الحرير والسكر والسمسم والأرز والليمون والبطيخ والثوم كل ذلك عن كل من الإغريق ومصر[4] .

أيقظت الحروب الصليبيـة الفكر الغـربى ودفعت رجال الغـرب لدراسـة الآداب المختلفة لليـونانيين والعرب وعلـومهم ، وتسربت بعض الآثار البيزنطيـة إلى الغرب فى الفترة السابقة على الحروب الصليبية ، ثم عن طـريق المصاهرات التى قامت بينهم ، ثم الاتصال مع الغرب عن طريق التجار الإيطـاليين وسردينيا ، ومع ذلك فإن الغرب كان ينظر إلى البيزنطى وقتذاك نظرة الكراهية المقترنة بالاحتقار بوصفة منشقا[5] ، ولكن ثراء القسطنطينية وما بها من وسائل الترف جعلها مدينة الأحلام ، فإلى جانب اهتمام الغرب فى تلك الفترة بالآداب والفلسفـة ، اهتموا بالـرياضة والطب ، واقتضت الحاجـة القيام ببعض الترجمات لتلك الأعمال الشـاملـة ونشر أفلاطـون وروائع هـوميروس[6] ، وإن وصلت تلك المؤلفات الكـلاسيكية اليونـانية مثل مؤلفـات أرسطو وجالينـوس على يد العرب وليس بطريق مباشر من بيزنطة العصور الوسطى ، فما زال أرسطو مجهولا بالنسبة لجامعـات الغـرب ، ولقـد سعى الغــربيـون إلى الحصـول على تـرجمات لتلك الأعمال

---

(١) رنسمان : الحضارة البيزنطية ص ١٩١ .

(٢) Runciman : of cit . vol . III. p. 472. 478.

(٣) Gibbon : of . cit . vol . VI . p. 483.

(٤) Gibbon : of . cit . vol . VI. p. 485.

(٥) رنسمان : الحضارة البيزنطية ص ٣٦٥ .

(٦) Gibbon: of . cit . vol . VI. p . 485.

عن طـريق اليهود ، وعن طـريق عرب أسبـانيا على الأرجح لا عـرب الشرق إذ نقلوا إلى الغرب الفكر اليونانى وإن كانت بعض الترجمات مشوهة[1] ، وفى بعض حالات تأثروا بـالشرقيين ونقلوا عن الغـرب الفلك والهنـدسة ، كما أن ليـونارد فبرانشى طـاف بمصر وسورية[2] ، وهـو أول عالم غـربى اشتغل بالجبر ، وفى الفترة الستين عـاما التى قضتهـا القسطنطينية خاضعة للاتين ، توقع الـلاتين عن ثقافة تابعيهم وحضاراتهم التى كانت أكثـر تقدمـا إنما جـاءوا للنهب والسلب والتـدمير دون أن يتعرض للتحطيم والتـدمير وكـانت الوثـائق والكتب هى الشىء الـوحيد الـذى تمتع بـه أهل القسطنطينية وكـان التجار الإيطاليين وحدهم هم الذين قدروا هذه الينابيع الحضارية .

وتأثر الغربيون لا سيما حكام الممالك الـلاتينية بالشرق بالمسلمين فدخلت بعض المصطلحات العـربية فإذا الغـرب يستعمل مصطلحـات عربية فى التجـارة مثل Tarft, Diner , Bazar وفى الشئون البحرية Admiral . ولكن ليس من المحقق أنها جـاءت نتيجة للحـروب الصليبيـة ، فـربما انتقلت إلى البيـزنطيين من قبل ثم انتقلت إلى الغـرب عن طريق بيزنطة[3] .

ومن الناحية التجارية ازداد النشاط التجارى بين الشرق والغرب سواء مع العرب أو بيزنطة ، وسيطرت المدن الإيطـالية التجارية عليه مما أدى إلى تـدفق البضائع الشرقية على الغـرب الأوروبى[4] وقامت أسـواق تجارية هـامة فى جميع انحـــاء الغرب مثــل فلانـدر والراين لمبارديا وأدى هـذا إلى تدفق الثروات وازدياد قـوة القومونات الإيطـالية والاهتمام بالنـاحية البحريـة والطرق التجاريـة ، ولكن برغم أهميـة تجارة الشرق العربى بالنسبة للعـالم الغربى فإنه لم تنتشر دراسة لغاتهم ومعلومـاتهم فى مدارس أوربا[5] ، فما حرصت عليه البابوية عدم انتشار مصطلحات القرآن[6] ، ومع ذلك فإن بعض الفرنج

---

(١) Gibbon : of . cit . vol VI. p. 485.

فى معظم الحالات كانت الترجمة عن العربية تسبق زمنيًا الترجمة عن اليونانية ، وعاشور : الحضارة الأوروبية ص ١٨٤ .

(٢) زكى محمد حسن : الفنون الإسلامية ص ١٢٣ .

(٣) زكى محمد حسن : الفنون الإسلامية ص ١١٢ .

(٤) Miller : of . cit. p. 526 .

(٥) Camb - Med . Hist . Vol . IV. P.324.

(٦) Gibbon : of . cit . vol VI. p. 485.

كان يتكلم العربيـة ، وهناك نقود تحمل الطابع العربى والفرنجى بـرغم قرارات الحرمان التى أصدرهـا البابا ، وربما كان علم الحسـاب والأرقام العربية راجعـة إلى التجارة التى راجت بين إيطاليا والشرق[1] .

أخذ الـلاتين بعض فنون بناء القـلاع وبعض التقاليـد الحربية البيزنطيـة فجهزوا جيوشهم على النظـام البيزنطى ، وأخـذوا عن العرب حمام الـزاجل واستعمال الشارات (الـرنوك) وألعـاب التطاحن واستعمال الـدروع واستخـدام المنجنيق وأكياس البـارود وأنـواع الوقـود وذلك رغم أصلها البيـزنطى[2] ، وكـان لكـونت طـرابلس حـرس من المسلمين[3] ، جماعات جـديدة فى الغرب نتيجة لاتصـالهم بالعرب وبيزنطـة فالموسلين من الموصل والأقمشـة القطنيـة من مصر والـدمشقية مـن دمشق والأقمشة الحريـريـة الثقيلة التى تعـرف باسم Samiter الأقمشة القطـنـية المتينـة البيــضاء التى تسمى الأقمشة Dameties وأقمشة الكتان التى تجلب من بيزنطة[4] ، أما بالنسبة لبيزنطة فإن كل ما حرص عليه الحجاج الحصول على المخلفات المقدسة فى القسطنطينية أو القدس وأساء هذا إلى العقيدة الكاثوليكية فهذا التخـريب للحصول على المقدسات أساء إلى السكان ، ودل على مدى التأخر الذى عانوه .

وإن كان الامبراطور فردريك الثانى هو الوحيد الذى كان ذا فكر ثورى فأخذ عن بيزنطة الفكر والطرائق التى تستخدمها حكـومة الامبراطورية وهيئتها القديم[5] وذلك بسبب تحالفه مع أباطـرة نيقية ومصاهرته لهم ، وخلافـه مع البابا ثم علاقاتـه الودية مع العرب وإجادته العربية وعلومها وآدابها وصداقته للعادل والأيوبيين عامة[6] .

لقد أغلق اللاتين فى القسطنطينية والمغول فى فارس وبلاد الجزيرة السبيل أمام أى انتعاش سـواء كان للمسلمين العرب أم للتقاليـد الإغريقية المسيحية ، فبـذلك نرى أن الحضارتين الإيطالية والغربية عامة هم المستفيدون الوحيدون من انهيار بيزنطة[7] .

---

(١) Runaiman L of . cit . vol . III. p.471.

(٢) زكى محمد حسن : تراث الإسلام ص ١١٥ .

(٣) Miller : of . cit . p. 520 .

(٤) زكى محمد حسن : الفنون الإسلامية ص ١١٢ .

(٥) Gibbon : of . cit . vol . VI. p. 485.

(٦) رنسمان : الحضارة البيزنطية ص ٣٦٥ .

(٧) Baynes : of . cit . p. 325.
Gibbon : of . cit . vol . VI. M. 485.

أثر العرب وبيزنطة فى الحضارة الإيطالية :

كان للاتصال الحضارى بالمسلمين والبيزنطيين ومستوياتها العالية تأثير حاسم فى غرب أوربا ، بل كان ذلك الاتصال من أهم عناصر تطور الحضارة الأوربية كلها فى العصور الوسطى ، وظهر ذلك من ناحية فى نشأة التقاليد البلاطية الأرستقراطية الجديدة فى غرب أوربا وفى نهضة الأدب الأوربى القومى الجديد ، كما ظهر من ناحية أخرى فى دخول التقاليد العلمية العربية اليونانية ، وقيام الحركةالفكرية الجديدة فى الغرب الأوربى ، وظلت تلك المؤثرات واضحة فى سماء المعرفة حتى سطعت إلى جانبها مؤثرات حركة النهضة الأوربية الكبرى وهى مؤثرات نابعة من إحياء التقاليد الكلاسيكية ورافق ذلك فتح الأتراك العثمانيين للقسطنطينية وانعزال غرب أوربا عن العالم الإسلامى حتى إذا انتهت العصور الوسطى أدارت أوربا ظهرها للشرق وأخذت تنظر غربا شطر المحيط الأطلنطى[1] .

كان للإسلام والحضارة البيزنطية أثر كبير فى تقدم الحضارة الإيطالية ترجع صلة إيطاليا ببيزنطة والعرب إلى الفترة السابقة على الحروب الصليبية إذ صانت بيزنطة للنهضة الإيطالية كنوز الأدب والفكر الكلاسيكى ، وفى البداية كانت رافنا من ممتلكات إيطاليا[2] ، ويبدو أثر الصراع الدينى فى الناحيةالمعمارية ، وتجلى هذا فى الفسيفساء والصور ، ثم ظهرت البندقية على مسرح الأحداث كوسيط تجارى بين الشرق البيزنطى والعربى ، وبرغم أن لغتها لاتينية فقد كان فنها بيزنطيًا وكنيسة القديس مرقس صورة من كنيسة الرسل القدامى ، وكانوا يرسلون أبناءهم فى نهاية القرن الحادى عشر إلى القسطنطينية .

تأثرت فرنسا أيضا بالحضارة البيزنطية ، وظل أثر الإسلام باقيا فى صقلية التى حكمها العرب لعدة قرون ، وانتشرت فيها الحضارة والثقافة العربية حتى بعد سقوطها فى أيدى النورمان ، إذ اهتم ملوكها بالثقافة العربية والحضارة وأجاد بعضهم العربية .

وعندما سقطت بيزنطة فى يد اللاتين ، لم يتأثر حكامها الجدد بحضارتها ، ودفعهم جشعهم لتدمير المدينة ، أما البنادقة فاهتموا بتلك

---

(١) داوسن (كريستوفر) : تكوين أوربا (ترجمة زيادة وعاشور) ص ٣٧٠ .

(٢) رنسيمان : الحضارة البيزنطية ص ٣٦١ .

الحضارة[١] ، وقد رأوا أن سقوط بيزنطة يعنى انهيـارا لحضارتها التى وجدت صدرا رحبا فى إ يطاليا[٢] ، وازداد الاهتمام بالـدراسات الإنسانية نتيجـة للحملة الرابعـة والحضارة البيزنطيـة ولكنها لم تصل إلى مـا وصلت إليه[٣] لولا فضـل بيزنطة والإسـلام ، فإن لهما تأثيرًا على أصـول النهضة الإيطـالية ، فإن تلك المعلـومات الكـلاسيكية التى حفظهـا ورعاها البيـزنطيون والعرب ، كانت أسـاسا للنهضة الأوربية فى إيطـاليا ، ويكفى هذا دليلا على أثربيزنطة والإسلام فى النهضة الإيطالية[٤] .

التجـــارة:

كانت حياة بيزنطة قائمة على تجارتها ، فهى التى أمدت أجهزتها السياسية بنفقاتها الضخمة ، ولما انهارت تجارة بيزنطـة اقترن هذا بانهيارهـا السياسى[٥] ، ولم تكن الفتـوح العربية مسئولة عن انهيار تجارة بيزنطة بل كانت بيزنطة والإسلام قطبى التجارة كما كانا قطبى الحضارة فاقتسما مناطق النقوذ، ولما فتح العرب الشام ومصر ، سيطروا على البحر الأبيض المتوسط والمحيط الهندى وكـان إيذانا بسقوط مملكة أثيوبيـا التى كانت سفنها تمخر البحـار بين الإسكندرية والخيلج الفـارسى ، وكان البيزنطيـون يسعون إلى استيراد المتاجر الشرقيـة التى تعتبر ركنا أساسيا فى تجارتهم ، أصبحت الطمأنينـة التى تمتعوا بها عن هذا الطريق عـاملا قرب هذه المتاجـر للدولة البيزنطية وأزال العقبـات التى أقامها الفر س ، وكانت تجارةالشرق تجتاز طرقا عديدة ولكن معظمها كان يمر بأراضى بيزنطة أو موانىء بيزنطية[٦] .

وكان للعملـة البيزنطيـة احترام كبير وكان لها قيمتها فى السـوق الدوليـة فرغم أن لـلأيـوبيين عملتهم الخاصـة فلم يمنع ذلك من التعـامل بـالـدينـار البيـزنطى الـذى استخدمـه اللاتين أيضـا فيما بعد[٧] وكـذلك اهتموا بـالموازين البيزنطيـة ، ولقد كـان للمسلمين جاليـة كبيرة فى طرابيزون ، والغـريب فى الأمر أنه رغم الأحـداث التى مر بها

---

(١) Gibbon : op . cit . vol . VI . p. 485.

(٢) Baynes : op . cit. p. 323.

(٣) Runciman : op . cit . vol . III. p. 477.

(٤) Baynes : op . cit . p. 325 .

(٥) Pirenne : op . cit . vol . II. p. 125 .

(٦) Heyd : op . cit . Tome . I. p. 21.

(٧) Baynes : op . cit . p. 68.

التاريخ البيزنطى والتى أصبحت فيها العلاقات البيزنطية الإسلامية تكاد تصبح سرابا،كثرت أعداد المسلمين فى طرابيزون بعد سقوط القسطنطينية(١) .

ومما جعل لبيزنطة أهمية تجارية ، موقعها عند التقاء آسيا وأوربا وأفريقيا ، وكل الطرق البرية والبحرية التى تصل بين أوربا الشرقية والبحر المتوسط ، وهذا الموقع الجغرافى كان له أهمية من وجهة النظر السياسية ،لأن الولايات الإيطالية والدانوب أو آسيا الصغرى لن تستطيع التوسع دون محاولة الاعتداء على الأراضى الإغريقية ، كما منحت الطبيعة لبيزنطة موانىء ومنافذ طبيعية مثل سالونيكا(٢) .

استمرت تجارة بيزنطة مزدهرة من القرن الخامس إلى الحادى عشر الميلادى(٣) . وشهدت الفترة من القرن السادس إلى العاشر الميلادى ازدهار التجارة بين العالمين الإسلامى والبيزنطى وبلغ من اهتمام بيزنطة بتجارة الشرق أن أوربا احتكرت الصناعات التى تقوم على الواردات الشرقية مثل صناعة الحرير والمجوهرات والنقش على العاج والأحجار وازداد دخل الدولتين من المكوس التى كانت تجبى على التجارة سواء فى القسطنطينية أو القاهرة(٤) ، وأقيمت الفنادق والأسواق ، وتحدث عنها الرحالة الفارسى - ناصر وخسرو واتبعت نظاما يتعلق بإقامة التجار فى المدن ، وكانت المكوس فى الجانب الإسلامى تبلغ العشر ، وكذلك بيزنطة كانت تحصل على حوالى ١٠٪(٥) .

ومع بداية القرن الحادى عشر بدأ ضعف الامبراطورية وبداية انهيار تلك التجارة العالمية ، مقترنا بضعف الأسطول ، إذ ظلت التجارة البيزنطية تمخر المحيطات فى حماية أسطولها من القراصنة ، بل إن التجارة البيزنطية إلى إيطاليا فى البداية حملها تجار من اليونان ، ويرجع المؤرخون أسباب عدة لذلك الانهيار ، منها ما هو داخلى مثل تدخل الحكومة المستمر فى شئون الصناعة والتجارة وفساد الإدارة الحكومية(٦) ، ولكن للأسباب السياسية أهمية بالغة ، إذ أن باسيل الثانى أهمل السياسة البحرية ، يضاف

(١) ابن سعيد : الأخبار الطوال ص ١١٨ .

(٢) Baynes : op . cit . p. 68.70.

(٣) Baynes : op . cit . p.68.70 .

(٤) Pirenne : op. cit . vol . II. p. 186.

(٥) Heyd : op. cit . vol . I. p. 58.

(٦) رنسمان : الحضارة البيزنطية ص ٢٠١ .

إلى ذلك السلاجقة وانتزاعهم ولايات آسيا الصغرى الغنية[1] ، وفى خلال القرن الحادى عشر كان التوسع النورمانى المصحوب بنقل صناعة الحرير إلى صقلية ، وفى نفس الوقت نتج عن الحروب الصليبية الثلاثة الأولى نقل مركز التجارة من القسطنطينية إلى إيطاليا ، وهذا يرجع لسياسة بيزنطة التجارية التى كانت تهدف إلى فتح أسواقها لجميع الأمم ومنحهم الامتيازات الواسعة فكسدت أسواقها[2].

وكان من أسباب انهيار بيزنطة الاقتصادى أنها لم تكن دائما البادية بالهجوم ، بل استكانت فهيأت الفرصة للترك للهجوم ومكنت للمدن الإيطالية من نشر نفوذها ، إذ قضى الغزو السلجوقى بدايته على تنظيم الجيش والأسطول الامبراطورى ، وأضاع مصدر تموين هام ، فركن البيزنطيون إلى مساعدة المدن الإيطالية ، وأدت هذه المساعدة رويدا رويدا إلى السيطرة الكاملة على تجارة بيزنطة[3] ، وكانت الحروب الصليبية تدعيما لهم فلم تعد البضائع تنقل إلى طرابيزون وعبر آسيا الصغرى ، نظرا ؛ لأن السلاجقة أغلقوا هذه الطرق ، بل فكانت تنقل إلى السفن الراسية فى موانىء سورية اللاتينية ، حيث تحملها السفن الإيطالية إلى الغرب رأسا ، لذلك تتجنب الرسوم الجمركية التى تفرضها بيزنطة ، مما أدى إلى سيطرة التجار الإيطاليين على تجارة بيزنطة ، ويقول شارل ديل : إن القسطنطينية ظلت أهم مركز تجارى فى العالم حتى سقوطها »[4]ولكن الامبراطوررية لم تستفد من موقعها ، بل استفاد منه البنادقة الذين أصبحوا السادة الحقيقيين للعاصمة ، وفى البداية حرص الأباطرة على تضييق نطاق هذه السياسة وحرصوا على منع تجار البندقية من الاتجار فى الأخشاب والمواد الحربية مع حكام المسلمين ، ثم أخذ الأباطرة من آل كومنين وأنجيلوس يمنحون البندقية عدة مميزات خاصة بتخفيض الرسوم الجمركية ، ثم منحوها لبيزا وجنوه[5] ، فأصبحت الرسوم لاتتجاوز ٤٪ ، أما الكسيوس فقد فتح الباب على مصراعيه لتصبح تجارة البندقية من سنة ١٠٨٢م تجارة عالمية فأعفوا من الضرائب والتفتيش الجمركى وعدم دفع

---

(١) Gibbon : of. cit . vol . VI. p.1486.

(٢) Baynes : of . cit. p. 64,65.

(٣) Miller : of . cit . p. 56 .

(٤) ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية ص ٣٠ .

(٥) Heyd : of . cit . Tome . I . 109. 110.

الرسوم عند الاستيراد والتصدير وأكد هذا خليفتاه يوحنا[1] سنة ١١٢٦م وما نويل سنة ١١٤٧م اللذان وسعا الحى البندقى فى القسطنطينية وجعلا لهم فى كريت وقبرص مالهم من الامتيازات ومن بعدهما أكد هذه الامتيازات إسحاق أنجليوس ١١٨٧ والكسيوس الثالث ١١٩٨م.

وإذا نظرنا للعلاقات التجارية بين بيزنطة والجانب الإسلامى فى تلك الفترة يتضح لنا أن الإيطاليين لم يسعوا فقط إلى السيطرة على تجارة بيزنطة ، بل سعوا إلى السيطرة أيضا على التجارة بين بيزنطة والشرق العربى ثم السيطرة على التجارة العالمية[2] واتخذت العلاقات التجارية مع بيزنطة زمن الأيوبيين مراحل عديدة ، ففى المرحلة الأولى التى تمتد من أواخر الدولة الفاطمية حتى نهاية حكم العادل الأيوبى وهى الفترة التى تشغل الفترة السابقة على سقوط القسطنطينية كثر تسلل البنادقة إلى أراضى كل من بيزنطة والأيوبيين غير أن ذلك لم يمنع من قيام علاقات مباشرة بين الأيوبيين والبيزنطيين ومن الدليل على ذلك تواجد طوائف التجار فى أراضى الجانبين وهذه الفترة انتهت سنة ١٢٠٤م بسقوط القسطنطينية ، وبدأت فترة جديدة تم فيها إخضاع بيزنطة ، وسعى البنادقة إلى السيطرة على مصر نفسها .

ففى الفترة الأولى نرى ازدهار الحياة التجارية فى كل من الإسكندرية والقسطنطينية فكانت المتاجر تأتى إلى الإسكندرية بالبضائع من بيزنطة وجميع أنحاء العالم ، واشتهرت بأسواقها وفنادقها وصناعتها وخاصة صناعة الأقمشة[3] ، وكذلك كان الأمر بالنسبة لبيزنطة فقد جنى أباطرتها دخلا من التجارة الخارجية والضرائب الجمركية والخانات تجاوز عشرين ألف فلورنس ، ونرى انعكاسا لهذا الوضع فى جميع كتابات الرحالة الذين زاروا كلاً من القسطنطينية والشرق الإسلامى خلال الحكم الأيوبى ، تحدث بنيامين التديلى عن ثراء كل من بيزنطة والإسكندرية ونهضتها التجارية وذكر العلاقات الوطيدة بين الجانبين ، وشاهد السفن البيزنطية فى موانىء الإسكندرية[4]، وذكر أن

---

(١) Camb . Med . Hist . vol . IV. p. 762 .

(٢) Camb .of. cit . vol . IV. p. 413 .

(٣) وهى فرصة بلاد المغرب والأندلس ، وجزائر الترك ، وبلاد الروم والشام: ابن الأثير تحفة العجائب ص ١٥٧ .

(٤) (بنيامين) رحلة بنيامين التطيلى ص ٧٩ .

بيزنطة لا تقارن إلا ببغداد فى نشاطها التجارى وثرائها وقارن بين منارة الإسكندرية وبين منارة بيزنطة[1] ، كما فعل الهروى الذى زار بيزنطة فى فترة متقاربة وتحدث عن الفنادق والتجار العرب الذين رآهم .

ولقد لقى البيزنطيون وتجارهم الرعاية والاهتمام فى مصر وحظوا برعاية السلطات المصرية ، وكذلك نعم التجار المسلمون فى بيزنطة بكل وسائل الراحة والمعاملة الطيبة وأُتيح لهم تأدية شعائرهم الإسلامية فى جامع القسطنطينية الذى اهتم كل من صلاح الدين وابنه العزيز بعمارته ، وكانت لهم فنادقهم وأسواقهم الخاصة[2] ، ولكن عند سقوط القسطنطينية لقى التجار المسلمون الاضطهاد على يد اللاتين كما لقيه الإغريق ، وقد قامت علاقات تجارية بين بيزنطة وقونية ، وخاصة حين حرم فاناتزيس إستيراد مواد الترف الشرقية وحرم التجارة مع البندقية[3] .

استوردت بيزنطة من الشرق الإسلامى التوابل والعطور التى كان يأتى بها التجار من الهند فيشتريها تجار بيزنطة وغيرهم من التجار ، فضلا عن سلع أخرى درج البيزنطيون وملوكهم على طلبها وهو دهان البلسان ، وكان سلاطين الأيوبيين يحرصون على تلك المادة لأهميتها فى صناعة الأدوية ، فيشتريه ملوك النصارى من الحبشة والروم والفرنج فيستهدونه . وظلت الإسكندرية إلى عهد طويل مركزا من مراكز التجارة العالمية وحين يذكر بنيامين التجار الذين ترددوا على الإسكندرية يطلق على البيزنطيين لفظ رومان تمييزا لهم عن التجار الفرنجة من البندقية وغيرها[4] .

وقد قامت علاقات تجارية بين بيزنطة وقونية قائمة على التبادل فقدم أهل قونيه الفضة والذهب وأدوات الترف فى مقابل المواد الغذائية ، وكان أهم ما سعى السلاجقة لاستيراده مصنوعات طيبة من المنسوجات الحريرية ، ونتيجة للغزو المغولى وتخريبه للإمارات المجاورة ازدهرت حركة التجارة بين الطرفين وزادت أهمية طرابيزون بعد سقوط الخلافة ١٢٢٨ على يد هولاكو فقد جعل المغول التجارة تمر عبر الشرق إلى

---

(١) المدينة حركة المدائن من التجار القادمين إليها من بال وشنسار (اسم وادى الرافدين فى التوراة) بنيامين التطليلى ص ٧٩ .

(٢) الهروى : الإشارات إلى معرفة الزيارات ورقة .

(٣) ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ١٠٩ .

(٤) بنيامين : رحلة بنيامين ص ٧٩ .

طرابيزون والبحر الأسود بدلا من البحر المتوسط فانتعشت الحركة التجارية[1] .

فى الفترة التالية سيطر البنادقة على التجارة بين الأيوبيين والقسطنطينية نتيجة للمعاهدات العديدة التى عقدوها مع الأيوبيين ومكنتهم من احتكار التجارة فى الدولة الأيوبية بشطريها مصر والشام وأجاد كثير من التجار اللاتين اللغتين العربية واليونانية واستمر احتكار البنادقة للتجارة الشرقية إلى سقوط الدولة اللاتينية فى القسطنطينية فى أيدى آل باليولوجس .

الإجراءات الجمركية :

اتبع البيزنطيون والمسلمون نظاما جمركيا خاصا وأورد كثير من المؤرخين العرب ذكر تفاصيل ذلك النظام فكان يأخذ العشر حوالى ١٠٪ من دخل الصادرات والواردات سواء من بيزنطة أو المسلمين .

واتخذت الجمارك الإسلامية خطة دقيقة ، وخير مثال يعطيه ابن مماتى وابن جبير فقد كان أكثر ما ضايقه فى رحلته فى مصر هو الإجراءات الجمركية ، فكان يصعد إلى المركب مندوب من قِبَلِ السلطان يقيد جميع ما جلب فيه ويحصى جميع ما فى السفينة ويكتب أسماءهم وصنائعهم ويسأل كل واحد عما لديه من سلع ، وما لديه من مال ، بل أحيانا يصل الأمر إلى التفتيش الشخصى ، والضرائب على الصادرات والواردات تصل إلى الخمس بالنسبة للتجار الروم كما يذكر ابن مماتى[2] .

والمعروف أنه جرى تشييد الفنادق ليقيم بها التجار ، وكانت إقامة التجار تخضع لرقابة وإشراف الحكومة فلابد للتاجر أن يحصل على تصريح خاص من الحكومة ، وكان فى بيزنطة كثير من التجار وخاصة من سوريا ، وجميع المواد الخام احتكارا للدولة ولم تسمح بيزنطة للتجار الأجانب المسلمين بالإقامة أكثر من ثلاثة أشهر[3]ولم يختلف الوضع فى هذه الناحية عند المسلمين إذ كان للتجار فنادقهم ، وكان الفندق يتألف من طابقين : الأعلى للإقامة ، والأدنى لحفظ البضائع ، ونعم التجار بحماية الدولة لبضائعهم ولأشخاصهم[4] ، وأقام التجار اللاتين فى فنادق طرابلس وحلب واللاذقية

(١) Ostrogorsky : op . cit. p. 345 .

(٢) ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ٧ ، ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٢٢ و ٢٣ .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٣ ، رنسمان : الحضارة البيزنطية ص ٢٠٦.

(٤) Heyd : op . cit . Tome . I. p. 332.

ودمشق وفى القاهرة حى عـرف بحى الروم ، وفى بغداد دار الروم [1] ترتب على الانهيار التجارى انهيار للعملـة البيزنطية التى كانت لها قيمتها من قبل العهـد الإسلامى، وقد اتخذ الدينار البيزنطى أساسا للعملة الذهبية فى القرن التاسع والعاشر الميلادى ، وظلت الموازين البيزنطية مستعملة فى البلاد الإسلامية ولا سيما فى سوريا ومصر لمدة طويلة فى الـقرن الـحادى عـشر أصبـحـت Besant . Nomisima عملة عالميـة تمد الامبراطورية بأداة فعالة وأصبح Besant له أهميـة بالنسبـة للعالم الخارجى ، ولكن بعـد سنة ١٢٠٤ انهارت قيمتهـا ، ومع ذلك فإن البنـادقـة استعملـوا فى تجارتهم العـالميـة فى الشرق وفى ممتلكات الـدولة الأيـوبية فى الشام عملـة كانت تعـرف باسم Byzantium Saracennii العملـة البيـزنطية الإسـلاميـة ، وهى عملـة ذهبيـة ضربها اللاتين للتعـامل مع البـلاد الإسلامية البعيدة عن الشاطىء[2] ، وكان على هذه القطع نقوش عـربية وبعض آيات من القرآن إشارة إلى النبى وتاريخ هجرى وظلت مستعملة حتى عام ١٢٤٩م .

ودفع لويس التـاسع فديتـه بالدينـار البيزنطى فالـدينار البيـزنطى ظل إلى مدى طويل لـه قيمته ، ولقـد أصدر البـابا قـرارا بحرمـان كل من يتعامل بـالعملة السـابقة فظهرت عملـة جديدة ، فصنعـوا عملة مشابهة بنقـوش مسيحية وتـاريخ ميلاد المسيح بالعـربية وصليب فى منتصفها ، وبـدأ التعامل بها سنـة ١٢٥١ ، - وظهر نظام جـديد خاص بتقييد ما للعميل من حساب فى المصارف وتأسست البيوت المالية فى جنوه وبيزا والبندقية[3] .

---

(١) العدوى : الامبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية ص ١٢٨ .
(٢) رنسمان : الحضارة البيزنطية ص ٢١٠-٢١١.
(٣) رنسمان : الحضارة البيزنطية ص ٢١٢ .

الملاحق

١- جدول بأسماء حكام الشرق الإسلامى ، والدولة البيزنطية (١٠٨١ - ١٢٦٠م) .

٢- رسالة صلاح الدين إلى الخليفة العباسى يعدد ماله من فضائل فى قتال الفرنج وبيزنطة .

٣- وصف القاضى الفاضل لبعض رسائل الامبراطور البيزنطى إلى صلاح الدين.

٤- رسالة الكايغكوس إلى صلاح الدين .

٥- مدينة القسطنطينية فى رحلة الفاضل الهروى .

٦- وصف مدينة القسطنطينية لابن الأثير .

الملحق الأول

جدول بأسماء حكام الشرق الإسلامى والدولة البيزنطية

١٠٨١ - ١٢٦٠م

أولا - الخلفاء العباسيون :[1]

المقتدى	١٠٧٥-١٠٩٤
المستظهر	١٠٩٤-١١١٨
المسترشد	١١١٨-١١٣٥
الراشد	١١٣٥-١١٣٦
المكتفى	١١٣٦-١١٦٠
المستنجد	١١٦٠-١١٧٠
المستضىء	١١٧٠-١١٨٠
الناصر	١١٨٠-١٢٢٥
الظاهر	١٢٢٥-١٢٢٦
المستنصر	١٢٢٦-١٢٤٢

ثانيا- الفاطميون :[2]

المستنصر	١٠٣٥-١٠٩٤
المستعلى	١٠٩٤-١١٠١
الآمر	١١٠١-١١٣٠
الحافظ	١١٣٠-١١٤٩
الظافر	١١٤٩-١١٥٤
الفائز	١١٥٤-١١٦٠

---

(١) أسد رستم : الروم ج ٢ ص ٣١٤ .

(٢) أسد رستم : الروم ج ٢ ص ٣١٥ .

ثالثا - الأيـوبيـون :[1]

١ - القاهرة :

صلاح الـدين *	١١٩٣-١١٧٤
العـزيـز *	١١٩٨-١١٩٣
المنصـور	١١٩٩-١١٩٨
العـادل الأول *	١٢١٨-١١٩٩
الكـامل *	١٢٣٨-١٢١٨
العـادل الثـانى*	١٢٤٠-١٢٣٨
الصالح أيـوب *	١٢٤٩-١٢٤٠
المعظم تـورانشاه*	١٢٥٠-١٢٤٩
الأشرف مـوسى	١٢٥٢-١٢٥٠
المستنـصر	١٠٩٤-١٠٣٥
المستـعلى	١١٠١-١٠٩٤
الآمـر	١١٣٠-١١٠١
الحافـظ	١١٤٩-١١٣٠
الظـافـر	١١٥٤-١١٤٩
الفـائز	١١٦٠-١١٥٤
العـاضـد	١١٧١-١١٦٠

٢ -دمشـق :

الأفضـل	١١٩٦-١١٩٣
العـادل الأول *	١٢١٨-١١٩٦
المعظـم عيسـى	١٢٢٧-١٢١٨
النـاصر داود	١٢٢٨-١٢٢٧
الأشرف مـوسى	١٢٣٧-١٢٢٨
الصـالح إسماعيل	-١٢٣٧

---

(١) أسد رستم : الروم ج ٢ ص ٣١٥ .

* هذه العلامة تدل على الجمع بين القاهرة ودمشق .

الصالح إسماعيل	١٢٣٨-١٢٣٧
الكامل *	١٢٣٩-١٢٣٨
العادل الثانى *	-١٢٣٩
الصالح أيوب *	١٢٤٥-١٢٣٩
الصالح أيوب *	١٢٤٩-١٢٤٥
المعـظم تورانشاه *	١٢٥٠-١٢٤٩
الناصر يوسف	١٢٦٠-١٢٥٠

رابعًا - سلاجقة الشام :[1]

سليمان بن ألب أرسلان	١٠٩٥-١٠٩٤
رضوان بن تتش (بحلب)	١١٠٣-١٠٩٥
دقائق بن تتش (بدمشق)	١١١٣-١١٠٣
ألب أرسلان بن رضوان (بحلب)	١١١٤-١١١٣
سلطان شاه بن رضوان (بحلب)	١١١٧-١١١٤

خامسا - سلاجقة الروم بآسيا الصغرى:

سليمان بن قتلمش	١٠٨٦-١٠٨١
قلج أرسلان الأول	١١٠٧-١٠٩٢
ملكشاه الأول بن قلج أرسلان	١١١٦-١١٠٧
مسعود الأول بن قلج أرسلان	١١٥٦-١١١٦
قلج أرسلان الثانى	١١٨٨-١١٥٦
ملكشاه الثانى	١١٩٢-١١٨٨
كيخسرو الأول	١٢٠٠-١١٩٢
سليمان شاه الثانى بن قلج أرسلان	١٢٠٣-١٢٠٠
قلج أرسلان الثالث بن سليمان شاه	١٢٠٤-١٢٠٣
كيخسرو الأول (مرة ثانية)	١٢١٠-١٢٠٤
كيكاوس الأول بن كيخسرو الأول	١٢١٩-١٢١٠

* هذه العلامة تدل على الجمع بين القاهرة ودمشق .
أسد رستم : الروم ج ٢ ص ٣١٥ .
(٢) عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٢٩٧-١٢٩٨.

كيقباذ الأول بن كيخسرو الأول	١٢٣٦-١٢١٩
كيخسرو الثانى	١٢٤٥-١٢٣٦
كيكاوس الثانى	١٢٥٧-١٢٤٥
قلج أرسلان الرابع	١٢٦٧-١٢٥٧
كيخسرو الثالث	١٢٨٣-١٢٦٧
مسعود الثانى	١٢٩٦-١٢٨٣
كيقباذ الثالث	١٣٠٠-١٢٩٦

سادسا - أباطرة بيزنطة :[1]

أسرة كومنين :

الكسيوس الأول ، كومنينوس	١١١٨-١٠٨١
يوحنا الثانى	١١٤٣-١١١٨
مانويل الأول	١١٨٠-١١٤٣
الكسيوس الثانى بوصاية مارية الأنطاكية	١١٨٣-١١٨٠
أندرونيكس الأول	١١٨٥-١١٨٣

أسرة أنجيلوس :

إسحاق الثانى ، أنجيلوس	١١٩٥-١١٨٥
الكسيوس الثالث	١٢٠٣-١١٩٥
الكسيوس الرابع	١٢٠٤-١٢٠٣
إسحاق الثانى	١٢٠٤-١٢٠٣
الكسيوس الخامس ، مورتزوفلوس	-١٢٠٤

سابعا - أباطرة نيقية :[2]

١٢٠٤-١٢٦١م :

أسرة الأشاكرة :

تيودور الأول الأشكرى	١٢٢٢-١٢٠٤
يوحنا الثالث ، دوكاس	١٢٥٤-١٢٢٢
تيودور الثانى ، الأشكرى	١٢٥٨-١٢٥٤
يوحنا الرابع ، الأشكرى	١٢٦١-١٢٥٨

(١) Ostrogorsky : of . cit . p. 516 .

(٢) Ostrogorsky : of . cit . p. 516.

ثامنا - أباطرة القسطنطينية اللاتين :[1]

١٢٥٤-١٢٦١م

بلدوين الأول ، فلاندرز	١٢٠٤-١٢٠٥
هنرى فلادز	١٢٠٦-١٢١٦
بيتر كورتناى	١٢١٧-
يولاند	١٢١٧-١٢١٩
روبرت كورتناى	١٢٢١-١٢٢٨
بلدوين الثانى	١٢٢٨-١٢٣١
حنا بربين	١٢٣١-١٢٣٧[2]

تاسعا - أباطرة طرابيزون :[3]

الكسيوس الأول	١٢٠٤
أندرونيكس الأول	١٢٢٢
حنا الأول	١٢٣٥
مانويل الأول	١٢٣٨
أندرونيكس الثانى	١٢٦٣
جورج	١٢٦٦

عاشرا - حكام أبيروس :[4]

١٢٠٤-١٢٤٦م

ميخائيل الأول	١٢٠٤-١٢١٥
	١٢١٥-١٢٢٤
تيـودور	١٢٢٤-١٢٣٠[5]
مانويل	١٢٣٠-١٢٤٠
حنا	١٢٤٠-١٢٤٤
ديمترويس	١٢٤٤-١٢٤٦

---

(١) Ostrogorsky : of . cit . p. 516.

(٢) حكم حنا بربين فترة بالاشتراك مع بلدوين الثانى .

(٣) Miller : Trebizond p. 125.

(٤) Ostrogorsky : of . cit . p. 517.

(٥) توج تيودور فى أوائل هذه الفترة امبراطورا ، وحمل منذئذ حكام أبيروس لقب امبراطور .

الملحق الثانى

رسالة صلاح الدين إلى الخليفة العباسى
يعدد ماله من فضائل فى قتال الفرنج وبيزنطة[1]

لم يكن سبب خروج المملوك من بيته إلا وعدا كان انعقد بينه وبين نور الدين - رحمه الله - فى أن يتجاذبا طرفى الغزاة من مصر والشام المملوك بعسكره بره وبحره ونور الدين من جانب سهل الشام ووعره فلما قضى الله با لمحتوم على أحدهما وحدثت بعد الأمور أمور اشتهرت للمسلمين عورات وضاعت ثغور وتحكمت الآراء الفاسدة وفورقت المحاج القاصدة وصارت الباطنية بطانة من دون المؤمنين والكفار محمولة إليها جزى المسلمين والأمراء الذين كانوا للإسلام قواعد وكانت سيوفهم للنصر موارد يشكون ضيق خلقات الأسار وتطرق الكفار بالبناء فى الحدود الإسلامية ولا خفاء أن الفرنج بعد حلولنا بهذه الخطة قاموا وقصدوا واستنجدوا علينا أنصار النصرانية فى الأقطار وسيروا الصليب من كسى مذابحهم وهدد طاغية كفرهم باشتراط القيامه وأنفذوا البطارقة والقسيسين برسائل صور من يصورنه ممن يسمونهم القديسين وقالوا: إن الفعلة وقعت أوقعت فيها لا يستدرك فارطه وإن كلا من صاحب قسطنطنيية وصاحب صقلية وملك الألمان وملوك ما وراء البحر وأصحاب الجزائر كالبندقية والبيشانية والجنوية وغيرهم قد تأهبوا بالعمائر البحرية والأساطيل القوية وللإسلام بأمير المؤمنين ناصر ، لاسيما وهم ينصرون باطلا وهو ينصر حقا وهو يعبد خالقا وهم يعبدون خلقا .

---

(١) أبو شامة: الروضتين ج ١ ص ٢٤٤ .

الملحق الثالث

وصف القاضى الفاضل لبعض رسائل الامبراطور البيزنطى إلى صلاح الدين[1]

«ينهى المملوك وصول رسول ملك الروم بما فى صحبتـه من هدية ، وبما على لسانه من رسـالـة ، وبما على يـده من كتـاب » وحضر بين يـدى الملك العـادل ، وجـرى من المفـاوضة مـا أبدتـه امتنان الملك بكـونه لم يجب رسـول ملك الألمان وصاحب صقلية وغيرهم من جيوش الفـرنج إلى الموافقة على حرب السلطان وإطـلاق طريقهم ، وامتنع وسد الـدربندات وحفظ عليهم الطرق وأوصى أرباب الحصـون بالتيقظ والمنع دونهم ، وجعل عذره ليلتمس موافقته أن البلاد فى هـذه السنة غاليـة السعر والمصلحة تقتضى أن لا تكون الحركـة إلا بقوة وعلى تمكن من الميرة ، وتـأخير الحركة إلى السنة الأخـرى ثم قال: « هذا ملك الروم خائف من الفرنج على بلـده مدافع عن نفسه ، وإن تم له الدفع أدعى أنه بسببنا ، وإن لم يتم أدعى أنه غـائب عن مقصده ومقصدنا » وجعل ما أورده من أن يقـال إن البطاركـة فى قـامته من قبلـه وأن ينقل من ولايـة الفـرنج إلى أن يوليهـا الطاغية من أهـل عمله سببا يبسط به غدره بـزعمه عند أهل جنسه ويـدفع عن نفسه ، لاسيما مع إقامتـه الخطبة الإسـلامية ، ونقله المنبر ، وفسحتـه فى الصلاه وإعـزاز الكلمة الإسلامية ، أرغم الله بها أنفه ، وعجل بسيفها حتفه . ومولانا أبقاه الله يتثبت فى الأجوبة ولا يجيب إلى ما على الإسلام فيه غضاضة ولا إلى ما للكفر فيه قوة ﴿ **إن ينصركم الله فلا غالب لكم** ﴾ .

ومن كتاب آخر (وصـل إلى المملوك كتاب يذكر وصـول رسول الملك العتيق من

---

(١) أبو شامة: الروضتين ج ٢ ص ١٧٧ ، ١٧٨ .

قبرص إليه ، يخبره بعصيانه على ملك اتكلتيره، ومكاشفته بالعداوة والحرب ، وأنه قد كاتب السلطان - أعز الله نصره - يبذل له من نفسه العبودية والطاعة والمظاهرة على ملك اتكلتيره والأنباء متواترة ، بأن الملك أحرق موانىء قبرص ووعدها وقطع الميرة عن الساحل ، ولا شبهة أن مولانا يتقبل من المذكور ، ويقوى نفسه على هذه المباينة ، فإن فى تخاذلهم نصرة الإسلام وشغل بعضهم ببعض ، وافتراق كلمتهم المجتمعة وقطعا للميرة عن الشام وأمنا لجانب كثير من جوانب البحر ، وهذا الملك العتيق قد صار لمولانا صديقا ، وما سمى العتيق إلا لأنه صار لمولانا عتيقا ولا اعتبار بحديثنا مع صاحب القسطنطينية فى أنا ننجده على قبرص ، فإنا إنما وعدناه بالنجدة عليها ، لما كانت بيد عدونا ، والله ما أفلح ملك الروم قط ولا نفع أن يكون صديقا ، ولا حتى أن يكون عدوا ، وكذلك صاحب الغرب »[1] .

(١) أبو شامة: الروضتين ج ٢ ص ١٧٨ .

الملحق الرابع

رسالة الكايغكوس إلى صلاح الدين[1]

ولقد وصل إلى السلطان كتاب من الكايغكوس ، وهو مقدم الأرمن - وهو صاحب « قلعة الروم »[2] التى على طرف « الفرات » .

« كتاب الداعى المخلص « الكايغكوس » ما أطالع به علم مولانا ومالكنا السلطان الناصر ، جامع كلمة الإيمان ، رافع علم العدل والإحسان ، صلاح الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، أدام الله إقباله ، وضاعف جلاله ، وصان مهجته وكمل نهاية آماله ، بعظمته وجلاله .

من أمر ملك الألمان وما جرى له عند ظهوره ، وذلك أنه أول ما خرج من دياره ، ودخل بلاد الهنكر[3] غصبا ، وغصب ملك الهنكر بالإذعان والدخول تحت طاعته وأخذ من ماله ورجاله ما اختار ، ثم إنه دخل أرض مقدم الروم ، وفتح البلاد ونهبها وأقام بها ، وأخرج ملك الروم إلى أن أطاعه ، وأخذ رهائنه ، ولده وأخاه وأربعين نفرًا من خلصائه وأخذ منه خمسين قنطارا ذهبا ، وخمسين قنطارا فضة ، وثيابا أطلس بمبلغ عظيم .

واغتصب المراكب وعاد بها إلى هذا الجانب ، وصحبته الرهائن إلى أن دخل حدود بلاد الملك « قلج أرسلان » ورد الرهائن ، وبقى سائرا ثلاثة أيام وتركمان

---

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ١٠٧ .

(٢) قلعة الروم : هى قلعة حصينة فى غربى الفرات مقابل ألبيرة بينهما وبين سميساط (معجم البلدان ج ١٣ : ٣٩٠-٣٩١) .

(٣) بلاد الهنكر : المقصود بها بلاد هنغاريا أو المجر (الآن)
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٢٠ .

« الأوج »[1] يلقونـه بالأغنام « وبـالبقر » والخيل والبضائع ، فـداخلهم الطمع ، وجمعوا جموعا من جميع البلاد ، ووقع القتل بين التركمان وبينه ، وضايقوه ثلاثة وثلاثين يوما وهو سائر .

ولما قـرب من « قونيـة »[2] ، جمع « قطب الـدين ولـد قلج أرسـلان « العسـاكـر » وقصده وضرب معـه مصافا عظيما ، فظفـر به ملك الألمان ، كسره كسرة عظيمـة ، وسار حتى أشرف على قونية فخرج إليه جموع عظيمة من المسلمين ، فردهم مكسورين وهجم على « قونيـة » بالسيف ، وقتل منهم عالما عظيما من المسلمين والفرس ، وأقـام بها خمسة أيام ، فطلب « قلج أرسلان » منـه الأمان فأمنه الملك ، واستقرت بينهم قـاعدة أكيدة ، وأخذ الملك منـه رهائن ، عشرين من أكـابر دولتـه ، وأشار على الملك أن يجعل طـريقه على « طرسوس »[3] و « المصيصة »[4] ففعل وقبِل منه .

وقبل وصوله إلى هذه الديار اختيارا أو كرها ، اقتضى الحال إنفاذ المملوك حاتم ، وصحبتـه ما سأل ، ومعـه من الخواص جماعـة للقاء الملك ، وجـواب كتـابه ، وكـانت الوصية (معهم) أن يمـروا به على بلاد « قلج أرسلان » إن أمكن ، فلما اجتمعـوا بالملك الكبير أعادوا عليـه الجواب ، وعرفـوه الأحوال بـالانحراف ، ثم كثـرت عليه العـاسكر والجمـوع ، ونـزل على شط بعض الأنهار ، وأكل خبـزا ونـام ، وانتبـه فتـاقت نفسـه إلى الاستحمام فى الماء البـارد ، ففعل ذلك وخرج ، وكـان من أمـر الله أن تحرك عليه مـرض عظيم من الماء البارد ، فمكث أياما قلائل ومات .

وأما « ابن لاون » فإنه كان سائرا يلقى الملك ، فلما جرى هذا المجرى هرب الرسل من العسكـر ، وتقدمـوا إليـه وأخبروه (بـالحال) ، فدخل فى بعض حصـونـه واحتمى هناك.

---

(١) صنف من الأتراك فيما وراء سيحون (معجم البلدان ج ٣ : ٧٦).

(٢) قونية : مدينة كانت من أعظم مدن الإسلام بالروم (آسيا الصغرى)
(معجم البلدان ج ٣ : ٤٢٥) .

(٣) طرسوس : إحدى مدن (آسيا الصغرى) وكانت ثغـرا من ناحية بلاد الروم (آسيا الصغرى) على ساحل البحر الشامى (الأبيض المتوسط) .
(ياقوت ج ٣ : ٢٨-٢٩) .

(٤) المصيصـة : من ثغور الشـام بين أنطاكيـة وآسيا الصغـرى ، وكـانت من الأماكن التى يـرابط بها المسلمون .

وأما ابن الملك ، فكـان أبوه منذ توجهـه إلى قصد هذه الديار ، نصـب ولده الذى معه عـوضه ، واستقـرت القاعـدة ، وبلغه (هرب) رسل ابن لاون فـأنفذ واستعطفهم وأحضرهم وقال : « إن أبى كـان شيخا كبيرا ، وما قصد هذه الـديار إلا لأجل حج بيت المقدس ، وأنا الذى دبرت الملك ، وعاينت المشاق فى هذه الطريق ، فمن أطاعنى وإلا قصدت دياره ، واستعطف ابن لاون ، واقتضى الحال الاجتماع (به) ضرورة .

وبالجملة فهـو فى عدد كثير ، ولقد عرض عسكـره فكان اثنين وأربعين مجفجفا[1] وأما الرجالة فما يحصى عددهم ، وهم أناس متفاوتة على قصد عظيم ، وجد فى أمرهم ، سياسة هائلة ، حتى إن من جنى منهم جناية فليس له جزاء إلا أن يذبح مثل الشاة.

ولقـد بلغهم عن بعض أكابـرهم أنـه جنى على غلام لـه وجاوز الحد فى ضربـه ، فـاجتمعت القسوس للحكـم ، فاقتضى الحال والحكم العـام ذبحـه ، وشفع إلى الملك منهم خلق عظيم فلم يلتفت إلى ذلك وذبحـه ، وقد حرمـوا الملاذ على أنفسهم حتى إن من بلغهم عنه بلـوغ لذة هجروه وعزروه ، كـل ذلك كان حزنا على بيت المقـدس ، ولقد صح عن جمع منهم أنهم هجروا الثياب مدة طويلـة (وحرموها على أنفسهم) ، وحرموا ما حلَّ ولم يلبسـوا إلا الحديد ، وحتى أنكـر عليهم الأكابـر ذلك ، وهم من الصبر على الشقاء والذل والتعب فى حال عظيم .

طالع المملوك بالحال ، وما يتحدد بعد ذلك يطالع به إن شاء الله تعالى .

---

(١) مجفجفـا : أى يلبسون التجفـاف وهى آلـة يلبسها الإنسـان أو الفـرس تصنع من حديـد أو غيره للوقاية أثناء الحرب ، وهى كلمة ليست من أصل عربى . (القاموس المحيط ، والمنجد) .

الملحق الخامس

مدينة القسطنطينية فى رحلة الفاضل الهروى [1]

مدينة القسطنطينية فى جانب صورها قبر أبى أيوب الأنصارى صاحب رسول الله صلى الله وسلم واسمه خالد بن زيد ، ولما قتل دفنه المسلمون وقالوا للروم: هذا من كبار أصحاب نبينا فوالله إن نبش لأدق بناقوس فى أرض العرب أبدا ، وبها الجامع الذى بناه مسلمة بن عبد الملك والتابعون ، وبه قبر جل من ، ولد الحسين رضى الله عنه وبها الأصنام النحاس والرخام والعمد والطلسمات العجيبة والمنابر الذى تقدم ذكرها والآثار التى ليس فى الربع المسكون مثلها، وبها أيا صوفيا ،وهى الكنيسة العظمى عندهم ويقولون بها ملك من الملائكه مقيم بها وقد عملوا داير مكانه درابزاين من الذهب ولها حكاية عجيبة نذكرها فى موضعها وسأذكر ترتيب هذه الكنيسة وهيكلها وارتفاعها وأبوابها وعلوها وطولها وعرضها ، والعمد التى بها وعجائب هذه المدينة وأوضاعها وصفة السمك الذى بها وباب الذهب والأبرجه والأفيلة النحاس ، وجميع ما بها من الآثار والعجائب ومما فعل الملك مانويل معى من الخير والإحسان فى كتاب العجائب كما تقدم إن شاء الله تعالى وهذه المدينة أكبر من اسمها نسأل الله تعالى أن يجعلها دار إسلام بمنه وكرمه إن شاء الله تعالى مدينة سالونيك[2] يقصدها الروم والفرنج والله أعلم.

أما مدينة نيقية من أعمال أسطنبول على البر الشرقى ، وهى المدينة التى اجتمع بها أبناء الملة المسيحية ، وكانوا ثلاثة وثلاثين وثمانية عشر أبا ويزعمون أن المسيح عليه السلام كان معهم فى هذا المجمع وهو أول المجامع لهذه الملة وبه أظهروا الأمانة التى هى أصل دينهم وصورهم وصورة المسيح على كراستهم بهذه المدينة فى وطاق ولهم فيها الاعتقاد العظيم الطريق من هذه المدينة إلى بلاد الروم الشمالية قبر أبى محمد البطال على تل فى حد تخوم البلاد عمرويه بها قبور جماعة استشهدوا مع المعتصم رحمهم الله

(١) الهروى : الإشارات إلى معرفة الزيارات ورقه ١٩٧ (مخطوط بدار الكتب ٧٤٧ جغرافيا)
(٢) يقصد مدينة سالونيك .

تعالى – وآثار عجيبة ذكرها فى موضعها سلطان وكى وهو موضع عجيب ويقال له أيضا الثيرما بالرومى ويقال له أوكوم وهو على تخوم البلاد وحد الكافر وبهذا الموضع آثار ازاج معقـودة وتحتها الماء الـذى ليس مثله فى البـلاد فى صفائه وحـرارته وحـلاوته ومنفعتـه تقصده أصحاب الأمراض من البلاد وسنذكر صفته والحياة التى به فى كتاب العجائب إن شاء الله تعالى مـدينة قونية بها قبر أفلاطون الحكيم بـالكنيسة التى إلى جانب الجامع ورأيته فى بستـان فخر الدين سريـرا من الرخـام عليه صورة رجل وامـرأة نيام تحت إزار والجميع مستخـرج من جسم الرخـام وذرعتـه طولا وعـرضـا ، وسيأتى ذكره فى كتـاب العجائب إن شـاء الله ، وبالله التـوفيق ونعم الرفيق مدينـة قيصاريـة بها جسر محمد بن الحنفية بن على بن أبى طـالب رضى الله تعالى عنه ، وبها جامع البطـال ، وبها البضرم به آثار قـديمة وبها قبة الخيالـة ، وبها الحمام الذى ذكروا أن بلنـاس الحكيم عملها للملك قيصر تحمى بابراج الله أعلم ، وعنـدها جبل عسيب به قبر امرىء القيس شـاعر العرب الذى قال:

أجارتنا إن الخطوب تنوب * وإنى مقيم ما أقـــام عسيب

أجارتنا إنا غريبان ها هنـــا * وكل غريب للغريب نسـيب

ذكر الإبـروق وهو مـوضع ببلاد الـروم يزار فى الأفـاق وبلغنى أن به شهـداء عهد عمربن الخطاب وأنهم لا يبلـون ، ويحلقون رءوسهم ويقلمون أظافـرهم فقصدته لالقى نظرة حقيقيـةعلى ذلك وهو فى لجف جبل إليـه يدخل مـن باب برج ويمشى الـداخل تحت الأرض إلى أن ينتهى إلى موضع واسع ، وهـو جبل مكشوف تبين السماء من قـوته وفى وسطـه بحيرة ودايرهـا بيوت الفـلاحين وهم قوم من الـروم ، زرعهم ظاهـر الموضع وبيوتهم داله وهناك كنيسة لطيفة ومسجد فإن كان الذاكر مسلما أتوا به إلى المسجد وإن كان نصرانيـا أتوا بـه إلى الكنيسة ثـم يدخل إلى بهو فيـه جماعة قـد قتلوا وآثـار طعنات الأسنـة وضربات السيـوف فيهم ومنهم من قـد راح بعض أعصـابه وعليهم ثيـاب من القطن لم تتغير وهناك فى مـوضع أخر أربعـة قيام قد سنـدوا ظهورهم إلى حـائط المغارة ومعهـم صبى قد وضع رأسـه على يد واحد منهم طـوال من الرجال أسمر اللـون وعليه قباء من القطن مفتوح كأنه يصافح ورأس الصبى على زنده وإلى جانبه رجل على وجهه ضربة قد قطعـت شفته العليا وظهرت أسنانـه وهم بعمايم وهناك مغارة كـالفصنة فيها امرأة وعلى صـدرها صغير ماسك بثديها ، وحلمتهـا فى فيه وهناك أيضا فى مـوضع عال

سرير عليه اثنا عشر رجلا فيهم صبى مخضوب بالحناء يداه ورجلاه والروم يزعمون أنهم منهم والمسلمون يقولون هم من أصحاب عمر بن الخطاب ورضى الله تعالى عنه ماتوا هناك صبرا وما حلق رءوسهم وتقليم أظافرهم فليس لذلك صحة إلا أنهم قوم قد يبست جلودهم على العصام ولم يتغيروا ، والله تعالى أعلم، مدينة ابلستين قرب منها بلد خراب يقال له أبسيس[1] يقال : إنه بلد دقيانوس وبه آثار عجيبة وعمارة قديمة وغربى هذه البلد الكهف وهو كما قال الله عز وجل فى كتابه العزيز ووصفه بقوله **﴿وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم فى فجوةٍ منه﴾** « الآية ١٧ سورة الكهف » وقد تقدم ذكر أهل الكهف والرقيم وهذا أصح ما رُوِىَ والله أعلم - مدينة ملطية قيل بناها الإسكندر ويقال إن جامعها بنته الصحابة والتابعون رضى الله عنهم أجمعين مدينة ازرن الروم بها قبر الحجاج بن علاط ، والله أعلم .

---

(١) أبسيس هى أفسوس .

الملحق السادس

وصف مدينة القسطنطينية(1)

أرض الروم إقليم عظيم وبه مدن وضياع وقرى وبساتين وفواكه مختلفة الثمار وهى على جانبى البحر القسطنطينى من الجهتين إلى المحيط المظلم ، وهى حى من أحياء الروم وبين بحر القرم ودونه من جهة بلاد الأرض أحد عشر عملاً وعمل حربية فيه خمس حصون وعمل الأرسق من عشرة حصون وعمل ألافشين وبه أربعة حصون وعمل خيرسون وبه أربعون حصنا وعمل النقلان وفيه ستة عشر حصنا وعمل الأرسان وفيه خمسة عشر حصنًا وأرزن الروم وهى بلاد اليونان غلبت الروم عليها ويقال إنه ببلاد الروم ما به جزيرة فى البحر كلها مدن عامرة وقرى متصلة ورساتيق وحصون منيعة ، ومدنهم المشهورة القسطنطينية هى جدية مثله الشكل منها جانبان في البحر وجانب فى البر وفيه باب الذهب وطولها تسعة أميال وعليها سور حصين ارتفاعه أحد وعشرون ذراعًا يحيط بها فصل داير ارتفاع سمكه عشرة أذرع وبها من الأبواب مائة باب وأكثرها الباب المصمت وهو الباب الكبير ، وهو مموه بالذهب وبها القصر المشهور وبه اليديدرك ، وهو الدرب الذى يتوصل منه إلى القصر وهو من عجائب الدنيا وهو ملعب وزقاق يمشى فيه من شطرين من صور متفرعة من نحاس بديع الصنعة على شكل الآدميين والخيل والفيلة والسباع ، وغير ذاك ، وهى أكبر من الأشكال الموضوعة على مثالها وبالقصر ، وبها دار صفوف من العجائب وفى المدينة منارة موثوقة بالرصاص والحديد إذا هبت الريح مالت معها يمينا وشمالا وخلفا وأماما ويدخل الناس تحتها

---

(1) ابن الأثير : تحفة العجائب وطرفة الغرائب ورقه ١٥٧-١٥٨ .
نقل بن الأثير معلوماته من كتب الرحالة المناهج والمناهج للرواقى العجائب للقزوينى المسالك والممالك الشرقية للجيهانى والإشارات للهروى.

الخزف فتطحنه وبها أيضا منارة قريبة من مرساها قد قلب قطعة واحدة وليس لها باب ، وفيها أيضا منارة قريبة من مرساهـا قد ألبست جميعها نحاسا وعليها قبر قسطنطين وهو راكب وقوائم الفرس محكوم بالرصاص حـاملا يده اليمنى بأنها مطلوقة سلبية فى الهوى كأنه سـائر وفى يده اليسرى كرة ويده اليمنى مفتـوحة كأنه يشير نحو بـلاد الشام وهذه المنارة تبين على مسيرة نصف يـوم فى البحر يقولون: إن فى يـده طلسماً يمنع العدو وقيل إن على الكرة مكتوبًا « ملكت الدنيا حتى بقيت فى يدى كالكرة وخرجت منها هكذا لا أملك شيئا» وبها أيضا قنطـرة يعجز الواصف عن ذكرهـا ويخرج إلى حد التكذيب وبها من النقوش مالا يحصره الواصف .

* * *

المراجـــع

أولا : المصادر العربية المخطوطة والمصورة .

ثانيا : المصادر العربيـــة المطبوعـــة .

ثالثا : المراجع العربيـــة الحديثـــة .

رابعا : المراجع الأوربيـــة .

أولا : المصادر المخطوطة والمصورة

ابـــــــن الأثير : (عز الدين أبو الحسن على الجزرى) :
تحفة العجائب وطرفة الغرائب .
مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٤٩٩ جغرافيا

ابــــن أيبـــــك : (أبو بكر عبد الله) :
كنز الدرر وجامع الغرر
الجزء السابع وعنوانه « الدار المطلوب فى أخبار بنى أيوب »
مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٤٦٤٣ تاريخ

ابــــن واصـــــل : (جمال الدين محمد بن سالم)
مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب .
صـورة شمسية بـدار الكتب المصريـة رقم ٥٣١٩ مأخـوذة من نسخة خطية با لمكتبة الأهلية بباريس .

العينـــــــــى : (بدر الدين محمود الحنفى)
عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان .
الجزء ١٨ مخطوطة بالتصوير الشمسى بدار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤ تاريخ .

النــــويـــــرى : (شهاب الدين أحمد) :
نهاية الأرب فى فنون الأدب .
الجزء ٢٧ مخطوطة بالتصوير الشمسى بدار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ معارض عامة .

الهــــــــروى : الإشارات إلى معرفة الزيارات .
رحلة الفاضل الهروى
مخطوطة بدار الكتب رقم ٧٤٧٤ (جغرافيا) .

ثانيا : المصادر المطبوعة

ابن الأثير : (عز الدين أبو الحسن على الجزرى) :

* التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية (القاهرة ١٩٦٣)

* الكامل فى التاريخ (١٢ جزءا)

ابن تغرى بردى : (جمال الدين يوسف أبو المحاسن) :

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (القاهرة ١٩٣٦)

ابن جبير : (أبو الحسن محمد بن أحمد)

الاستبصار فى عجائب الأمصار

رحلة ابن جبير (القاهرة ١٩٠٨)

ابن الجوزى : (شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزاوغلى) .

مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان .

جـ٨ (حيدر آباد ١٩٥٢)

ابن خلدون : (عبد الرحمن بن محمد)

العبر وديوان المبتدأ والخبر (القاهرة ١٣٢٢)

ابن خلكان : (شمس الدين أبو العباس أحمد)

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان .

٣ أجزاء (القاهرة - ١٩٤٨)

ابن رستة : الأعلاق النفيسة (ليدن - ١٨٩١)

ابن سعيد المغربى : كتاب بسط الأرض فى الطول والعرض .

تحقيق خوان قرنيطنيسى (تطوان - ١٩٥٨)

ابن شاكر الكتبى : (صلاح الدين محمد)

الوافى بالوفيات (جزءان فى مجلدين- مطبعة بولاق)

ابن شداد : (القاضى بهاء الدين)

النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (القاهرة ١٣١٧هـ)

ابن العبرى : (غريغورس الملطى)

تاريخ مختصر الدول (بيروت ١٩٥٨)

ابن العديم : (كمال الدين عمر بن أحمد)

زبدة الحلب فى تاريخ حلب

جزءان نشرهما سامى الدهشان (دمشق ١٩٤٥-١٩٥١)

بقية الكتاب مخطوطة بدار الكتب

ابن شداد : (القاضى بهاء الدين)

النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (القاهرة ١٣١٧هـ)

ابن العبرى : (غريغورس الملطى)

تاريخ مختصر الدول (بيروت ١٩٥٨)

ابن العديم : كمال الدين عمر بن أحمد)

زبدة الحلب فى تاريخ الحلب

جزءان نشرهما سامى الدهشان (دمشق ١٩٤٥ - ١٩٥١)

ابن العماد : بقية الكتاب مخطوطة بدار الكتب

(عبد الحى بن أحمد الحنبلى .

شذرات الذهب فى أخبار من ذهب

طبعة مكتبة القدس (١٣٥)

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق (بيروت ١٩٠٨)

ابن مسكويه : أبو حيان التوحيدى
تجارب الأمم (مصر ١٣٢٢)
ابن مماتى : (الوزير الأسعد الخضير شرف الدين أبى المكارم)
قوانين الدواوين . (القاهرة ١٩٠٧)
ابن النديم : (محمد بن إسحاق بن أبى يعقوب)
الفهرست (القاهرة ١٢٩٩)
ابن واصل : (جمال الدين محمد بن سالم)
مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب
نشره وحققه جمال الدين الشيال حتى نهاية سنة ٦١٥هـ
فى ثلاثة أجزاء .
بقية الكتاب نسخة مخطوطة بدار الكتب (القاهرة ١٩٦٠)
ابن الوردى : (أبو جعفر زين الدين عمر) :
تنمية المختصر فى اخبار البشر
المعروف بتاريخ ابن الوردى
(القاهرة ١٢٨٥هـ)
أبو شامة : (شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن المقدسى)
كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين (القاهرة ١٢٨٧)
ذيل الروضتين (القاهرة ١٩٤٧)
أبو الفدا : (الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل)
المختصر فى أخبار البشر المعروف بتاريخ أبى الفدا
(القاهرة ١٢٣٥هـ)
أبو المحاسن : (جمال الدين يوسف بن تغرى بردى)
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (القاهرة ١٩٢٩م)
الإدريسى : محمد بن محمد عبد الله بن إدريس
نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق فى ذكر الأمصار والأقطار

والبلدان والجر والمدن والآفاق (روما ١٨٧٨م)

الأصفهـــــانـى : (عماد الدين محمد)

* تاريخ دولة آل سلجوق (القاهرة ١٣١٨)

* الفتح القسى فى الفتح القدسى (القاهرة ١٢٢٥)

الفتح بن على بن محمد

البنـــــــدارى : زبدة النصرة ونخبة العصرة وهو مختصر نصرة الفترة وعصرة القطرة لعماد الدين الكاتب الأصفهانى

(القاهرة - ١٣١٨)

التطيـــــــلى : (بنيامين بن يونه)

الرحلة (بغداد - ١٩٤٥)

الطبــــــــرى : محمد بن جرير

تاريخ الأمم والملوك (القاهرة - ١٣٢٦هـ)

القــــــزوينى : زكريا بن محمد بن محمود

عجائب المخلوقات (مطبعة التقدم: القاهرة)

القلقشنـــــدى : (أبو العباس أحمد)

صبح الاعشى فى صناعة الإنشا

١٤ جزء (القاهرة - ١٩١٣)

السعـــــــودى : على بن الحسين بن على المسعودى

مروج الذهب ومعادن الجوهر

(أربعة أجزاء) (القاهرة ١٣٨٢هـ)

المقـــــــدسى : أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد

أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم (ليدن ١٨٧٧م)

المقـــريـــزى : (تقى الدين أحمد بن على)

* السلوك لمعرفة دول الملوك

تحقيق محمد مصطفى زيادة (القاهرة - ١٩٣٦)

* المواعظ والاعتبار (مصر ١٣٢٥)

* اتعاظ الحنفا (ليبزج ١٩٠٩م)

النـــويـــرى : (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب)

نهاية الأرب فى فنون الأدب (القاهرة - ١٣٢٤هـ)

يـــاقـــوت : (شهاب الدين أبو عبد الله الحموى)

معجم البلدان - ٥ مجلدات (القاهرة - ١٣٥٩هـ)

الأنطاكـى يحيـى بن سعيد: (بيروت - ١٩٠٩)

التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق

* * *

ثالثا : المراجع العربية الحديثة

أرشيبالد (لويس) : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط

ترجمة أحمد محمد عيسى

بينز (نورمان) : الامبراطورية البيزنطية

ترجمة حسين مؤنس (القاهرة ١٩٥٠)

حبشى (حسن) : الحروب الصليبية الأولى (القاهرة ١٩٤٧)

نور الدين والصليبيون (القاهرة ١٩٤٨)

حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى (القاهرة ١٩٤٨)

حسن (زكى محمد) : الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى (مصر ١٩٤٥)

تراث الإسلام (القاهرة ١٩٣٦)

حسنين (عبد النعيم): سلاجقة إيران والعراق (القاهرة ١٩٥٩)

داوسون ، كروستوفر : تكوين أوربا

ترجمة سعيد عبد الفتاح عاشور ، محمد مصطفى زيادة

(القاهرة ١٩٤٧)

ديل (شارل) : البندقية جمهورية أرستقراطية

ترجمة أحمد عزت عبد الكريم ، وتوفيق إسكندر (القاهرة١٩٤٧)

رنسمان (ستيفن) : الحضارة البيزنطية

ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد (القاهرة ١٩٦١)

زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى

ترجمة زكى محمد حسن وحسن أحمد محمود

(القاهرة ١٩٥١ ، ١٩٥٢)

زيدان (محمد مصطفى): حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة
(القاهرة ١٩٦١)

زيـــادة (نقولا) : الرحالة العرب (القاهرة ١٩٥٦)

زيـدان (جورجى) : تاريخ آداب اللغة العربية (القاهرة ١٩١٣)

سعداوى (نظير حسان) : الحرب والسلام زمن العدوان الصليبى (القاهرة ١٩٦١)

خمسة من مؤرخوى الحروب الصليبية (القاهرة ١٩)

الصياد(فؤادعبدالمعطى: المغول فى التاريخ (القاهرة ١٩٦٠)

عاشور(سعيدعبدالفتاح): الحركة الصليبية (جزءان) (القاهرة ١٩٦٣)

العدوى(إبراهيم احمد) : الامبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية (القاهرة ١٩٥١)

العرينى (السيد الباز): الدولة البيزنطية (القاهرة ١٩٦١)

الشرق الأوسط والحروب الصليبية (القاهرة ١٩٦٣)

مؤرخو الحروب الصليبية (القاهرة ١٩٦٠)

مصر فى عصر الأيوبيين (القاهرة ١٩٦٠)

تاريخ أوربا العصور الوسطى

فشـــر (هـ . أ . ل) : ترجمة محمد مصطفى زيادة ، السيد الباز العرينى
(القاهرة ١٩٥٤)

موســى (عمـر) : أدب الدولة المتابعة عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك
(دار الفكر الحديث - لبنان)

كـلارى : (روبـرت) : فتح القسطنطينية على يد الصليبيين
ترجمة حسن حبشى (القاهرة ١٩٦٤)

* * *

رابعا : المراجع الأوربية

Bayns (N), Moss : Byzantium an introduction to East Roman Civilization. (Oxford . 1948)

Burry : The Second Crusade , in setton : History of the crusades I ch. XV.

Branrd : (Charles) : Saladin and Byzantium . (speclum 1945 Vol xx) .

Brooks, E. W., : The Arab in Asia minor.
Arapic lists of the Byzantine themes.
(Journal of Hellenic Studies Vol xxI) .

Brooks : E : W . The relation Between the Empire and Egypt (Byzantimsch Zeitschrift 1939 XX II.)

Cahen (C.) : La Syrie du Nord á lepoaue des croisades. (Paris 1940)

Cambridge Med. Hist. (Camb . 1957)

Chalandon (F.) : Essai Sur la Regne d'Alexis comnene. (Paris 1900)

Chalandon (F.) : Histoire de la Premiere Croisade. (Paris 1925) .
Les Comnenes . 2 vols. Paris 1900-1912.

Davis (Rev. E. J.) The Invacion of Egypt by Louis IX of France . London-1897

Diehl. Charles (H.) : History of the Byzantine Empire (N.Y. 1945).

London 1913

Encyelopedia of Islam The Claphite and the Arab State .

Gibb (H. A. R.) : in Setton : History of the crusades vol . I.

Gibbon (E.) : Decline and Fall of the Roman Empire . vol . VI . London 1957

Grousset : Histoire des Croisades 3 vols. Paris 1936.

Heyd : Hist . de commerce de Levant au Moyen Age. 2 vols. (Leipzig 1923).

Howorth , Henry (H.) : History of the Mongols . London 1880.

Joinville : Histoire de Saint Lovis Led . N. de Waily . Paris 1874 .

Joinville : History of Saint Louis (by Joon Evans)

La monte : Byzantine Empire and crusading States (Bysantion 1932 Tom Vii) (Bruxelles 1932)

Lane - Poole (S.) : Saladin and the fall of the Kingdom of Jerusalem . (London 1926) .

A History of Egypt in the middle ages (London 1901)

Miller, William : Trebizond , The last Greek Empire (London - 1920)

Essays of the latin Orient . (Camb . 1921-1925)

Ostrogorsky (G.) : Hist. of the Byzantine State (Tran . by Joan Hussey). (Oxford 1956)

Runciman (S.) : A Hist. of the Crusades . 3 vols (Camb . 1954)

Setton : A Hist . of the Crusades 2 vols (Philadelphia)

Pirenne Jacques : The Tides of History . 2 vols .

Wiet (G.) : L'Egypte Arabe (Hist . de la Nation Egyptienne) IV.

William of Tyre : A Hist . of Deeds Done Beyond the sea. (Trans Babcock. Krey) 2 vols . (Columbia 1943)

Vasiliev (A. A.) : The Foundation of Empire of Trebizond (speclum journal of Medival studies vol XI .

(Camb . 1945)

Hist . of the Byzantine Empire . 2 vols

(Madison 1952)

* * *

الفهـــــرس

الفصــــل الثالث

صلاح الدين والبيزنطيون

١١٧٤-١١٨٠م

الفصـــــل الرابـــع

التحالف الأيوبى البيزنطى فى عهد صلاح الدين

١١٨١-١١٩٣م

الفصـــــل الخامس

بيزنطة وخلفاء صلاح الدين

١١٩٣-١٢٥٠م

الفصـــــل السادس

العلاقات الحضارية

ملاحـــق الر سالة

المـراجـــــع

فهـرســت الصـــــور

❐ ❐ ❐

